حي بن يقظان

صياغة جديدة للأطفال بأسلوب جذاب ورسوم مبهرة

تأليف
شهاب سلطان

رسوم
عبد الرحمن بكر

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/558
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
00961 7 230841 - 07 230195
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
2015 - 1436 هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو بالتصوير أو التسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

هَذِهِ الرِّوايَةُ

فِكْــرَةُ هَذِهِ الرِّوايَةِ فِكْرَةٌ مُوغِلَةٌ فِي الْقِدَمِ، وكادَتْ تُنْسَــى لَوْلا أَنْ أَعادَها إِلَى الحَياةِ الشَّــيْخُ الرَّئِيسُ «ابْنُ سِــينا» فَكَتَبَ أَوَّلَ صِياغَةٍ عَرَبِيَّةٍ لَها، وجَعَلَ اسْمَ بَطَلِها (حَيّ)، ورَمَزَ بِهِ إِلَى الإِنْسانِ وهُوَ ابْنُ (يَقْظانَ) الَّذِي رَمَزَ بِهِ إِلَى العَقْلِ اليَقِظِ الَّذِي يَقُودُ الإِنْسانَ إِلَى المَلَكُوتِ الأَعْلَى.

ومِنْ بَعْدِ «ابْنِ سِــينا» بِقَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمانِ جاءَ «ابْنُ طُفَيْــلٍ» وأَعادَ كِتابَتَها في رِوايَةٍ اسْمُها (حَيُّ بْنُ يَقْظانَ). ومِنْ بَعْدِهِ كَتَبَها «شِــهابُ الدِّينِ عُمَرُ السَّهْرَوَرْدِيّ» وجَعَلَ اسْمَها (الغُرْبَة الغَرِيبَة). ثُمَّ كَتَبَها السُّورِيُّ «ابْنُ النَّفِيسِ» تَحْتَ عُنْوانِ (ابْن ناطِقٍ).

وتُرْجِمَتْ رِوايَةُ (حَيِّ بْــنِ يَقْظانَ) لابْنِ طُفَيْلٍ إِلَى عِدَّةِ لُغــاتٍ. وتَأَثَّرَ بِها الكاتِبُ الإِنْجِلِيزِيُّ «دانيال ديفو» الَّذِي أَعادَ كِتابَتَها تَحْتَ اسْــم «روبنسون كروزو» ونُشِرَتْ عام ١٧١٩م، واعْتُبِرَتْ هَذِه الرِّوايَةُ في بَعْضِ الأَحْيانِ الرِّوايَةَ الأُولَى في الإِنْجِلِيزِيَّةِ.

وفي أكتوبــر مِنْ عامِ ١٩١٢م أَعادَ صِياغَتَها الكاتِــبُ الأَمرِيكيُّ «إدجار رايس» في رِوايَةٍ تَحْتَ اسْمِ «طَرَزان القِرَدَة». وحَقَّقَتْ شَخْصِيَّةُ (طَرَزان) نَجاحًا بالغًا في حِينِها، وظَهَرَتْ في كَثِيرٍ مِنَ الأَفْلامِ والبَرامِجِ، وذاعَ صِيتُ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ الرِّوائِيَّةِ لِدَرَجَةِ أَنَّ البَعْضَ كانَ مُقْتَنِعًا أَنَّ (طَرَزان) شَخْصِيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ.

والآنَ.. في بِدايَةِ القَرْنِ الحادِي والعِشْرِينَ جاءَ الكاتِبُ المِصْرِيُّ «شِهاب سُلْطان» لِيُعِيدَ صِياغَةَ الفِكْرَةِ بِأُسْــلُوبِهِ السَّــهْلِ المُمْتَنِعِ، ويُقَدِّمَ لَها رُؤْيَةً جَدِيدَةً تَتَّسِمُ بِرُوحِ الطُّفُولَةِ الَّتِي تُشْتَهَرُ بِها كِتاباتُهُ.

1

في عُرْضِ الْمُحِيطِ، حَيْثُ لَمْ يَذْهَبْ أَحدٌ إِلَى هُناكَ، كانَتْ مَجْمُوعَةٌ مِن قِمَمِ الجِبالِ الصَّخْرِيةِ تَعْلُو فَوْقَ سَــطْحِ المَاءِ، تَتلاطَمُ حَوْلَها الأَمْواجُ وتَتَكسَّرُ عَلَيها، وحِينَ يَهْدَأُ المُحِيطُ ويَصِيرُ وَجْهُ المَاءِ مُسْــتوِيًا مِثلَ سَــجَّادَةٍ زَرْقاءَ، تَتقافَزُ المَوْجاتُ الصَّغِيرةُ كَراقِصاتٍ فِضِّيَّةٍ حَوْلَها، وهِيَ لا تَعْرِفُ مَاذا يَدُورُ في القَاعِ.

وفي القاعِ، وعِنْدَ جُذُورِ هَذِه الجِبالِ، كانَ هُناكَ بُرْكانٌ تَتَدَفَّقُ مِنهُ حِمَمٌ مُلْتَهِبَةٌ، تَنْدَفِعُ إِلَى الوِدْيانِ بَيْنَ أُصولِ الجِبَالِ، وتَفْرِشُ مِساحاتٍ شاسِعَةً مِن رِمالِ القاعِ، وتَبْذُلُ المِياهُ المُظْلِمَةُ في الأَعْماقِ جُهْدًا كَبِيرًا لِتُبَــرِّدَها فَتَسْتَقِرَّ فَوْقَ القاعِ.

ظَلَّ البُرْكانُ يَدْفعُ بِحِمَمٍ جَدِيدَةٍ مِن فُوَّهَتِهِ.. تَزْحفُ الحِمَمُ فَوقَ مَا سَــبَقَها وتَسِيلُ مِن فَوقِ حَوافِها، تَسْتقرُّ فَوقَ رِمالٍ جَدِيدَةٍ وتُبَرِّدُها المِياهُ لِتَسِيرَ فَوْقَها حِمَمٌ جَدِيدَةٌ.

سِــنُونَ طَوِيلَةٌ مَرَّتْ، والحِمَمُ البُرْكانيةُ السَّائِلةُ تَزْحفُ فَوقَ مَا يَبْرُدُ مِنْها، وتَفْتَرِشُ مِســاحاتٍ جَدِيدَةً مِن قاعِ المُحِيطِ، وتَتراكَمُ فَوقَ بَعْضِها حَوْلَ جُذُورِ الجِبَالِ لِتَصْعَدَ

فِي النِّهايةِ فَوْقَ سَطحِ المَاءِ مُكَوِّنَةً جَزِيرَةً بُرْكانِيةً واسِعَةً ـ لا تَرَى العَيْنُ حُدُودَها ـ لهَا أَوْتادٌ عَظِيمَةٌ مُمْتَدَّةٌ فِي أَعْماقِ الأَرْضِ.

خَمَدَ البُرْكانُ وتَنَفَّسَتْ أَرضُ الجَزِيرَةِ الهَواءَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ. تَفَجَّرَتْ فِيهَا عُيونُ ماءٍ عَذْبَةٌ انْتَشَرَتْ عَلَى الأَرْضِ فِي جَداوِلَ وقَنَواتٍ، وصارَتْ أَرْضًا خِصْبَةً صالِحَةً لِلزِّراعَةِ.

مَرَّ مِن فَوْقِ الجَزِيرَةِ الجَدِيدَةِ سِرْبٌ مِنَ الطُّيورِ المُهاجِرَةِ فِي طَرِيقِها لأَنْ تَعْبُرَ المُحِيطَ، رَآها قائِدُ السِّربِ، قَرَّرَ أَنْ يَنْزِلَ بِرِفاقِه للرَّاحَةِ بَعْدَ طُولِ طَيرانٍ. وتَحَوَّلَتِ الجَزِيرَةُ الجَرْداءُ إِلَى مَحَطَّةٍ تَرْتاحُ عَلَيها الطُّيورُ المُهاجِرَةُ.

اتَّسَعَتِ الحَياةُ لِلعَيْشِ فَوْقَ أَرْضِ الجَزِيرَةِ الجَدِيدَةِ، حَمَلَتْ أَرْجُلُ الطُّيورِ وأَجْنِحَتُها بُذُورًا كَثِيرَةً لأَنواعٍ كَثِيرَةٍ مِن النَّباتاتِ مِنَ البِلادِ القَادِمَةِ مِنْهَا، وسَقَطَتْ مِنْها عَلَى الأَرْضِ حِينَ حَطَّتْ عَلَيها. وحَمَلَتِ الرِّياحُ بُذُورًا جَدِيدَةً مِن أَشْجارِ الفاكِهَةِ والثِّمارِ والخَضْراواتِ مِنَ كُلِّ مَكانٍ فَوقَ سَطْحِ الأَرْضِ، وأَسْقَطَتْها فَوْقَ أَرْضِ الجَزِيرَةِ وحَمَلَتِ الأَمواجُ ثِمارَ بَلَحٍ وجَوْزٍ وسَلَّمَتْهُمَا للشُّطْآنِ.

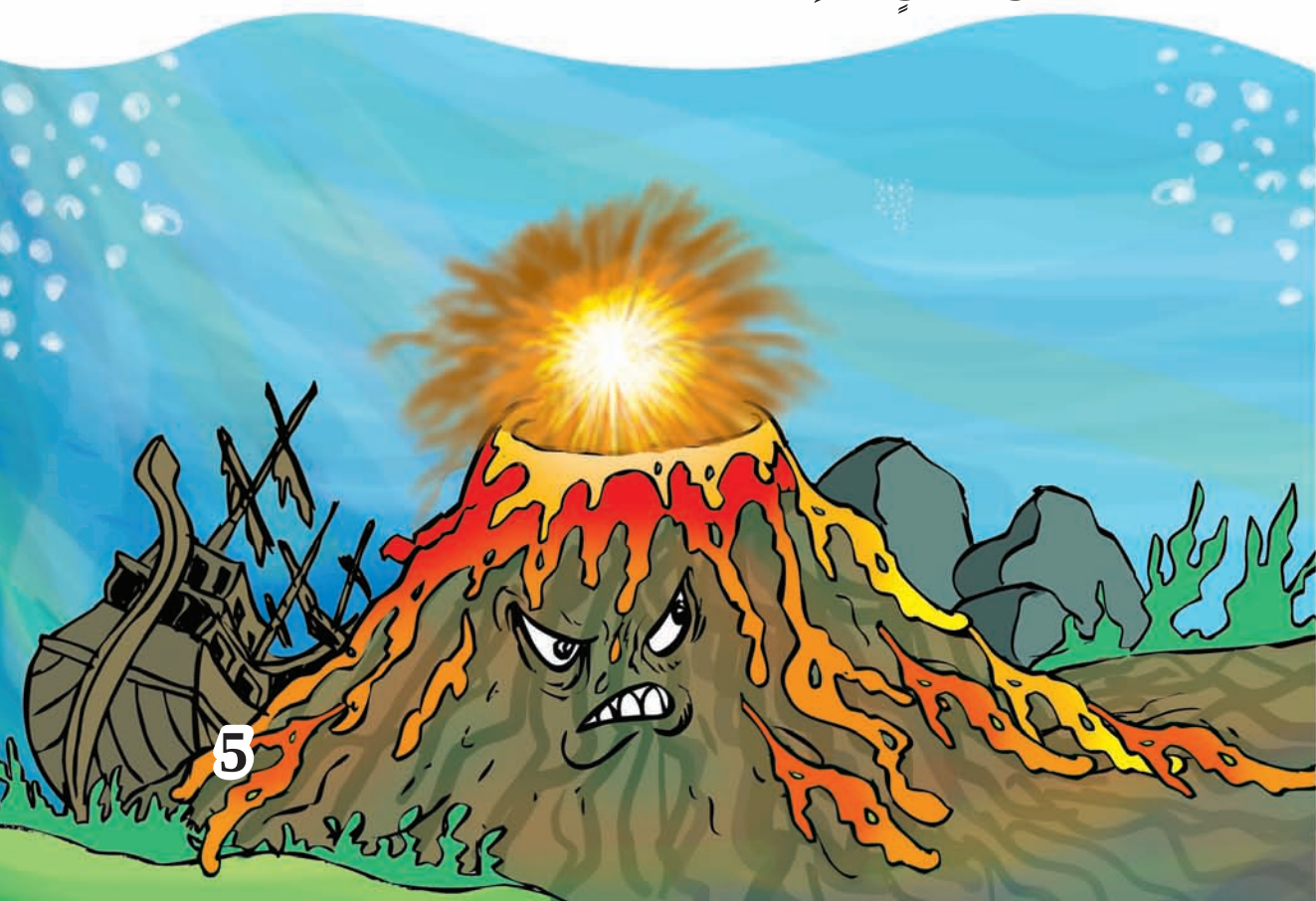

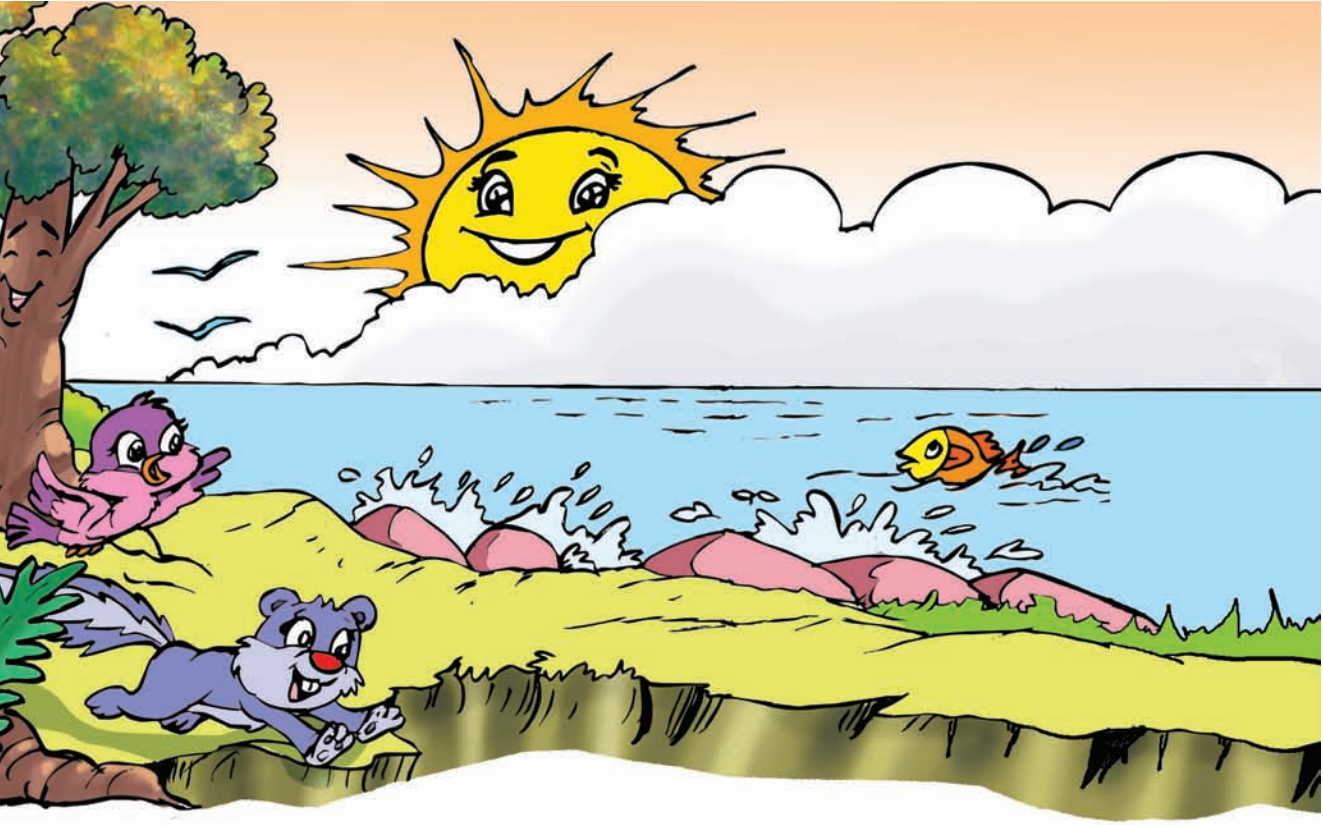

احْتَضَنَتِ الأَرْضُ البُذُورَ فَأَنْبَتَتْ بَراعِمَ صَغِيرَةً أَكَلَتْ وكَبِرَتْ، وصارَتْ أَشْجارًا أَزْهَرَتْ وأَضْفَتْ عَلَى الجَزِيرَةِ جَمالًا لَمْ يُوجَدْ في أيِّ مَكانٍ.

تَساقَطتِ الأَزْهارُ وتَرَكتْ وَراءَها ثِمارًا مِن كُلِّ صِنْفٍ ولَوْنٍ، مُعَلَّقَةً عَلَى أَفْرُعِ الأَشْجارِ أَوْ زَاحِفَةً عَلَى الأَرْضِ.. أَعْطَتِ الثِّمارُ بُذُورًا، حَمَلَتْهَا النَّسْمَةُ الرَّقِيقَةُ وَوَزَّعَتْها عَلَى أَرْضِ الجَزِيرَةِ.

دارَتِ الحَياةُ مَرَّاتٍ ومَرَّاتٍ.. أَنْبَتَتِ البُذُورُ أَشْجارًا، وأَنبتَتِ الأَشْجارُ زُهورًا عاشَتْ حَتَّى صارَتْ ثِمارًا تَحْمِلُ في داخِلِهَا بُذُورًا جَدِيدَةً. وظَلَّتِ الرِّياحُ تَقُومُ بِدَوْرِها حَتَّى صارَتِ الجَزِيرَةُ غَنِيَّةً بِخَيْراتٍ لا تَجِدُ مَنْ يَأْكُلُها.

لَمْ تُصَدِّقِ الطُّيُورُ المُهاجِرَةُ ما تَراهُ أَعْيُنُها مِنْ جَمالٍ صَنَعَتْهُ أَلْوانُ الأَشْجارِ والثِّمارِ والْوُرُودِ والزُّهُورِ والأَعْشابِ. انْتَشَرُوا في فَضاءِ الجَزِيرةِ وأَرْضِها، حَمِدُوا اللهَ عَلَى ما خَلَقَهُ لَهُمْ. اخْتارَ كُلٌّ مِنْهُم المَكانَ الَّذِي يُناسِبُ حَياتَهُ، وأَعْلَنَهُ وَطَنًا لَهُ ولِزَوْجَتِهِ وأَوْلادِهِ، وجَعَلَ لَهُ حُدُودًا لا يَسْتَطِيعُ أَحدٌ أَنْ يَتَخَطَّاها أَوْ يَعْتَدِي عَلَيها، حَتَّى لَوْ كانَ مِنْ فَصِيلَتِهِ نَفْسِهَا.

أَطْلَقَــتِ الجَزِيرةُ نِداءَهــا إِلَى كُلِّ الحَيَواناتِ والطُّيورِ آكِلَةِ الأَعْشــابِ، تَدْعُوهُمْ للحَياةِ فَوْقَها، وَصَلَتْ دَعْوَتُها إِلَيْهِم في كُلِّ مَكانٍ. قَرَّرُوا أَنْ يُهاجِرُوا إِلَيْها، اجْتَمَعُوا في قُطْعَانٍ وأَسْرابٍ كَثِيرَةٍ، أَخَذُوا جَمِيعًا طَرِيقَهُمْ نَحْوَ الجَزِيرَةِ، عَبَرُوا مِساحاتٍ شاسِعَةً مِنَ الصَّحارِي والجِبَــالِ، ووَاجَهُوا عَواصِفَ رَعْدِيَّةً وأَمْطــارًا، واجْتَازُوا مُحِيطاتٍ وأَنْهارًا، وفي النِّهايةِ حَطُّوا عَلَى سوَاحِلِ الجَزِيرَةِ.

فَرِحَتِ الجَزِيرَةُ الفَاتِنَةُ بِطُيُورِها وحَيواناتِهَا، فازْدَادَتْ جَمالًا عَلَى جَمالِهَا، وعاشَتِ الطُّيورُ والحَيَواناتُ عَلَى أَرْضِها وقَدْ خَشَعَتْ قُلُوبُهم.. ولَمْ يَعْرِفِ الخَوْفُ طَرِيقَهُ إِلَيْهِم، يَلْتَفُّــونَ حَوْلَ بَعْضِهِم في حُــبٍّ ومَوَدَّةٍ وإِخاءٍ. ولَمْ يَحْــدُثْ أَنْ أَطْلَقَ أيٌّ مِنْهُم صَيْحَةً غاضِبَةً، ولَــمْ يَرْتَفِعْ صَوْتُ أيٍّ مِنْهُم إِلَّا بالغِنَاءِ. وكُلَّ يَومٍ يَسْــتقبِلُونَ وُفُودًا جَدِيدَةً.. يُرَحِّبُونَ بِهِم.. يَتْرُكُونَهُمْ يَخْتارُونَ أَماكِنَ إِقامَتِهِم، يُســاعِدُونَهُم في بِناءِ أَعْشاشِــهِم.. ويَحْتَفِلُونَ بانْضِمَامِهِمْ إِلَى الحَياةِ في وَطَنٍ لا يَعْرِفُ فِيهِ الخَوْفُ طَرِيقَهُ إِلَيْهِم.

اسْــتَقَرَّتِ الحَياةُ عَلَى الجَزِيرَةِ، كُلُّ قَطِيعٍ مِن قُطْعــانِ الحَيَواناتِ، وكُلُّ عائِلَةٍ مِن عائِلاتِ الطُّيورِ عَرَفَ أَيْنَ يَعِيشُ ومِنْ أَيْنَ يَجْمَعُ طَعامَهُ وأَينَ يَبِيتُ لَيالِيَهُ!!

لَــمْ يَنْسَ أَيٌّ مِن الطُّيورِ والحَيَوانــاتِ أَنْ يَحْكِيَ لأَبْنائِه عَنْ وَطَنِهِ وعَنِ الإِنْســانِ الَّــذِي يَعِيشُ فِيهِ، وصَارَ كُلُّ جِيلٍ يَحْكِي للقَادِمِ مِنْ بَعْــدِهِ، فَصارَ كُلُّ مَنْ يَعِيشُ عَلَى الجَزِيرَةِ يَعْرِفُ الإِنْسَانَ بأَنَّهُ ذلكَ المَخْلُوقُ الَّذِي يَمْشِي مُنْتَصِبًا عَلَى سَاقَيْهِ الخَلْفِيَّتَيْنِ، ويَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْصِبَ شِباكًا وفِخاخًا؛ لِيَسْــرِقَ بِهَا حُرِّيَةَ الطُّيورِ والحَيَواناتِ، ومَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُمْسِكَ بِهِ يَقْتُلُهُ! وَلَدَيْهِ الوَسائِلُ الكَثِيرَةُ الَّتِي يَفْعَلُ بِهَا ذَلكِ.

وذاتَ صَباحٍ.. مَرَّ مَرْكَبُ بَحْرٍ كَبِيرٌ بالقُرْبِ مِنَ الجَزِيرَةِ، وحِينَ رَآها مَلَّاحُ المَرْكَبِ صاحَ فِي كُلِّ مَنْ حَوْلَهُ وقالَ:

- انْظُروا.. هَذِه جَزِيرَةٌ لَمْ تَطَأْها قَدَمُ بَشَرٍ.

سَأَلَ واحِدٌ مِنْ مُساعِدِيه وقالَ:

- رُبَّما سَبَقَنا إلَيْهَا أَحَدٌ.

رَدَّ المَلَّاحُ وقالَ مُؤَكِّدًا:

- لَمْ تُبْحِرْ مَرْكَبُ بَحْرٍ فِي هَذَا الطَّرِيقِ مِنْ قَبْلُ.

ثُمَّ اسْتَطْرَدَ قائِلًا:

- أَرَى أَنْ نَنْزِلَ إلَيْهَا لِنَسْتَرِيحَ قَلِيلًا، ونُحْضِرَ بَعْضًا مِنْ ثِمَارِها طَعامًا لنَا.

وافَقَ الجَمِيعُ عَلَى رَأْيِ المَلَّاحِ، وكانَ مِن بَيْنِهِم طِفْلٌ رَضِيعٌ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مُنْذُ أَيَّامٍ قَلِيلةٍ، وبَدَءُوا يَسْتَعِدُّونَ للنُّزُولِ إلَى القَوارِبِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَنْقُلُهُمْ إلَى الجَزِيرَةِ.

انْزَعَجَتْ نَخْلَةُ البَلَحِ العالِيَةُ الواقِفَةُ عَلَى شَاطِئِ الجَزِيرةِ حِينَ رَأَتْ مَرْكَبَ البَحْرِ الكَبِيرَ وهُوَ يَقِفُ بالقُرْبِ مِنْها، وأَصابَها الرُّعْبُ وارْتَعَدَ جِذْعُهَا وسَعَفَاتُهَا، وأَطْلَقَتْ صَيْحاتِهَا تُحَذِّرُ الأَشْجارَ والطُّيورَ والحَيَواناتِ.

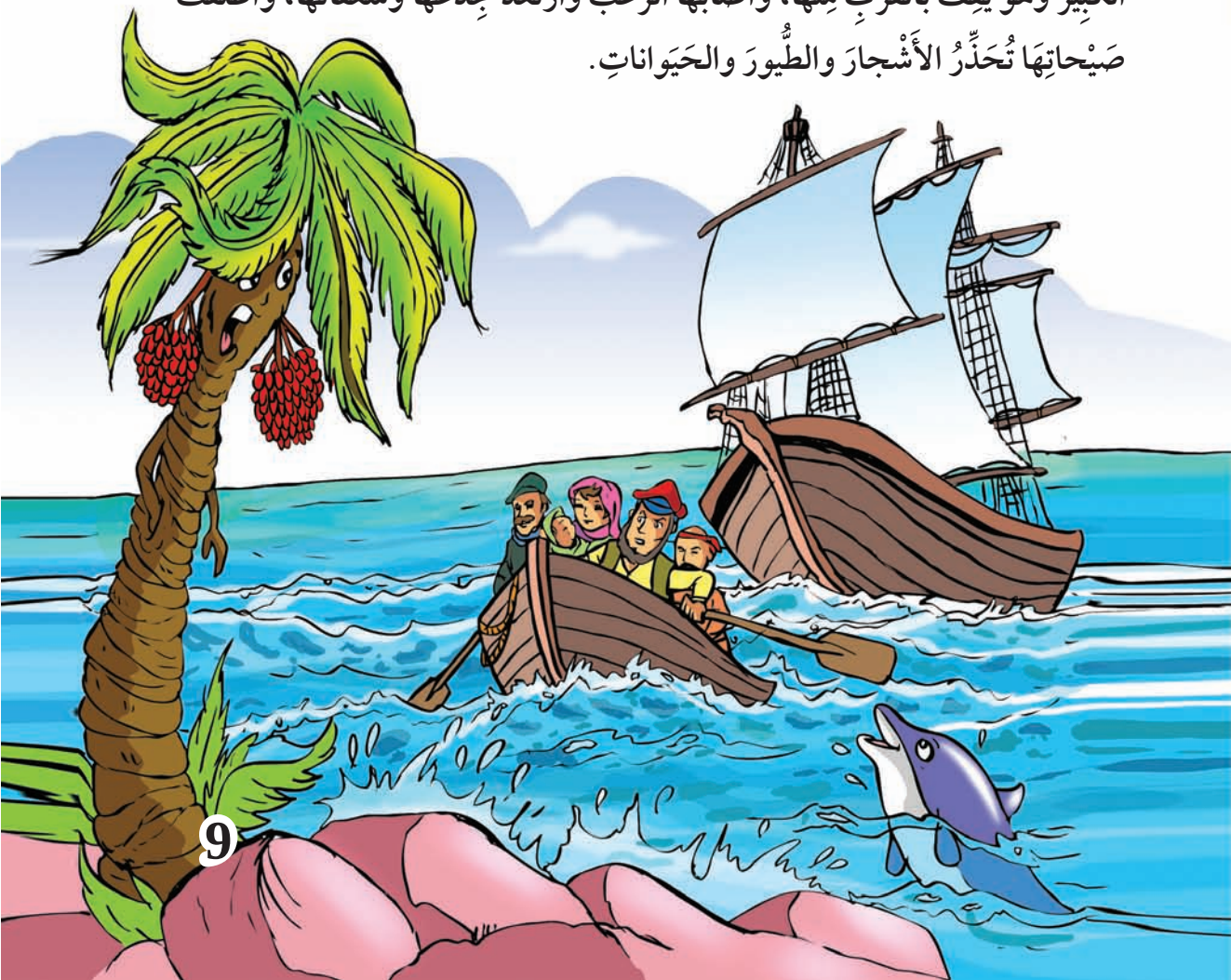

لَمْ تَسْــتَطِعِ النَّخْلَةُ أنْ تَمْنَعَ الرِّجالَ والنِّساءَ مِنَ الخُرُوجِ مِنَ القَوارِبِ الخَشَبِيَّةِ إِلَى أَرْضِ الجَزِيرَةِ.. فَأَطْلَقَتْ صَيْحاتِ تَحْذِيرِها مَرَّةً ثانِيَةً.

وصَاحَ مَلَّاحُ المَرْكَبِ يَنْصَحُ الرِّجالَ والنِّساءَ بِأَلَّا يَتَفَرَّقُوا بَعِيدًا عَنْ بَعْضِهِم قائلًا:

- لا تَتَفَرَّقُوا ولا تَبْتَعِدُوا كَثِيرًا عَنِ الشَّاطِئِ؛ فَنَحْنُ لا نَعْرِفُ ماذا يُحِيطُ بِنا.

لَمْ يَسْــتَمِعْ رُكَّابُ الْمَرْكَبِ لِنَصِيحَةِ المَلَّاحِ، ولَمْ يَسْــتَمِعُوا إِلَى صَيْحاتِ النَّخْلَةِ الَّتِي تُحذِّرُ أَشْــجارَ وطُيُورَ وحَيواناتِ الجَزِيرَةِ مِنْهُم، ورُبَّما كانُوا قَدْ سَــمِعُوها ولَمْ يَفْهَمُوهَــا، فَقَدْ فَتَنَتْهُمُ الطَّبِيعَةُ بجَمالِهَا، وجَعَلَتْهُمْ يَنْسَــوْنَ أَنْفُسَــهُم وراحُوا يَلْهُونَ ويَلْعَبُونَ ويَجْمعُونَ الثِّمــارَ، حتَّى إنَّ الأُمَّ قَدْ أَراحَتْ وَلِيدَها داخِلَ خَمِيلَةٍ شَــجَرِيَّةٍ وراحَتْ تُشارِكُهُم ما يَفْعَلُونَ!!

لَــمْ يَمْضِ وَقْتٌ ووَصَلَتْ أَصْواتُ الحَيَواناتِ والطُّيــور الغاضِبَةِ إِلَى آذانِ الرِّجالِ والنِّساءِ، لَمْ يَهْتَمُّوا ووَاصَلُوا لَهْوَهُمْ ولَعِبَهُمْ وقَدْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَلْهُونَ مِثْلَهُم، ولَمْ يَعْرِفُوا أَنَّهُمْ يَسْتَعِدُّونَ لِلهُجُومِ عَلَيْهِم وطَرْدِهِم مِنَ الجَزِيرَةِ!!

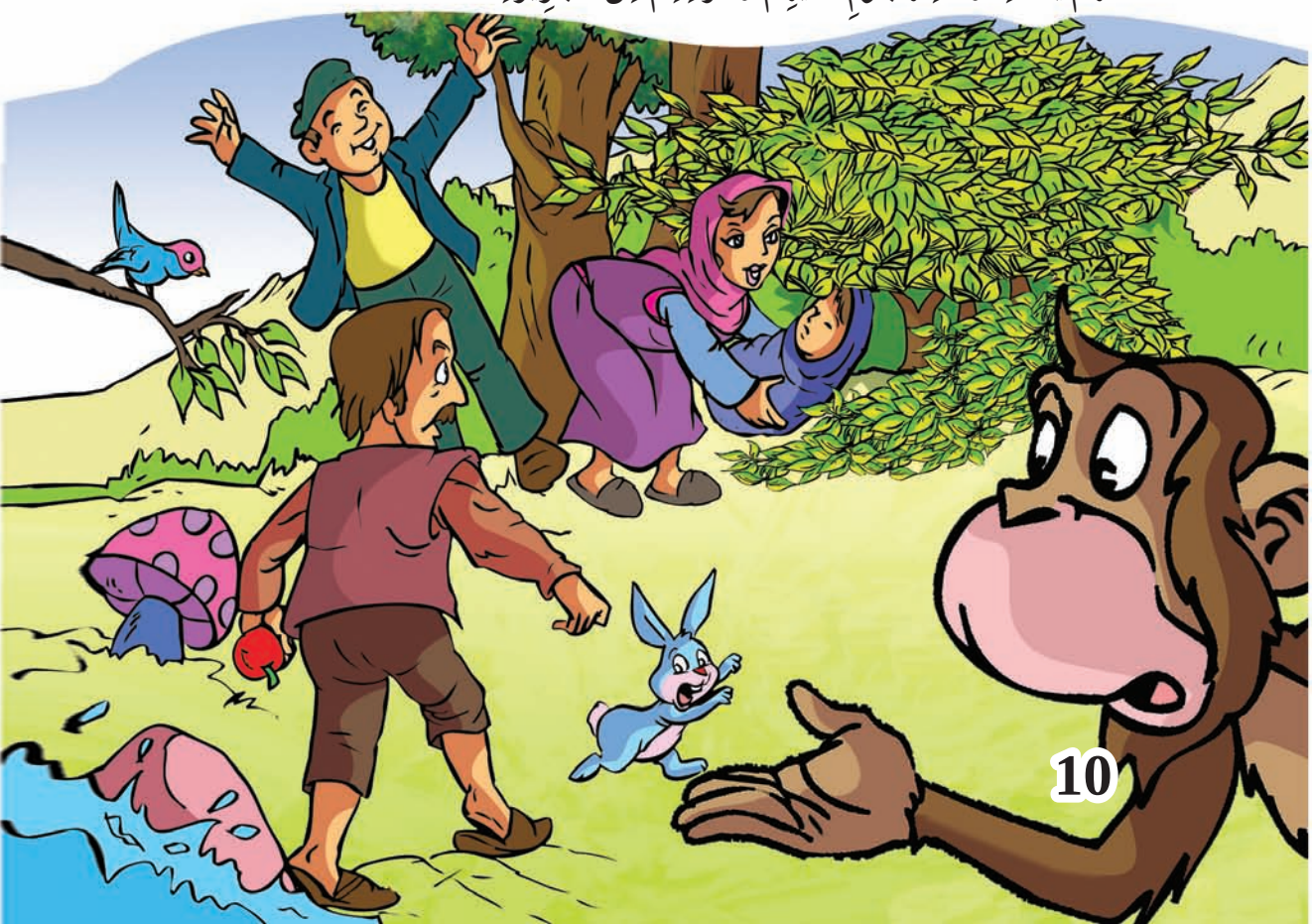

وَصَلَتْ صَيْحاتُ الطُّيورِ والحَيواناتِ إِلَى غَزالَةٍ ذَهَبِيَّةِ اللَّوْنِ تَحْتَضِنُ وَلِيدَها تَحْتَ خَمِيلَةٍ كَثِيفَةٍ مِنَ الأَفْرُعِ والزُّهُورِ، فَتَرَكَتْ وَلِيدَها في الدَّاخِلِ وخَرَجَتْ تَسْتَطْلِعُ الخَبَرَ. وحِينَ عَرَفَتْ ما يَحْدُثُ نَسِيَتْ وَلِيدَها وراحَتْ تُعَاوِنُ الجَمِيعَ في طَرْدِ بَنِي الإِنْسانِ مِنْ وَطَنِهِمْ ومَنْعِهِ مِنَ احْتِلالِهِ.

فُوجِئَ الرِّجالُ والنِّساءُ بِصَيْحاتِ الحَيَواناتِ والطُّيورِ الثَّائِرَةِ تَقْتَرِبُ مِنْهُم، وانْهَالَتْ عَلَيْهِمُ الحِجارَةُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ، أَصابَهُمُ الذُّعْرُ وأَسْرَعُوا بالفِرارِ إِلَى قَوارِبِهِمُ الخَشَبِيَّةِ.

سَمِعَ وَلِيدُ الغَزالَةِ أَصْواتًا غَرِيبَةً لَمْ يَسْمَعْهَا مِنْ قَبْلُ، خَرَجَ مِن تَحْتِ الخَمِيلَةِ ووَقَفَ بِجِوارِهَا يُراقِبُ الرِّجالَ والنِّساءَ وهُمْ يَهْرُبُونَ.. لَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وقَدْ خَطَفَهُ واحِدٌ مِنْهُمْ وهَبَطَ به مَعَ الرِّجالِ والنِّساءِ إِلَى القَوارِبِ الخَشَبِيَّةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي أَسْرَعَتْ تَبْتَعِدُ بِهِم عَنِ الجَزِيرَةِ.

بَعْدَ أَنْ صَعِدُوا إِلَى المَرْكَبِ الكَبِيرِ، تَذَكَّرَتِ المَرْأَةُ وَلِيدَها! ظَنَّ الجَمِيعُ أَنَّهَا فَقَدَتْهُ في البَحْرِ في أَثْناءَ هُرُوبِهِمْ مُتَزاحِمِينَ، وغادَرُوا المَكانَ وهُمْ جَمِيعًا آسِفُونَ عَلَى فِقْدانِهِمُ الوَلِيدَ.

٣

اطْمَأَنَّتِ الحَيَواناتُ والطُّيورُ عَلَى ابْتِعَادِ مَرْكَبِ البَحْرِ بِمَا يَحْمِلُ مِنْ بَنِي الإِنْسَانِ، وظَلُّوا واقِفِينَ عَلَى الشَّـاطِئِ يُراقِبُونَهُ، وحِينَ غَابَ عَنْ عُيونِهِم، تَأَكَّدُوا أَنَّ الخَطَرَ قَدْ زالَ، وعادُوا جَمِيعًا إِلَى ما كانُوا يَفْعَلُونَ.

عادَتِ الغَزالَةُ الصَّفْراءُ الذَّهَبِيَّةُ إِلَى خَمِيلَتِهـا لِتُرْضِعَ صَغِيرَها، وحِينَ دَخَلَتْ إِلَيْهِ لَمْ تَجِدْهُ، ظَنَّتْ أَنَّهُ خَرَجَ لِيَلْهُوَ حَوْلَ الخَمِيلَةِ، تَشَـمَّمَتِ الهَواءَ بَحْثًا عَنْهُ، لَمْ تَجِدْهُ.. خَرَجَتْ مُسْرِعَةً تَبْحَثُ عَنْهُ. وَقَفَتْ تُنادِي عَلَيهِ بِأَعْلَى صَوْتٍ لَهَا. لَمْ يَأْتِهَا رَدُّهُ. وبِرَغْمِ أَنَّها تَعْرِفُ أَنَّهُ لا يُوجَدُ فِي الجَزِيرَةِ مَنْ يَأْكُلُه، فَقَدْ أَصابَها الرُّعْبُ لِفَقْدِهِ، آلَمَها ضَرْعُهَا المَمْلُوءُ باللَّبَنِ يَطْلُبُ مَنْ يَمْتَصُّه، ورَاحَتْ تَصْرُخُ عالِيًا.

وَصَلَ صَوْتُها إِلَى الطَّرفِ الآخَرِ مِنَ الجَزِيرَةِ، حَيْثُ يَعِيشُ زَوْجٌ مِنَ الخُيُولِ البَيْضاءِ، لا يَعْرِفانِ أنَّ هُناكَ مَنْ يَعِيشُ عَلَى الجَزِيرَةِ غَيْرُهُما.. أَسْرَعا يَسْتَطْلِعَانِ الخَبَرَ.

اجْتَمَعَتِ الحَيَواناتُ كُلُّهَــا ووَقَفُوا حَوْلَ الغَزالَةِ.. أَمَّا الطُّيــورُ فَمِنْهَا مَنْ حَطَّ عَلَى الأَرْضِ، ومِنْهَا مَنْ وَقَفَ عَلَى أَطْرافِ فُرُوعِ الشَّجَرِ القَرِيبَةِ، ومِنْها مَنْ ظَلَّ مُعَلَّقًا فِي الهَواءِ، وانْضَمَّ إليهِمْ زَوْجُ الخُيولِ البَيْضاءِ. صارُوا كُلُّهُم يَتَعَجَّبُونَ ويَتَساءَلُونَ..ويَقُولُونَ:

- أَيْنَ ذَهَبَ الصَّغِيرُ؟

أَسْــرَعَتِ الغَزالَةُ فِي طُرُقاتِ الغَابَةِ تَبْحَثُ عَــنْ صَغِيرِها، تُنادِي عَلَيهِ بِأَعْلَى صَوْتٍ لَهَا، ورَفْرَفَتِ الطُّيورُ فِي الهَواءِ، وانْتَشَــرَتْ فِي سَــماءِ الجَزِيرَةِ تَبْحثُ عَنْهُ وهِيَ تُرَدِّدُ نِدَاءَهَا، وأَسْرَعَتِ الحَيَواناتُ وانْتَشَرَتْ فِي المَمَرَّاتِ بَيْنَ الأَشْجارِ تَبْحثُ فِي كُلِّ مَكانٍ وتَحْتَ كُلِّ خَمِيلَةٍ. بَحَثُوا فِي كُلِّ شِبْرٍ فِي الجَزِيرةِ وتَأَكَّدُوا أَنَّ الصَّغِيرَ لَيْسَ مَوْجُودًا!!

عَرَفَ القَلَقُ طَرِيقَهُ إِلَى قُلُوبِهِم لأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ جاءُوا إِلَى الجَزِيرَةِ، وكَثُرَتِ التَّســاؤُلاتُ فِي عُقُولِهِم تَقُولُ:

- مَنِ الَّذِي أَخَذَ الصَّغِيرَ؟

قالتْ نَخْلَةُ البَلَحِ العالِيَةُ في حِكْمَةٍ:

- مَنْ يَفْعَلُ ذلكَ غَيْرُ الإنْسانِ؟!

عَلَّقَتْ قِرْدَةٌ عَجُوزٌ وقالَتْ في أَسًى:

- مَنْ يَأْخُذُهُ الإنْسانُ لا يَعُودُ إِلَى وَطَنِه ثانِيَةً.

تَأَكَّــدَتْ كُلُّ الحَيَواناتِ والطُّيورِ أنَّ الصَّغِيرَ لَنْ يَعُودَ ثانِيــةً، عَرَفَ الحُزْنُ طَرِيقَهُ إِلَى قُلُوبِهِم لأوَّلِ مَرَّةٍ مُنذُ عاشُــوا عَلَى الجَزِيرَةِ، انْسَحَبُوا الواحِدَ بَعْدَ الآخَرِ مِنْ حَوْلِ الغَزالَةِ، وقَدْ زادَتْ كَراهِيَتُهُم للإنْسانِ وبَنِي الإنْسانِ.

ظَلَّ زَوْجُ الخَيْلِ الأَبْيضِ بالقُــرْبِ مِنَ الغَزالَةِ، الَّتِي لَمْ تُصَدِّقْ أَنَّهَا فَقَدَتْ وَلِيدَها، فاللَّبَنُ في ضَرْعِها ما زالَ يُنادِيهِ، قالَتْ لهَا الفَرَسُ البَيْضَاءُ:

- ابْحَثِي عَنْهُ ثانِيَةً ونَحْنُ مَعَكِ.

راحَتْ تَجُوبُ مَمَرَّاتِ الجَزِيرَةِ وهِيَ تُنادِي وَلِيدَهَا، حَتَّى تَعِبَتْ ولَمْ تَعُدْ قادِرَةً عَلَى السَّــيْرِ. تَمَدَّدَتْ عَلَى الأَرْضِ لِتَسْتَرِيحَ، وتَسْمَحَ لِدُمُوعِها بأَنْ تَنْسَابَ عَلَى خَدِّها حُزْنًا عَلَى فِراقِ الوَلِيدِ. وَوَقَفَ زَوْجُ الخَيْلِ بالقُرْبِ مِنْهَا.

فَجْأَةً.. سَــمِعَتِ الغَزالَةُ صَوْتَ بُكاءٍ يَأْتِيهَا

مِنْ تَحْتِ خَمِيلَةٍ كَثِيفَةٍ بالقُرْبِ مِنْهَا.. كانَ الصَّوْتُ ضَعِيفًا.. ظَنَّتْ أَنَّهُ صَوْتُ صَغِيرِهَا، أَسْرَعَتْ تُزِيحُ الأَفْرُعَ برَأْسِهَا وأَطَلَّتْ إِلَى الدَّاخِلِ.

كانَ الَّــذِي وَجَدَتْهُ الغَزالَةُ طِفْلًا رَضِيعًا.. انْزاحَتْ عَنْهُ لُفافَتُهُ وصارَ عارِيًا، يَرْقُدُ عَلَى ظَهْرِه باكِيًا، يَضْرِبُ الهَواءَ بِذِراعَيْنِ وسَــاقَيْنِ لَيْسَ لَهُمَا حَوافِرُ مِثْل حَوافِرِها، جِسْمُهُ خالٍ مِنَ الشَّــعْرِ ولَيْسَ لَهُ أُذُنــانِ مُدَبَّبَتانِ، صُدِمَتْ لِرُؤْيَتِهِ؛ فَلَيْــسَ هَذا صَغِيرَها الَّذِي فَقَدَتْهُ. هَمَّتْ بالرُّجُوعِ إِلَى الوَرَاءِ. كادَ اللَّبَنُ الَّذِي في ضَرْعِهَا يَسِيلُ مِن أَثْدَائِها. اقْتَرَبَتْ مِــنَ الرَّضِيعِ في حِرْصٍ وحَنانٍ، تَمَدَّدَتْ بِجِوَارِهِ.. جَعَلَتْ ضَرْعَها يُلامِسُ وَجْهَهُ، كَفَّ الصَّغِيرُ عَنِ البُكاءِ، وبكَفَّيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ أَمْسَــكَ بِثَدْيِهَا .. قَرَّبَهُ مِنْ شَفَتَيْهِ. الْتَقَمَهُ في فَمِهِ ورَاحَ يَرْضَعُ لَبَنَهَا. شَعَرَتْ بالسَّعادَةِ والرِّضا، وتَرَكَتْهُ يَنْتَقِلُ مِنْ ثَدْيٍ إِلَى ثَدْيٍ، يَمْتَصُّ ما بِهِمَا مِنْ لَبَنٍ حتَّى شَبِــعَ وتَراخَى جَسَدُهُ ونَامَ.

صارَ الطِّفْلُ بَدِيلًا لِلغَزالَةِ عَنْ صَغِيرِهــا الَّذِي فَقَدَتْهُ، وصارَتْ أُمًّا لَهُ لا يَعْرِفُ لَها بَدِيلًا، وصارَتِ الخَمِيلَةُ بَيْتًا لَهُما. وانْسَحَبَ زَوْجُ الخُيُولِ البَيْضاءِ مُبْتَعِدًا وهُوَ يَصْهَلُ في سَعادَةٍ، وقَدْ ظَنَّ أَنَّ الغَزالَةَ قَدْ وَجَدَتْ وَلِيدَها الَّذِي ضَاعَ.

4

حِينَ كانَ وَلِيدُ الغَزالَةِ مَعَها.. كانتْ تَعْرِفُ كَيْفَ تُرَبِّيهِ، ومَتَى تُرْضِعُهُ، ومَتَى تَقُودُه إِلَى الأَشْجارِ لِيَقْطِفَ الأَعْشابَ والثِّمارَ، لَكِنَّ هَذا الرَّضِيعَ لا تَعْرِفُ كَيْفَ تَتَعامَلُ مَعَهُ، كُلُّ الَّذِي تَعَلَّمَتْهُ هُوَ كَيْفَ تُرْضِعُه؛ فَصارَتْ تَذْهَبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ؛ تُرْضِعُهُ، وتُغَطِّيهِ بِأَوْراقِ الشَّجَرِ، وتَتْرُكُهُ تَحْتَ الخَمِيلَةِ وتَخْرُجُ.

لاحَظَتِ الحَيَوانــاتُ أَنَّ ضَرْعَ الغَزالَةِ دَائِمًا مُمْتَلِئٌ باللَّبَــنِ، تَعَجَّبُوا.. كَيْفَ يُفْرِزُ جَسَدُها لَبَنًا فِي ضَرْعِها دُونَ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهَا وَلِيدٌ تُرْضِعُهُ؟!

قالَتْ قِرْدَةٌ عَجُوزٌ فِي حِكْمَةٍ:

- الأُمُّ الَّتِي لا تُعْطِي لَبَنَهَا تَمْرَضُ، وهَذِهِ أَرَاهَا فِي صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ.

عَلَّقَ غُرابٌ، وقالَ:

- بالتَّأْكِيدِ.. الغَزالَةُ عِنْدَها مَنْ يَرْضَعُ لَبَنَهَا.

تَساءَلَتِ القِرْدَةُ العَجُوزُ بِهُدُوءٍ، وقالَتْ:

- مَنْ سَيَرْضَعُ لَبَنَها وقَدْ أَخَذَ أَصْحَابُ مَرْكَبِ البَحْرِ صَغِيرَها؟

رَفْرَفَ الهُدْهُدُ مُبْتَعِدًا وهو يَقُولُ:

- سَآتِيكُمْ بِخَبَرِهَا.

بَحَثَ الهُدْهُدُ عَنِ الغَزالَةِ فِي كُلِّ أَرْجاءِ الجَزِيرَةِ، وَجَدَها تَقِفُ عَلَى الشَّاطِئِ بالقُرْبِ مِنْ نَخْلَةِ البَلَحِ العالِيَةِ. لَمْ يُكَلِّمْها.. وَقَفَ عَلَى جَرِيدَةٍ يُراقِبُها وهِيَ تَنْظُرُ إِلَى عُمْقِ المُحِيطِ، كَما لَوْ كانَتْ تَبْحَثُ عَنْ وَلِيدِها الَّذِي ضَاعَ.. هَمَّ بالرُّجُوعِ إِلَى القِرْدَةِ العَجُوزِ وصُحْبَتِهَا لِيُخْبِرَهُمْ بحَالِهَا. لكنَّهُ رَآها وهِيَ تَسْتَدِيرُ وتَسِيرُ عائِدَةً فِي اتِّجَاهِ الجَزِيرَةِ، وَقَفَ يَنْظُرُ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ، رَآها وهِيَ تَدْخُلُ تَحْتَ الخَمِيلَةِ الكَثِيفَةِ، حَطَّ فَوْقَها، ونَظَرَ مِنْ بَيْنِ الفُرُوعِ الرَّفِيعَةِ المُتَشابِكَةِ، ضَبَطَهَا وهِيَ تَتَمَدَّدُ بِجِوارِ رَضِيعٍ يُشْبِهُ الإِنْسَانَ، وتُناوِلُهُ ثَدْيَهَا. أَسْرَعَ عائِدًا يَزُفُّ الخَبَرَ للقِرْدَةِ العَجُوزِ ومَنْ مَعَها، ويُخْبِرُهُم بأَنَّ الغَزالَةَ تُرْضِعُ إِنْسِيًّا!!

فُوجِئَتِ القِرْدَةُ بالخَبَرِ.. قالَ الغُرابُ مُتَفاخِرًا:

- أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّ هُناكَ مَنْ يَرْضَعُ لَبَنَها؟!

ثُمَّ اقْتَرَبَ الغُرابُ مِنْ أُذُنِ القِرْدَةِ وهَمَسَ لَهَا قائِلًا:

- هَذا الوَلِيدُ حِينَ يَكْبرُ سَيَكُونُ قادِرًا عَلَى فِعْلِ الشَّرِّ.

صَاحَ الحِمَارُ وَقَالَ:

- عَلَيْهَا أنْ تَتَخَلَّصَ مِنْهُ وتَرْمِيَهُ في المَاءِ، كَما راحَ ابْنُهَا في المَاءِ.

صاحَتِ القِرْدَةُ في الحِمَارِ والغُرابِ قائِلَةً:

- ومَنْ أَدْراكُمَا أَنَّهُ إنْسِيٌّ، ألا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ الهُدْهُدُ مُخْطِئًا؟

حاوَلَ الهُدْهُدُ أَنْ يُقْسِمَ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِهِ. أَسْكَتَتْهُ القِرْدَةُ بإشَارَةٍ مِنْ يَدِهَا وقالَتْ لَهُ:

- لا تُقْسِمْ، ولَكِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَذْهَبَ إلَيْهَا وتَرْجُوَهَا أنْ تَأْتِيَ بِرَضِيعِهَا إلَى هُنا.

رَفْرَفَ الهُدْهُدُ في الهَواءِ وأَخَذَ طَرِيقَهُ إلَى خَمِيلَةِ الغَزالَةِ، في الوَقْتِ الَّذِي قالَتْ فِيهِ القِرْدَةُ للغُرابِ:

- وأَنْتَ.. اطْلُــبْ مِنْ كَبِيرِ كُلِّ فَصِيلَةِ طَيْرٍ أَوْ حَيوانٍ أَنْ يَأْتِيَ لِنُقَرِّرَ جَمِيعًا ماذا نَفْعَلُ لَوْ كانَ خَبَرُ الهُدْهُدِ صَحِيحًا.

انْطَلَقَ الغُرابُ يَنْعِقُ في السَّــماءِ، يُوَجِّهُ دَعْوَةَ القِرْدَةِ العَجُوزِ لِكِبَارِ فَصائِلِ الطُّيورِ والحَيَوانــاتِ، ولَمْ يَكْتَفِ بالدَّعْوَةِ فَقَــطْ، بَلْ راحَ يَحْكِي حِكايَــةَ الغَزالَةِ ورَضِيعِهَا الإِنْسِيِّ، ويَحُثُّ الجَمِيعَ عَلَى رَفْضِه بَيْنَهُمْ وإِلْقائِهِ في المَاءِ.

وصَلَ صَوْتُ الغُرابِ إِلَى زَوْجِ الخُيُولِ البَيْضَاءِ في مَرْعَاهُما، شَعَرا بالسَّعادَةِ لِوُجُودِ واحِدٍ مِنْ بَنِي الإِنْسانِ عَلَى الجَزِيرَةِ، ورَاحَا يُشارِكَانِ في اجْتِماعِ الطُّيورِ والحَيَواناتِ لِيُعْلِنَا حُبَّهُمَا وَوَلاءَهُمَا لَهُ، وكانَا أَوَّلَ الواصِلِينَ إِلَى حَيْثُ تَجْلِسُ القِرْدَةُ العَجُوزُ، وسَأَلاهَا:

- أَيْنَ هَذا الإِنْسَانُ الَّذِي نُحِبُّهُ ونَعْتَبِرُهُ سَيِّدَنا؟

أَسْــكَتَتْهُمَا بِنَظْرَةٍ غاضِبَةٍ، وراحَتْ تُهَدِّئُ الَّذِينَ جــاءُوا ثائِرِينَ رافِضِينِ أَنْ تُرْضِعَ الغَزالَةُ وَلِيدَ إِنْسَانٍ، وقالَتْ لَهُمْ:

- انْتَظِرُوا حَتَّى تَأْتِيَ الغَزالَةُ وتَتَأَكَّدُوا أَنَّ مَنْ تُرْضِعُهُ لَيْسَ وَلِيدَهَا .

وَصَـــلَ الهُدْهُدُ إِلَى خَمِيلَةِ الغَزالَةِ.. حَطَّ عَلَيهَا، نـــادَى الغَزالَةَ مِنْ فَوْقِها، خَرَجَتْ إِلَيْهِ، أَخْبَرَها بأَنَّ القِرْدَةَ العَجُوزَ تُرِيدُ أَنْ تَراها هِيَ والصَّغِيرَ.

احْتارَتِ الغَزالَةُ، فَمَاذا تُرِيدُ القِرْدَةُ مِنَ الرَّضِيعِ؟ وكَيْفَ سَـــتَنْقُلُهُ إِلَى هُناكَ؟ كانَتْ تَعْـــرِفُ كَيْفَ تَنْقُلُ وَلِيدَها مِنْ مَكانٍ إِلَى آخَرَ؛ لَكِنَّ هَذا.. كَيْفَ سَـــتَنْقُلُهُ؟ نَظَرَتْ إِلَيهِ داخِلَ الخَمِيلَةِ. وَقَعَ نَظَرُها عَلَى الأَعْشابِ والأَوْراقِ الَّتِي فَرَشَتْهَا لَهُ وجاءَها الحَلُّ.

أَسْرَعَتْ تَقْضِمُ بَعْضَ الأَفْرُعِ الصَّغِيرَةِ والطَّوِيلَةِ مِنْ هُنا وهُناكَ، أَحْضَرَتْها إِلَى جِوارِ الخَمِيلَةِ.. تَرَكَتْهَا وَراحَتْ تَقْضِمُ أَفْرُعًا أَصْغَرَ مِنْهَا، صَنَعَتِ الغَزالَةُ مِنَ الأَفْرُعِ الطَّوِيلَةِ والصَّغِيرَةِ زَحَّافَةً تَنْقُلُ عَلَيها الصَّغِيرَ، ووَقَفَتْ حائِرَةً مَرَّةً ثانِيةً، فَكَيْفَ سَتَنْقُلُهُ مِن داخِلِ الخَمِيلَةِ إِلَى الزَّحَّافَةِ؟

سَـــمِعَتْ نَعِيقَ الغُرابِ وهُوَ يَفْضَـــحُ أَمْرَها في الغَابَةِ، خافَتْ عَلَى رَضِيعِها، أَسْـــرَعَتْ

بالدُّخُولِ إِلَى الخَمِيلَةِ، مَرَّرَتْ سـاقَيْهَا الأَمامِيَّتَيْنِ خَلْفَ ظَهْرِه واحْتضَنَتْهُ في صَدْرِها، سَالَتْ دُمُوعُ عَيْنَيْهَا عَلَى صُدْغَيْهَا، لامَسَتْ أَصابِـعُ الوَلِيدِ شَفَتَيْهَا، راحَتْ تُقَبِّلُهَا في حَنانٍ.

أَتاهَا صَوْتُ الهُدْهُدِ مِنَ الخارِجِ يَتَعَجَّلُ الرَّحِيلَ،خَرَجَتْ بالرَّضِيعِ وهِيَ تَحْتَضِنُه.. أَراحَتْهُ عَـلَى الزَّحَّافَةِ.. في صَمْتٍ رَفْرَفَ الهُدْهُدُ أَمَامَهـا يُقُودُها في الطَّرِيقِ إِلَى حَيْثُ مَجْلِـسُ الحَيَواناتِ والطُّيُورِ. عَلَّقَـتْ مِقْوَدَها في رَقَبَتِهَا، وَسَـارَتْ خَلْفَهُ وهِيَ تَجُرُّ الزَّحَّافةِ ودُمُوعُها تَتَساقَطُ عَلَى التُّرابِ.

حِينَ رَفْرَفَ الهُدْهُدُ بَيْنَ المَجْلِسِ صاعِدًا للوُقُوفِ عَلَى طَرَفِ أَحَدِ الفُرُوعِ، اتَّجَهَتْ أَنْظارُ الجَمِيعِ إِلَى الغَزالَةِ وهِيَ تَجُرُّ زَحَّافَةَ الرَّضِيعِ حَتَّى تَرَكَتْهَا في وَسطِ السَّاحَةِ.

أَسْـرَعَ زَوْجُ الخَيْلِ الأَبيضِ يُحَمْحِمَانِ حَوْلَهُ، يَتَلَمَّسانِ جَسَدَهُ بِشِفاهِهما، وَوَقَفَا بالقُرْبِ مِنْهُ في تَحَدٍّ وكِبْرِياءَ. وأَمَامَهُما وَقَفَتِ الغَزالَةُ ووَجْهُهَا غارِقٌ في الدُّمُوعِ.

تَأَكَّـدَ الجَمِيعُ أَنَّ مَنْ تُرْضِعُه الغَزالَةُ مِنْ بَنِي الإِنْسـانِ، ارْتَفَعَتْ صَيْحاتُهُمْ تُلُومُهَا وتُعاتِبُهَا عَلَى إِرْضاعِ وَلِيدِ الإِنْسَانِ. قَفَزَ الغُرابُ في الهَواءِ وراحَ يَجُوبُ الفَضاءَ فَوْقَ رُؤوسِ كُلِّ المَوْجُودِينَ ويَقُولُ:

- كانَ جَدِّيَ الأَكْبَرُ شـــاهِدًا عَلَى أَوَّلِ جَرِيمَةِ قَتْلٍ يَفْعَلُها الإنْسَانُ، كانَ أَوَّلَ مَنْ رَأَى الدَّمَ يَسِيلُ عَلَى الأَرْضِ. لا نُرِيدُ شِرِّيرًا فِي وَطَنِنَا.

امْتَدَّتْ رَقَبَةُ ناقَةٍ فِي لَوْنِ الجَبَلِ، وقالَ الرَّأْسُ الَّذِي يَحْمِلُهَا:

- حَكَوْا كَثِيرًا عَنْ ناقَةٍ مِنْ جِنْسِي كانَتْ تُطْعِمُ قَرْيَةً بِأَكْمَلِها مِنْ لَبَنِهَا، ومَعَ ذلكَ غَدَرَ بِهَا إنْسَانٌ شِرِّيرٌ.

تَقَدَّمَتْ بَقَرَةٌ صَفْراءُ تَتَبَخْتَرُ وَسطَ السَّاحَةِ وتَقولُ:

- وبَلَغَنِي أيضًا أنَّ ما حَدَثَ للنَّاقَةِ حَدَثَ لِجَدَّتِي.

ارْتَفَعَتِ الأَصْواتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ تَطْلُبُ مِنَ الغَزالَةِ أنْ تَتْرُكَ لَهُمُ الرَّضِيعَ لِيَقْذِفُوا بِهِ فِي المَاءِ، أو تَفْعَلَ ذلكَ بِنَفْسِهَا،لَكِنَّ القِرْدَةَ العَجُوزَ أَسْكَتَتْهُمْ قائِلَةً:

- لا بُدَّ أنْ تَسْتَمِعُوا إلَيْها أوَّلًا قَبْلَ أنْ تَحْكُمُوا عَلَيْهَا.

وَجَّهَتِ الغَزالَةُ حَدِيثَهَا إلَى كُلِّ الحَيَوانَاتِ والطُّيُورِ، وَقَالَتْ:

- لا تَلُومُونِي. حِينَ وَجَدْتُ الرَّضِيعَ كِدْتُ أَتْرُكُهُ، لَكِنَّ ضَرْعِيَ رَفَضَ، وحِينَ رَقَدْتُ بِجِوَارِهِ لأُطْعِمَهُ، تَدَفَّقَ اللَّبَنُ مِنِّي إلَيْهِ.

صَاحَ حِمارٌ وَحْشِيٌّ، وَقَالَ:

- تُرْضِعِينَ ابْنَ الإنْسانِ وأَنْتِ مِنَّا!!

رَدَّتِ الغَزالَةُ فِي هُدُوءٍ، وَقَالَتْ:

- ومَنْ أَدْراكَ أَنَّهُ سَـــيَصِيرُ شِرِّيرًا مِثْلَهُم؟ سَـــيَعِيشُ بَيْنَنَا.. نُعَلِّمُهُ جَمِيعًا كَيْفَ يَكُونُ مُحِبًّا.. مُتَسامِحًا.. راضِيًا، ويكونُ مِثْلَنا.

صَمَتَتِ الغَزالَةُ قَلِيلًا، وقالَتْ:

- أَرْجُوكُمْ دَعُونِي أَتَّخِذْ مِنْهُ وَلَدًا.

تَأَثَّـــرَتِ الحَيواناتُ والطُّيورُ بحَدِيثِ الغَزالَةِ.. وَافَقُوا جَمِيعًا عَلَى أَنْ تُرْضِعَ الغَزالَةُ ابْنَ الإنْسانِ بِشَرْطِ أنْ يَعِيشَ حَياتَهُمْ ويَتَعَلَّمَ لُغَتَهُمْ لِيَصِيرَ مِثْلَهُمْ.

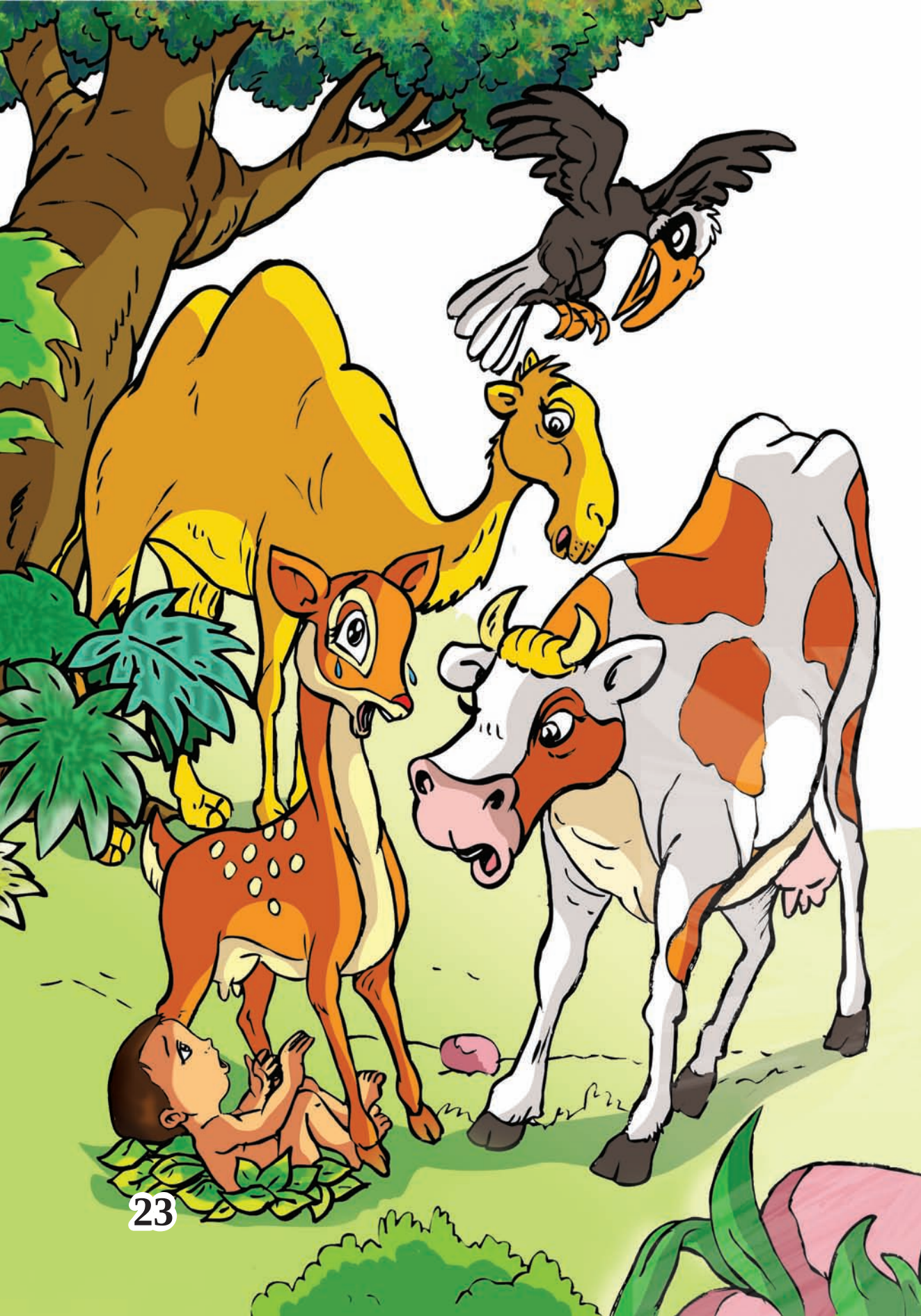

مَرَّتْ عِدَّةُ شُهُورٍ والرَّضِيعُ الإنْسِيُّ في بَيْتِهِ الشَّجَرِيِّ.. عَرَفَتِ الغَزالَةُ مُنْذُ البِدايَةِ أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلَ وَلَدِها، ولَنْ يَقِفَ عَلَى قَوائِمِهِ الأَرْبَعَةِ، ويُسْرِعَ خَلْفَهَا فَصارَتْ تُرْضِعُهُ لَبَنَها وتَتْرُكُهُ لِتَقْتَاتَ طَعَامَها، ثُمَّ تَعُودُ إلَيْهِ.

وذاتَ مَســاءٍ.. حِينَ جاءَتْ إلَى الخَمِيلَةِ وَجَدَتْهُ وقَدْ حَبَا عَلَى قَوائِمِه الأَرْبَعَةِ حتَّى صارَ خارِجًا، وجَلَسَ في انْتِظارِهَا. دَفَعَتْهُ بِرَأْسِــهَا بِرِفْقٍ حَتَّى يَعُودَ إلَى الدَّاخِلِ، فَأَطاعَ واسْتَدارَ عائِدًا. فَأَلْقَمَتْهُ ثَدْيَها، وهِيَ تَقُولُ لَهُ مُحَذِّرَةً:

- لا تَخْرُجْ وَحِيدًا مَرَّةً ثانِيةً.. سَتَخْرُجُ مَعِي مِنَ الغَدِ.

ولمَّا جاءَ الصَّباحُ.. أَرْضَعَتِ الغَزالَــةُ صَغِيرَها، ثُمَّ خَرَجَتْ مِنَ الخَمِيلَةِ ، وخَرَجَ الرَّضِيعُ يَحْبُو خَلْفَها. ســارَتْ بِهِ في طُرُقاتِ الجَزِيرَةِ لِتَرَى عَيْنَاه أَلْوانَ الوُرُودِ والزُّهُورِ والأَشْجارِ والثِّمارِ. رَأَتْهُ حَيواناتُ وطُيورُ الجَزِيرَةِ وهُوَ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعَةٍ مِثْلَهُم.. تَمَنَّوْا أَنْ يَظَلَّ كَذلكَ، الْتَفُّوا حَوْلَهُ يَتَشَمَّمُونَ رائِحَتَهُ، وحِينَ وَجَدُوهُ لا يَحْمِلُ رائِحَةَ البَشَرِ الَّتِي عَرَفُوا فِيهَا الشَّــرَّ في أَوْطانِهِمُ القَدِيمَةِ، اطْمَأَنُّوا لَهُ ورَحَّبُوا بِهِ.

عــاشَ الرَّضِيعُ بَيْنَ الطُّيورِ والحَيَواناتِ آمِنًا، تُراقِبُه حِيــنَ يَحْبُو خارِجَ الخَمِيلَةِ.. تُظَلِّلُهُ حِينَ تَكُونُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ حامِيَةً، وتُدَفِّئُهُ حِينَ تَغِيبُ، وتُطْعِمُهُ مِنْ ثِمارِ الجَزِيرَةِ النَّضِرَةِ الشَّــهِيَّةِ، وهِيَ تُغَنِّي لَهُ أُغْنِياتِهَا، وحِينَ يُرِيدُ أَنْ يَرْتَوِيَ يُسْرِعُ إِلَى ثَدْيِ الغَزالَةِ يَلْتَقِمُهُ فِي فَمِهِ، يُرْوِي عَطَشَهُ مِنْ لَبَنِهَا، ثُمَّ يَعُودُ لِيَلْهُوَ ثانِيَةً.

وبِرَغْمِ أَنَّ الطُّيُورَ والحَيَواناتِ تَعْرِفُ أَنَّ الرَّضِيعَ لَيْسَ مِنْهُمْ.. فَقَدْ صَارُوا جَمِيعًا آباء وأُمَّهاتٍ لَهُ؛ يَهْتَمُّونَ بِطَعَامِهِ وشَرابِهِ، كُلٌّ مِنْهُمْ يَلْعَبُ مَعَهُ ويُغَنِّي لَهُ حَتَّى يُعَلِّمَهُ، بَدَأَتْ حُرُوفُ كَلامِهِم جَمِيعًا تَدْخُلُ إِلَى عَقْلِه، يَحْفَظُهَا ويُحاوِلُ تَقْلِيدَها. وكَمْ كانُوا سُعَداءَ حِينَ كَانُوا يَرَوْنَهُ يَصِيرُ مِثْلَهُم.. يَأْكُلُ طَعامَهُم، ويَتَكَلَّمُ لُغَتَهُمْ، ويُغَنِّي أُغْنِياتِهِم.

ومَرَّ الوَقْتُ عَلَى الصَّغِيــرِ بَيْنَ طُيُورِ وحَيَواناتِ الجَزِيرَةِ وكَبِــرَ، وبِدُونِ أَنْ يُعَلِّمَهُ أَحَدٌ.. صارَ قادِرًا عَلى أَنْ يَشُــبَّ عَلَى قَدَمَيْهِ، وصارَ قادِرًا عَلَى التَّشَبُّثِ بِأَيِّ شَيْءٍ أَمَامَهُ والوُقُوفِ قائِمًا عَلَى ساقَيْهِ.. يَسِيرُ بِضْعَ خُطُواتٍ وهُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ.

وحِينَ رَأَى زَوْجُ الخَيْلِ الأَبْيَضِ الرَّضِيعَ وهُوَ يُحاوِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ المَشْـــيَ عَلَى ساقَيْهِ فَرِحا بِهِ، وقالَ الزَّوْجُ لِزَوْجَتِهِ:

- السَّيِّدُ القادِمُ للجَزِيرَةِ يَنْمُو بِشَكْلٍ جَيِّدٍ.

أَمَّا حَيَواناتُ الجَزِيرَةِ فَقَدْ أَصابَها الذُّعْرُ واجْتَمَعَتْ حَوْلَ بَعْضِهَا قَائِلَةً:

- سَيَعُودُ إِنْسِيًّا كمَا جاءَ.

قالَتِ القِرْدَةُ العَجُوزُ تُهَدِّئُ الجَمْعَ:

- أَنَا أيضًا أَسْتَطِيعُ السَّـــيْرَ عَلَى قَدَمَيْنِ. لَيْسَ سَيْرُهُ مُنْتَصِبًا عَلَى قَدَمَيْهِ الخَلْفِيَّتَيْنِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ صارَ إِنْسِيًّا. المُهِمُّ.. مَاذا يَقُولُ ومَاذا يَفْعَلُ؟!

وصَمَتَتْ قَلِيلًا، ثُمَّ قالَتْ:

- سَأُثْبِتُ لَكُمْ أَنَّهُ ما زالَ مِنَّا.

أَمَرَتِ القِـــرْدَةُ أَنْ يُحْضِرُوا البَبَّغاءَ العَجُوزَ؛ فَهُوَ الوَحِيدُ الَّـــذِي يَعْرِفُ كَيْفَ يُقَلِّدُ كَلامَ الإِنْســـانِ. أَسْرَعَ الهُدْهُدُ إِلَيْهِ، عادَ بَعْدَ قَلِيلٍ وهُوَ يَقُودُهُ في الطَّرِيقِ، وحِينَ اسْتَقَرَّ بالقُرْبِ مِنْهُمْ وعَرَفَ ما يُرِيدُونَ، صَمَتَ يَبْحَثُ في ذاكِرَتِهِ يَسْـــتَعِيدُ كَلامَ الإِنْســـانِ.. وأَخِيرًا نَطَقَ بِبَعْضٍ مِنْ كَلِماتِ بَنِي الإِنْسانِ.. وقَلَّدَ بَعْضَ أَصْواتِهِم. وانْتَظَرَ الجَمِيعُ رَدَّ فِعْلِ الرَّضِيعِ.

لَمْ يَتَأَثَّرِ الرَّضِيعُ بِمَا سَـــمِعَ مِنْ تَقْلِيدِ البَبَّغاءِ لِكَلامِ البَشَـــرِ، لَكِنَّهُ هَلَّلَ وانْطَلَقَ نَحْوَ الغَزالَةِ فاتِحًا ذِراعَيْهِ لهَا حِينَ سَمِعَ صَوْتَها تَقُولُ صائِحَةً:

- هَذا وَلَدِي الَّذِي رَبَّيْتُهُ.

هَدَأَتْ نُفُوسُ الطُّيُـــورِ والحَيَوانَاتِ، وتَأَكَّدُوا أَنَّ الرَّضِيعَ لا يَعْرِفُ عَنْ إِنْســـانِيَّتِهِ شَـــيْئًا.. عادُوا جَمِيعًا يَعْتَبِرُونَهُ ابْنًـــا لَهُمْ.. وعادُوا لِلَّعِبِ مَعَهُ والغِنَـــاءِ لَهُ حَتَّى يَتَعَلَّمَ كَلامَهُـــمْ لِيَصِيرَ مِنْهُم. لَكِنَّ زَوْجَ الخَيْلِ الأَبْيَضِ كانَ لَهُ رَأْيٌ آخَرُ، فالرَّضِيعُ لا بُدَّ أَنْ يَكْتَشِفَ آدَمِيَّتَهُ وَحْدَهُ في يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ، وهُمَا في انْتِظَارِ ذَلِكَ.

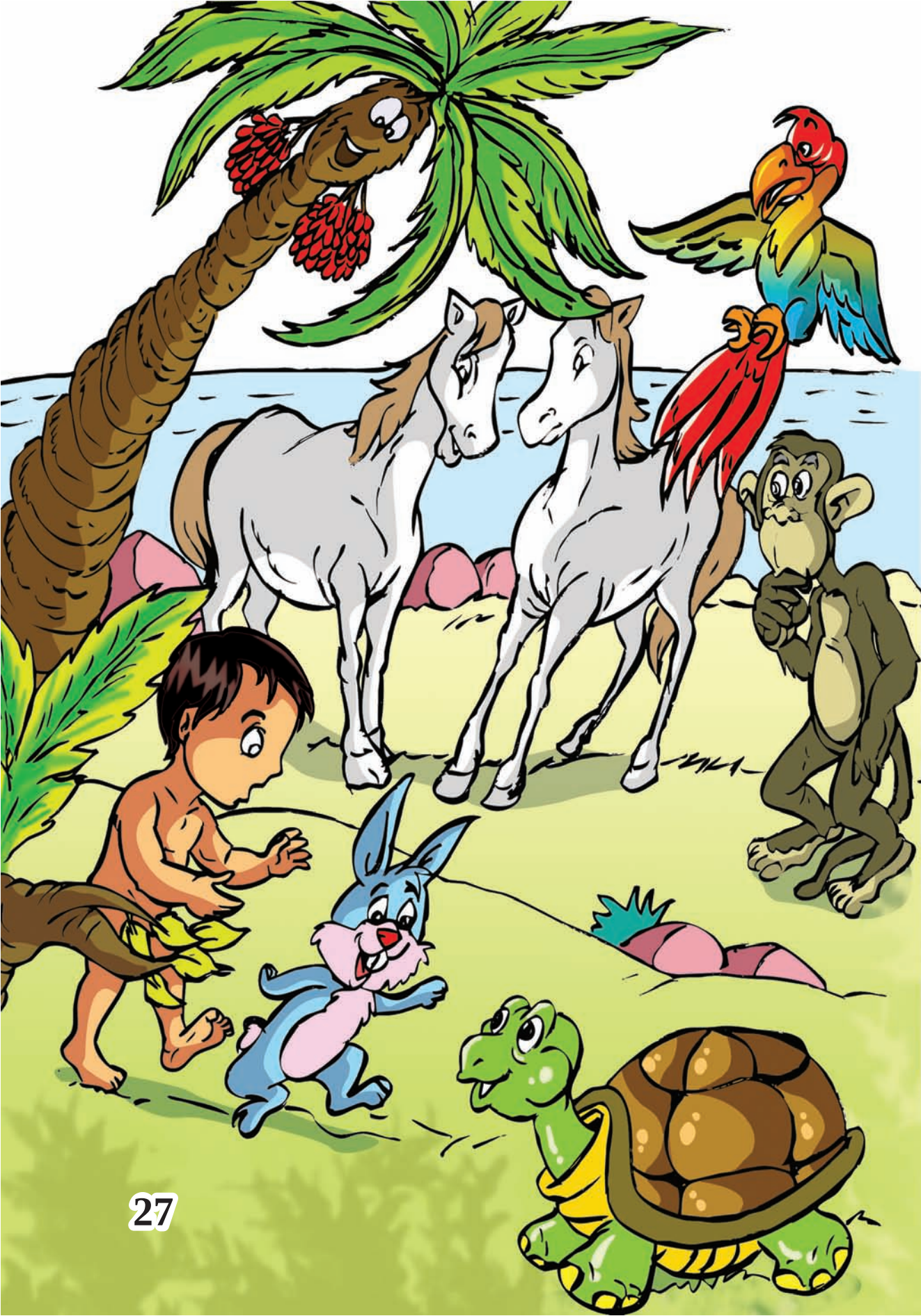

٢

كَبِرَ الرَّضِيعُ وصارَ يَمْشِي عَلَى قَدَمَيْهِ، يَسِيرُ فِي طُرُقاتِ الجَزِيرَةِ يُداعِبُ كُلَّ طُيورِها وحَيَواناتِها، وهِيَ تَتَقَبَّلُهُ وتَرْعاهُ، وتُقَدِّمُ لَـهُ الفاكِهَةَ والثِّمارَ، وهُوَ يُغَنِّي مَعَ كُلٍّ مِنْهُم بِلُغَتِـه الَّتِي تَعَلَّمَهَا مِنْهُ، وحِينَ يَظْمَأُ.. يُسْـرِعُ إِلَى الغَزالَةِ فِي مَرْعاهَا، يَجْثُو عَلَى رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ قَوائِمِهَا.. يَلْتَقِمُ ثَدْيَها ويَمْتَصُّ ما بِهِ مِنْ لَبَنٍ، ثُمَّ يُسْـرِعُ عائِدًا إِلَى لَهْوِهِ. ومَعَ مُرُورِ الوَقْتِ بَدَأَ اللَّبَنُ يَقِلُّ فِي ضَرْعِ الغَزالَةِ.

أَدْرَكَـتِ الغَزالَةُ أَنَّهُ صارَ لِزامًا عَلَيْها أَنْ تَمْنَعَ رَضِيعَها مِنْ مَصِّ ثَدْيَيْها، وصارَ عَلَيْه أَنْ يُطْعِمَ نَفْسَهُ، فَكَفَّتْ عَن إِرْضاعِهِ، وراحَتْ تُزِيحُه بَعِيدًا كُلَّما جاءَ يَطْلُبُ ثَدْيَها.

اضْطُرَّ الصَّبِيُّ إِلَى أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى نَفْسِهِ، صارَ يُصاحِبُ قَطِيعَ الغِزْلانِ حِينَ يَذْهَبُ إِلَى المَراعِي، ويَقْطِفُ بَراعِمَ الأَشْجارِ الَّتِي في مُتَناوَلِ أَفْواهِهِم بِيَدَيْهِ، فَيَتَعَجَّبُونَ مِنْه ويَزْدادُ عَجَبُهُمْ حِينَ يَتَسَلَّقُ الأَشْجارَ العالِيَةَ مِثْلَ القُرُودِ يَقْطِفُ ثِمارَها ويَقْذِفُ بِهَا إِلَيْهِم.

ارْتَفَعَتْ قامَةُ الرَّضِيعِ وصارَ صَبِيًّا.. وصارَ لَهُ مِنَ الحَيَواناتِ في مِثْلِ سِنِّهِ أَصْدِقاءُ.. يَلْهُــونَ مَعًا، ويَجْنُونَ الثِّمارَ مَعًا، وحِينَ يَأْتِي اللَّيْــلُ يَلْتَصِقُونَ بِبَعْضِهِم ويَبِيتُونَ مَعًا. لَكِنَّــهُ أَبَدًا لَمْ يَنْسَ أُمَّهُ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ، ودائمًا مــا كانَ يَقْطِفُ لَهَا الثِّمارَ والخَضْرَاواتِ ويَذْهَبُ بِها إِلَى خَمِيلَتِهَا الشَّجَرِيَّةِ يَضَعُها هُناكَ ويَعُودُ إِلَى أَصْحابِهِ.

وذاتَ يَــوْمٍ.. لاحَظَ الصَّبِيُّ أَنَّ الغِزْلانَ الذِين في مِثْــلِ عُمْرِه قَدْ نَبَتَتْ لَهُمْ قُرُونٌ في رُءُوسِهِمْ، فَتَعَجَّبَ وأَسْــرَعَ إِلَى أُمِّهِ يَسْأَلُهَا، لَمْ يَجِدْها في الخَمِيلَةِ، بَحَثَ عَنْها في كُلِّ مَكانٍ اعْتادَتْ أَنْ تَذْهَبَ إِلَيْهِ لِتَرْعَى طَعامَها.. تَعَلَّقَ بِفُرُوعِ الشَّــجَرِ وانْتَقَلَ مِنْ شَجَرَةٍ إِلَى شَجَرَةٍ.. قَفَزَ مِنْ فَوْقِ الصُّخُورِ بمَهارَةِ الغِزْلانِ.. أَسْرَعَ في الطُّرُقاتِ مِثْلَ النَّعامَةِ.. وفي النِّهايَةِ وَجَدَها عِنْدَ أَطْرافِ الجَزِيرَةِ تَنْظُرُ إِلَى عُمْقِ المُحِيطِ. وَقَفَ بالقُرْبِ مِنْها.. وبِلُغَتِهَا نَادَاها بِحُبٍّ وقالَ:

- أُمِّي.

انْتَبَهَتِ الغَزالَــةُ إِلَى صَــوْتِ رَضِيعِها، فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ وقالَتْ لَهُ:

- مَرْحَبًا يا وَلَدِي.

عادَتْ بِرَأْسِها ناحِيَةَ المُحِيطِ .. لَكِنَّها رَدَّتْ عَيْنَيْها إِلَيْهِ وسَأَلَتْهُ قائِلَةً:

- مَاذا بِكَ؟

رَدَّ مُتَسائِلًا وقالَ:

- لِمَاذا لَمْ يَنْبُتْ فِي رَأْسِي قَرْنانِ مِثْلَ إِخْوَتِي الغِزْلانِ الصَّغِيرَةِ؟

احْتارَتِ الغَزالَةُ مَاذا تَقُولُ.. صَمَتَتْ تُفَكِّرُ فِي رَدٍّ يَجْعَلُه لا يَسْأَلُ كَثِيرًا حَتَّى لا تُخْطِئَ وتُخْبِرَهُ بِأَنَّهُ مِنْ بَنِي الإِنْسانِ .. وأَخِيرًا هَداهَا تَفْكِيرُها إِلَى الرَّدِّ، فَقالَتْ لَهُ فِي حَسْمٍ:

- أَنْتَ مِنْ فَصِيلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ. لَنْ يَنْبُتَ لَكَ قُرُونٌ.

عادَتِ الغَزالَةُ إِلَى النَّظَرِ نَحْوَ المُحِيطِ.. تَرَكَها الصَّبِيُّ وعادَ صامِتًا إِلَى طُرُقاتِ الجَزِيرَةِ، وعَقْلُهُ يُفَكِّرُ فِي تِلكَ الفَصِيلَةِ المُخْتَلِفَةِ الَّتِي هُوَ مِنْها، ولِمَاذا لا يُوجَدُ عَلَى الجَزِيرَةِ أَحَدٌ سِواهُ؟! ورَاحَ يَتَساءَلُ عَنْ سَبَبِ وُجُودِهِ هُوَ بَيْنَ فَصائِلَ مُخْتَلِفَةٍ عَنْهُ.

ولَمْ يَشْعُرِ الصَّبِيُّ بِأَنَّ زَوْجَ الخَيْلِ الأَبْيَضِ يُراقِبَانِهِ، يَسِيرَانِ خَلْفَهُ فِي هُدُوءٍ، فَقَدْ عَرَفَا أَنَّهُ يُفَكِّرُ فِي حَالِهِ.. قالَتِ الزَّوْجَةُ:

- الصَّبِيُّ فِي حاجَةٍ إِلَيْنَا.

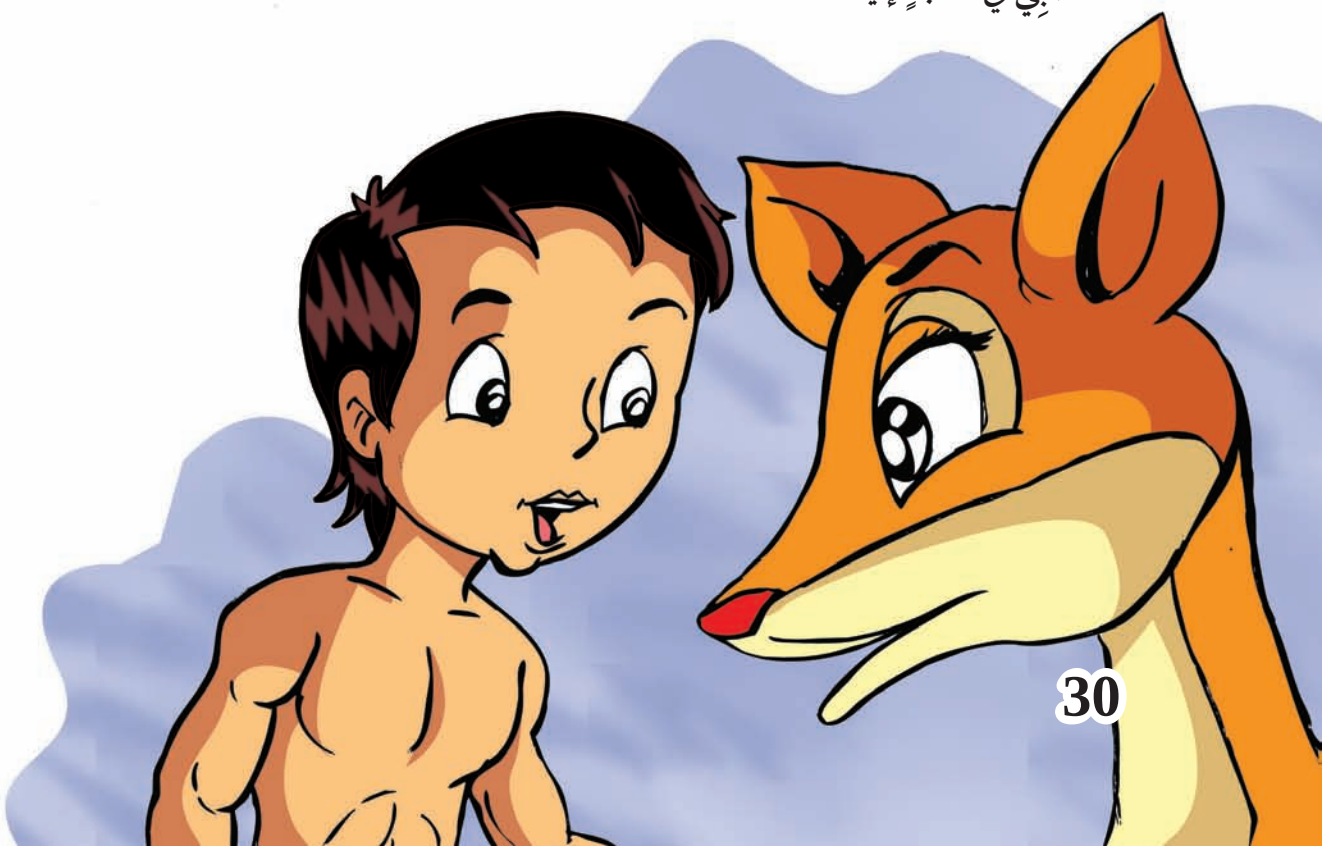

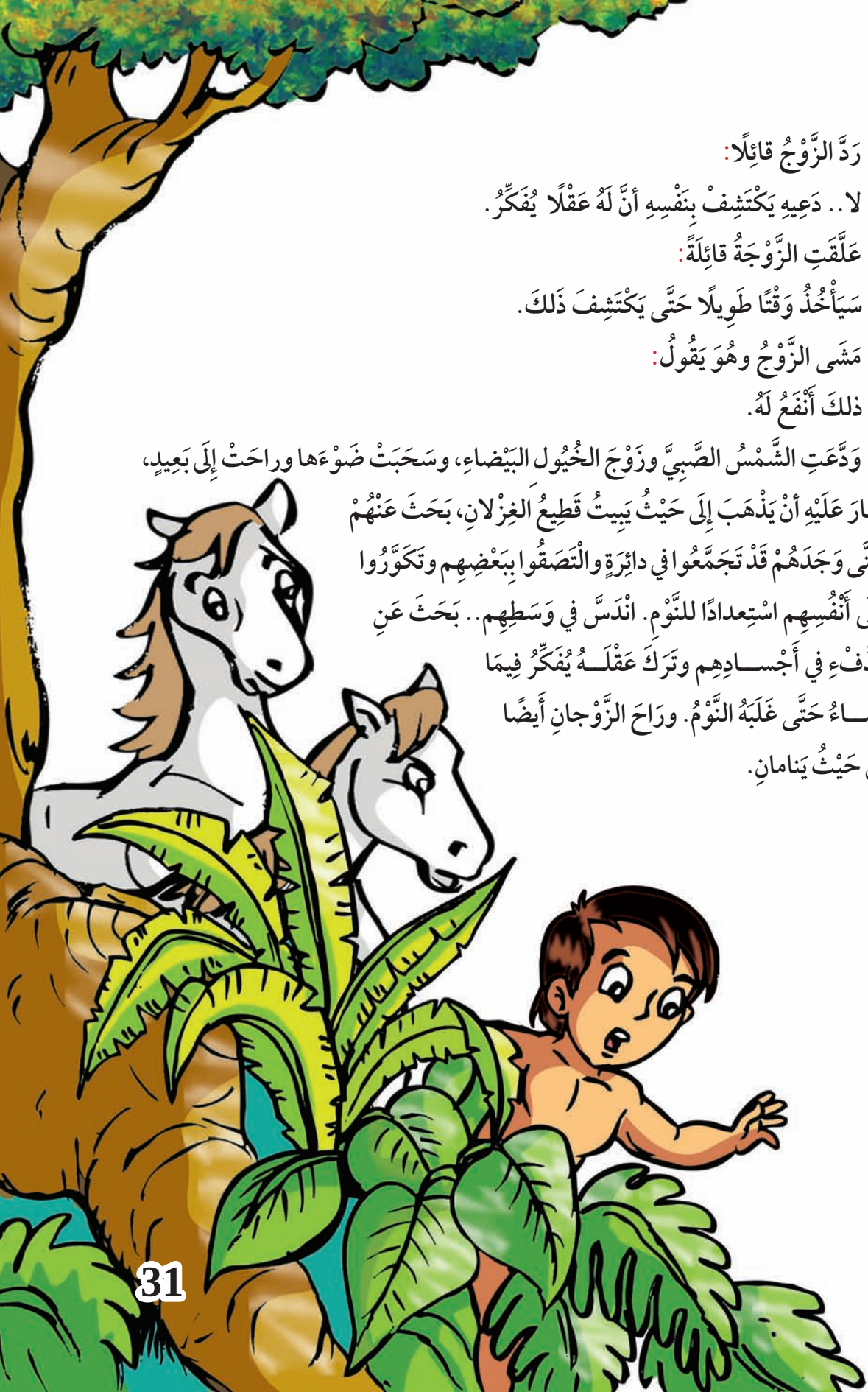

رَدَّ الزَّوْجُ قائِلًا:

- لا.. دَعِيهِ يَكْتَشِفْ بِنَفْسِهِ أَنَّ لَهُ عَقْلًا يُفَكِّرُ.

عَلَّقَتِ الزَّوْجَةُ قائِلَةً:

- سَيَأْخُذُ وَقْتًا طَوِيلًا حَتَّى يَكْتَشِفَ ذَلكَ.

مَشَى الزَّوْجُ وهُوَ يَقُولُ:

- ذلكَ أَنْفَعُ لَهُ.

وَدَّعَتِ الشَّمْسُ الصَّبِيَّ وزَوْجَ الخُيُول البَيْضاءِ، وسَحَبَتْ ضَوْءَها وراحَتْ إِلَى بَعِيدٍ، صارَ عَلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى حَيْثُ يَبِيتُ قَطِيعُ الغِزْلانِ، بَحَثَ عَنْهُمْ حَتَّى وَجَدَهُمْ قَدْ تَجَمَّعُوا في دائِرَةٍ والْتَصَقُوا بِبَعْضِهِم وتَكَوَّرُوا عَلَى أَنْفُسِهِم اسْتِعدادًا للنَّوْمِ. انْدَسَّ في وَسَطِهِم.. بَحَثَ عَنِ الدِّفْءِ في أَجْسادِهِم وتَرَكَ عَقْلَهُ يُفَكِّرُ فِيمَا يَشاءُ حَتَّى غَلَبَهُ النَّوْمُ. ورَاحَ الزَّوْجانِ أَيضًا إِلَى حَيْثُ يَنامانِ.

8

حِينَ صَحا الصَّبِيُّ في الصَّباحِ، كانَتْ كَلِماتُ الغَزالَةِ ما زالَتْ تَدُورُ في أُذُنَيْهِ، وما زَالَ عَقْلُهُ يَتَساءَلُ: لِمَاذا هُوَ مِنْ فَصِيلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ؟ ولِمَاذا هِيَ وبَقِيَّةُ أَصْحابِهِ مِنَ الحَيَواناتِ مُهَيَّأُونَ لِلْمَبِيتِ في العَراءِ وهُوَ غَيْرُ مُهَيَّأ لِذَلِكَ؟

أَسْــرَعَتْ كُلُّ الغِزْلانِ إِلَى الأَشْــجارِ تَقْطِفُ ثِمارَها، وإِلَى الخَضْــرَاوات تَقْطِفُ بَراعِمَها، ولَمْ يُسْــرِعِ الصَّبِيُّ وَسَطَهُمْ كمَا اعْتَادُوا، تَباطَأَ عَدَدٌ مِنْهُم حَتَّى يَلْحَقَ بِهِم.. صاحُوا عَلَيْه أَنْ يُسْرِعَ في مِشْيَتِه، فَلَمْ يُجِبْهُم.. تَرَكُوه ورَاحُوا.

كانَ الصَّبِيُّ يَتَأَمَّلُ حالَهُ وحالَهُمْ.. اكْتَشَــفَ أنَّ أَجْســادَهُم مُغَطَّاةٌ بِشَــعْرٍ كَثِيفٍ يَحْمِيهِمْ مِنَ البَرْدِ، بَيْنَما جَسَــدُه أَمْلَسُ لا شَعْرَ فِيهِ يَحْمِيه؛ لِذلكَ يَقْرُصُهُ البَرْدُ لَيْلًا حِينَ يَنامُ. قَرَّرَ أنْ يَعْتَزِلَ مَبِيتَهُمْ ويَبْحَثَ لِنَفْسِه عَنْ مَكانٍ دافِئٍ يَبِيتُ فِيه.

أَسْرَعَ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى لَحِقَ بأَصْحَابِه. تَعَجَّبَ مِن تِلْكَ السُّرْعَةِ الَّتِي صارَ عَلَيها حِينَ أَزاحَ مِنْ عَقْلِه هَمًّا كانَ يَشْغَلُه، انْضَمَّ إلَيْهِمْ وهُمْ يَأْكُلُونَ.. وحِينَ شَبِعُوا تَمَدَّدُوا تَحْتَ الأَشْـجارِ يَجْتَرُّونَ ما أَكَلُوه لِيُعِيدُوا مَضْغَهُ ناعِمًا كَمَا يَفْعَلُونَ. ولأَنَّهُ لا يَفْعَلُ مِثْلَهُم، تَرَكَهُمْ ورَاحَ يَبْحَثُ عَنِ المَكانِ الَّذِي يُرِيدُ.

مَرَّ الصَّبِيُّ عَـلَى كَثِيرٍ مِنَ الخَمائِلِ الكَثِيفَةِ؛ يَقِفُ أَمَامَ الواحِدَةِ مِنْهَا، يَهُمُّ باخْتِيارِها لِتَكُـونَ بَيتًا لَهُ، لكنَّ عَقْلَـهُ كانَ يَرْفُضُها، يُذَكِّرُهُ بِطُفُولَتِه حَيْـثُ جَرَّبَ المَبِيتَ فِيها، وكَيْفَ كانَ البَرْدُ يَقْرُصُ جِلْدَهُ، لَوْلا أَنَّ أُمَّهُ كانَتْ تُغَطِّيهِ بأَوْراقِ الشَّجَرِ.

رَفَضَ عَقْلُ الصَّبِيِّ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ أَيِّ خَمِيلَةٍ شَجَرِيَّةٍ بَيْتًا لَهُ، واصَلَ بَحْثَهُ في الجَزِيرَةِ، وَجَدَ تَجْوِيفًا كَبِيرًا في جِذْعِ شَجَرَةٍ.. أَرادَ أَنْ يُجَرِّبَ المَبِيتَ فِيهِ. احْتَوَتْهُ الشَّجَرَةُ واقِفًا، ارْتاحَ للدِّفْءِ الَّذِي أَحاطَتْهُ بِـهِ.. رَفَضَ عَقْلُهُ المُوافَقَةَ عَلَى أَنْ يَكُونَ هَذا مَكانَ مَبِيتِه، وقالَ لَهُ:

- لا أَحَدَ يَنامُ واقِفًا.

خَـرَجَ مِـنْ تَجْوِيـفِ الشَّـجَرَةِ. واصَلَ بَحْثَهُ عَنْ مَكانٍ آخَـرَ يَقْبَلُـهُ عَقلُه. وقَبْلَ حُلُولِ الْمَساءِ، وَصَلَ إِلَى رَبْوَةٍ حَجَرِيَّةٍ عالِيَةٍ، تُطِلُّ عَـلَى وادٍ أَخْضَرَ فَسِـيحٍ.. يَتَوَسَّطُهُ شَجَرَةٌ وَحِيدَةٌ.

وَقَفَ يَنْظُرُ إِلَى اللَّوْنِ الأَخْضَرِ الَّذِي يَفْرِشُ الأَرْضَ، ارتَاحَتْ عَيْناهُ، وشَعَرَ بالرَّاحَةِ والهُدُوءِ يَتَسَـــلَّلانِ إِلَى نَفْسِه، أَدارَ رَأْسَهُ يَسْتَطْلِعُ المَكانَ، رَأَى فَتْحَةَ كَهْفٍ مُرْتَفِعَةً عَنِ الأَرْضِ، وبالقُـــرْبِ مِنها عُشُّ الهُدْهُدِ، ومِن فَوْقِه عُشُّ البُومَةِ العَجُوزِ. تَسَـــلَّقَ الرَّبْوَةَ صاعِدًا إِلَى أَعْلَى.

لَمْ يَكُنِ الهُدْهُدُ مَوْجُودًا، وكانَتِ البُومَةُ نائِمَةً، تَسَلَّلَ بِهُدُوءٍ ودَخَلَ الكَهْفَ.. شَعَرَ بالدِّفْءِ بِمُجَرَّدِ الدُّخُولِ إِلَيهِ. قَبِلَ عَقْلُه المَكانَ وأَمَرَهُ أَنْ يُنَظِّفَهُ مِنَ الحِجارَةِ والتُّرابِ، وقَبْلَ أَنْ تُظْلِمَ الدُّنْيَا كانَ الكَهْفُ نَظِيفًا فَتَمَدَّدَ لِينامَ، ولأَوَّلِ مَرَّةٍ يَشْـــعُرُ بالدِّفْءِ يُحِيطُ بِه، لَوْلَا رِيحٌ بارِدَةٌ كانَتْ تَدْخُلُ إِلَيْهِ مِنْ فَتْحَةِ الكَهْفِ. لَكِنَّهُ بالقَطْعِ كانَ أَفْضَلَ كَثِيرًا مِنَ المَبِيتِ في العَراءِ، قالَ لَهُ عَقْلُهُ:

ـ في اللَّيْلَةِ القادِمَةِ عَلَيْكَ أَنْ تَسُدَّ هَذِه الفَتْحَةَ بالأَعْشابِ قَبْلَ أَنْ تَنامَ.

رَفَضَ النَّـــوْمُ أَنْ يَأْتِيَ إِلَى عَيْنَيِ الصَّبِيِّ؛ فَقَـــدْ كانَ يُفَكِّرُ في أُمِّه الَّتِـــي أَرْضَعَتْهُ. ورَفَـــضَ عَقْلُه أَنْ يَتْرُكَهـــا تَبِيتُ في العَراءِ. هَبَّ واقِفًا.. أَسْرَعَ خارِجًا يَبْحَثُ عَنْهَا حَتَّى وَجَدَها، أَخْبَرَها بِنَبَأ بَيْتِه الجَدِيدِ، وطَلَبَ مِنْها أَنْ تَنْتَقِلَ لِلْعَيْشِ مَعَهُ، قالَتْ لَهُ:

ـ يـــا وَلَدِي، أَنَـــا مُهَيَّأَةٌ لِلْعَيْشِ في العَراءِ.

وتَذَكَّرَتْ أَنَّهُ في الأَصْلِ مِنْ بَني الإِنْسَانِ.. فَقالَتْ لَهُ:

- يَكُونُ الكَهْفُ بَيْتَكَ أَنْتَ يا وَلَدِي.

حاوَلَ الصَّبِيُّ أَنْ يُقْنِعَ أُمَّهُ بالذَّهابِ مَعَهُ إِلَى بَيْتِه، لَكِنَّها أَصَرَّتْ عَلَى البَقاءِ في العَراءِ مع صاحِباتِهَا. أَقْنَعَتْهُ بِأَنَّهَا لا تَشْعُرُ بالبَرْدِ لَيْلًا مِثْلَما يَشْعُرُ هُوَ بِهِ. أَكَّدَتْ لَهُ أَنَّ فَصِيلَتَهُ فَقَطْ هِيَ الَّتِي تَشْعُرُ بالبَرْدِ.. تَمَسَّحَتْ فِيه بِرَأْسِهَا بِحَنانٍ وقالَتْ:

- اذْهَبْ يا وَلَدِي وَعِشْ حَياتَكَ كَما تَراها. اذْهَبْ.

وَدَّعَ الصَّبِيُّ أُمَّهُ وأَسْــرَعَ لِيَحْتَمِيَ بِكَهْفِهِ مِنَ البَــرْدِ. وفي الطَّرِيقِ بَحَثَ عَنْ كَوْمَةٍ مِنَ الأَعْشابِ الجَافَّةِ حَتَّى وَجَدَها، وسَدَّ بِهَا فَتْحَةَ الكَهْفِ ونَامَ.

صارَ لِلصَّبِيِّ بَيْتٌ يَسُــدُّ فَتْحَتَهُ بِكَوْمَةٍ مِنَ الأَعْشَابِ ويَبِيتُ فِيهِ .. وفي الصَّباحِ يُسْرِعُ إِلَى أَصْحَابِه يُصاحِبُهُمْ في رِحْلَةِ جَنْيِ ثِمَارِ طَعَامِ الإِفْطَارِ، ويُشــارِكُهُمْ في لَهْوِهِمْ ولَعِبِهِمْ طَوالَ اليَوْمِ..يَتَقافَزُ مَعَ القِرَدَةِ عَلَى أَفْرُعِ الشَّجرِ ويَجْنِي الثِّمارَ العالِيَةَ يَقْذِفُ بِهَا لأَصْحَابِهِ.. يَتَسابَقُ مَعَ ذُكُورِ الغِزْلانِ في السُّهُولِ.. يَتَسَلَّقُ رَقَبَةَ زَرافَةٍ عالِيَةٍ.. يَقْفِزُ عَلَى ظَهْرِ فِيلَةٍ يَبْحَثُ لَهَا عَنِ ابْنَتِهَا الَّتِي شَرَدَتْ بَعِيدًا ولا تَراهَا لِضَعْفِ بَصَرِهَا، ويُحْضِرُهَا لَهَا.

زادَ حُبُّ الطُّيُورِ والحَيَواناتِ لِلصَّبِيِّ، فِيمَا عَدا تَيْسًــا كَبِيرًا رَأَى فِيهِ مُنافِسًا لَهُ في قِيَادَةِ القَطِيعِ، فَلَــمْ يُحِبَّهُ. وذاتَ يَوْمٍ .. كانَ مَعَ أَصْحابِهِ الغِزْلانِ يَتَناوَلُونَ طَعَامَ غَدائِهِمْ، وكانَ الطَّعامُ نَبْتَاتٍ خَضْراءَ يانِعَةً طَرِيَّةً. تَاقَتْ نَفْسُــه لإِحْدَى هَذِهِ النَّبْتــاتِ، فَمَدَّ يَدَهُ إِلَيْهَــا، وقَبْــلَ أَنْ يَقْتَلِعَهَا كانَتْ

قَواطِعُ التَّيْسِ تَمْتَدُّ إلَيْهَا، ولَوْلا أَنَّهُ سَحَبَ يَدَهُ لَكَانَ قَضَمَهَا.

حاوَلَ الصَّبِيُّ أنْ يُزيــحَ التَّيْسَ بَعِيدًا حَتَّى لا يَأْكُلَ مِمَّا أَمامَهُ، لَكِنَّ التَّيْسَ وَجَّهَ إلَيْهِ قُرُونَهُ، فَقَفَزَ مُبْتَعِــدًا قَبْلَ أَنْ تَخْتَرِقَ القُرونُ عِظامَ صَدْرِه، عادَ لِيُصارِعَ التَّيْسَ، احْتَالَ عَلَيْهِ حَتَّى أَمْسَــكَ بِهِ مِنْ رَقَبَتِهِ، حاوَلَ أَنْ يُوقِعَــهُ أَرْضًا، لَكِنَّ التَّيْسَ اعْتَمَدَ عَلَى قُرُونِهِ ولَمْ يَقَعْ، وتَغَلَّبَ عَلَى الصَّبِيِّ وأَوْقَعَهُ أَرْضًا.

انْسَحَبَ الصَّبِيُّ بَعِيدًا كعادَةِ المَغْلُوبِ في عالَمِ التُّيُوسِ، وأَخَذَ طَرِيقَهُ إلَى كَهْفِهِ وهُوَ حَزِينٌ لِهَزِيمَتِهِ وعَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَى الدِّفاعِ عَنْ نَفْسِهِ.

في الطَّرِيقِ.. داسَتْ قَدَمُهُ عَلَى شَوْكَةٍ دُونَ أَنْ يَدْرِيَ.. آلَمَتْهُ كَثِيرًا، انْتَزَعَها ووَاصَلَ سَــيْرَهُ، وفي الطَّرِيقِ جَمَعَ عَــدَدًا مِنَ الثِّمارِ والفاكِهَــةِ.. حَمَلَها بَيْنَ ذِراعَيْهِ.. قالَ لَهُ عَقْلُه:

- هَذَا فَرْقٌ آخَرُ مِنَ الفُــرُوقِ الَّتِي بَيْنَكَ وبَيْنَهُــمْ.. أَنْتَ تَسْــتَطِيعُ حَمْلَ الأَشْياءِ، بَيْنَما هُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ.

دَخَــلَ إِلَى كَهْفِهِ، وَضَعَ ما مَعَهُ مِنْ طَعامٍ بِجوَارِه. جَلَــسَ وحِيدًا يُفَكِّرُ فِيمَا جَرَى، وكَيْــفَ حَدَثَ، أَدْرَكَ أَنَّ قُرُونَ التَّيْسِ هِيَ السَّــبَبُ فِي هَزِيمَتِه، لَكِنْ مَاذَا يَفْعَلُ هُوَ لَنْ تَنْبُتَ لَهُ قُرُونٌ؛ لأَنَّهُ مِنْ فَصِيلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ كَمَا قالَتْ لَهُ أُمُّهُ؟! قالَ لَهُ عَقْلُهُ:

- أَنْتَ تَمْلِكُ يَدَيْكَ وتَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْتَخْدِمَهُمَا، بَيْنَمَا هُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ.

وقالَتْ لَهُ نَفْسُهُ:

- مــا دامَ لَنْ تَنْبُتَ لَكَ قُرُونٌ فاصْنَعْهَا بِيَدِكَ، واجْعَلْهَا أَطْــوَلَ مِنْ قُرُونِهِمْ؛ فَفِي هَذَا العَالَمِ السَّيِّدُ هُوَ القَوِيُّ! لا بُدَّ أَنْ تَكُونَ قَوِيًّا .

بَدَأَ عَقْلُهُ يُفَكِّرُ فِي شَــيْءٍ يُعَوِّضُهُ عَنِ القُرُونِ، ويَسْتَطِيعُ أَنْ يُدَافِعَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وعَنْ طَعامِهِ. فَجْأَةً تَذَكَّرَ أَنَّهُ لَمْ يَأْكُلْ حَتَّى يَشْــبَعَ، هَمَّ بِالوُقُوفِ لِيُحْضِرَ ما جاءَ بِهِ مِنْ ثِمَارٍ، شَعَرَ بِأَلَمٍ شَــدِيدٍ فِي قَدَمِهِ بِمُجَرَّدِ أَنْ تَحَمَّلَ وَزْنَ جَسَدِهِ، تَذَكَّرَ الشَّوْكَةَ الَّتِي انْغَرَسَتْ فِيهِ مُنْذُ قَلِيلٍ. قالَ لَهُ عَقْلُهُ:

- لِمَاذا لا تَصْنَعُ واحِدَةً مِثْلَهَا تُدافِعُ بِهَا عَنْ نَفْسِكَ؟

أُعْجِبَ الصَّبِيُّ بالفِكْرَةِ.. أَسْرَعَ خارِجًا مِنَ الكَهْفِ.. نَسِيَ آلامَ قَدَمِهِ، ورَاحَ يَجْرِي ويَدُورُ في الجَزِيرَةِ يَبْحَثُ عَنْ شَـجَرَةٍ ذاتِ أَشْواكٍ حَتَّى وَجَدَها.. وَقَفَ أَمامَها، أَخَذَ مِنْها واحِدَةً.. أَمْسَكَها بَيْنَ أَصابِعِهِ.. راحَ يَتَفَحَّصُها جَيِّدًا. تَساءَلَ عَقْلُهُ وقالَ:

- هَلْ تَصْلُحُ هَذِهِ للدِّفاعِ عَنْ نَفْسِكَ ضِدَّ التُّيُوسِ ذَواتِ القُرُونِ؟

أَدْرَكَ عَقْلُهُ أَنَّ الشَّوْكَةَ قَصِيرَةٌ جِدًّا، وهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُزِيحَ التُّيُوسَ بَعِيدًا؛ حَتَّى لا تَمَسَّهُ أَطْرافُ قُرُونِها، قالَ لَهُ عَقْلُهُ:

- لِتَصْنَعْ مِثْلَها، ولْتَكُنْ أَطْوَلَ مِنْ قُرُونِ التَّيْسِ.

قَذَفَ بالشَّـوْكَةِ بَعِيدًا.. بَحَثَ عَنْ فَرْعِ شَـجَرَةٍ في حَجْمِ قَبْضَةِ يَدِهِ.. بِحَيْثُ يَكُونُ مُسْـتَقِيمًا وطَوِيلًا كَمَا تَمَنَّاهُ، وحِيـنَ وَجَدَهُ أَخَذَ مِنْهُ قِطْعَةً عَلَى قَـدْرِ طُولِهِ.. ثُمَّ راحَ يَتَساءَلُ ويَقُولُ لِنَفْسِهِ:

- كَيْفَ سَيَجْعَلُ لَها سِنًّا مُدَبَّبَةً تُؤْلِمُ عَدُوَّهُ، كَمَا آلَمَتْهُ شَوْكَةُ الشَّجَرَةِ؟

هَـداهُ عَقْلُـهُ لِلْحَلِّ، بَحَثَ عَـنْ قِطْعَةٍ مِنَ الصَّخْرِ ذاتِ حَافَةٍ مَشْـطُوفَةٍ.. عادَ بِهِما إِلَى كَهْفِهِ. جَلَـسَ.. وراحَ يَبْـرِي طَرَفَ الفَـرْعِ بِقِطْعَةِ الصَّخْـرِ.. وحِينَ خَلُصَ مِـنْ إِعْدادِهَا.. أَمْسَـكَهَا في يَدِهِ، ولَـوَّحَ بِهَا في الهَواءِ.. شَـعَرَ أَنَّهُ صارَ أَقْوَى مِمَّا كانَ، دَخَلَ إِلَى الكَهْفِ.. أَغْلَقَ عَلَيْـهِ بابَهُ بِحُزْمَةِ الأَعْشَابِ ونَامَ.

10

حِينَ أَشْرَقَتْ شَـــمْسُ الصَّباحِ، تَسَلَّلَ ضَوْؤُها مِنْ بَيْنِ الأَفْرُعِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي تَسُدُّ بابَ الكَهْفِ إِلَى الدَّاخِلِ، وَقَعَ الضَّوْءُ عَلَى عَيْنَيِ الصَّبِيِّ النَّائِمِ.. صَحَا، جَلَسَ فارِدًا ســاقَيْهِ، أَمْسَكَ بِشَوْكَتِهِ الطَّوِيلَةِ، واعْتَمَدَ عَلَيْها وَهَبَّ واقِفًا، أَزاحَ بِها حُزْمَةَ الأَعْشابِ الَّتِي تُغْلِقُ بابَ الكَهْفِ، فَتَدَحْرَجَتْ مُبْتَعِدَةً وانْدَفَعَ الضَّوْءُ يُنِيرُ المَكانَ.

قَفَزَ الصَّبِيُّ خارِجًا.. أَخَذَ شَوْكَتَهُ وأَسْرَعَ إِلَى الْمَراعِي، بَحَثَ عَنِ الغِزْلانِ والتُّيُوسِ لِيَتَناوَلَ طَعَامَ إِفْطارِهِ مَعَهُمْ. في الطَّرِيقِ اكْتَشَــفَ اسْتِخْدامًا جَدِيدًا لِشَوْكَتِهِ الخَشَبِيَّةِ.. فَكانَ يَضَعُ طَرَفَها في الأَرْضِ ويَعْتَمِدُ عَلَيْهَا ويَقْفِزُ عالِيًا في الهَواءِ ويَحُطُّ بَعِيدًا. صارَتْ خُطُواتُهُ واسِعَةً. لَمْ يَجِدْ أَصْحابَهُ في المَراعِي.. قالَ عَقْلُهُ لِنَفْسِهِ:

ـ رُبَّما ذَهَبُوا لِيَأْكُلُوا مِنْ ثِمَارِ الأَشْجارِ وبَراعِمِهَا القَرِيبَةِ مِنَ الأَرْضِ.

راحَ يَبْحَثُ عَنْهُمْ .. وحِينَ وَجَدَهُم انْدَسَّ وَسَطَهُمْ. وبِيَدٍ واحِدَةٍ بَدَأَ يَقْطِفُ ما يَشاءُ، وبالأُخْرَى يُمْسِكُ قَرْنَهُ الخَشَبِيَّ الكَبِيرَ، يَتَحَدَّى بِهِ مَنْ يُزاحِمُهُ مِنْ أَصْحابِهِ.

لَمْ يَفْهَمِ التُّيُوسُ أَصْحابُ القُرُونِ أَنَّ عَقْلَ الصَّبِيِّ بَدَأَ يَصْحُو ويُفَكِّرُ، وأَنَّهُ صارَ يَمْتَلِكُ قُوَّةً لا يَمْلِكُونَها. زاحَمَهُ كَبِيرُ التُّيُوسِ بِقُرُونِهِ وحَاوَلَ أَنْ يُزِيحَهُ بَعِيدًا عَنِ الثِّمارِ طَمَعًا في أَنْ يَأْكُلَهَا هُوَ، قَفَزَ الصَّبِيُّ في الهَواءِ مُمْسِكًا بِشَوْكَتِهِ وأَخَذَ وَقْفَةَ الدِّفاعِ عَنِ النَّفْسِ.

كَفَّ الجَمِيعُ عَنْ تَناوُلِ طَعَامِهِم، عَرَفُوا أَنَّ شِجارًا سَيَقَعُ بَيْنَ الصَّبِيِّ وكَبِيرِ التُّيُوسِ، انْسَحَبَتِ الغِزْلانُ وَوَقَفَتْ تَتَفَرَّجُ مِنْ بَعِيدٍ.

حَطَّ عَلَى فُرُوعِ الأَشْجارِ المُحِيطَةِ بِالمَرْعَى عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الطُّيُورِ، طارَ الغُرابُ يَنْشُرُ خَبَرَ شِجارِ الصَّبِيِّ مَعَ التَّيْسِ، سَمِعَتِ الغَزالَةُ بالخَبَرِ، فَأَسْرَعَتْ تَشُقُّ الهَواءَ لإِنْقاذِ رَضِيعِهَا مِنْ قُرُونِ التَّيْسِ، وسَمِعَ زَوْجُ الخُيُولِ البَيْضاءِ بالخَبَرِ، فَقَفَزَا فَوْقَ كُلِّ الحَواجِزِ، وَوَصَلا قَبْلَ الغَزالَةِ، قالَتِ الزَّوْجَةُ:

ـ سَوْفَ يَتَغَلَّبُ العَقْلُ عَلَى القُوَّةِ.

عَلَّقَ الزَّوْجُ، وقالَ:

ـ هَذا صَحِيحٌ لَوْ كانَ عَقْلُهُ هُوَ الَّذِي سَيَقُودُه .

ظَلَّ الصَبِيُّ واقِفًا في وَضْعِ الدِّفاعِ عَنِ النَّفْسِ مُمْسِكًا بِشَوْكَتِهِ، وطَرَفُهَا المُدَبَّبُ ناحِيَةَ التَّيْسِ.. تَشَجَّعَ وراحَ يَتَقَدَّمُ مُهاجِمًا التَّيْسِ، يُهَدِّدُهُ بِأَنَّهُ إذا اقْتَرَبَ مِنْهُ سَيَغْرِسُ قَرْنَهُ الخَشَبِيَّ في صَدْرِه. تَراجَعَ التَّيْسُ إِلَى الوَراءِ، راحَ يَسْتَعِدُّ لِلْهُجُومِ عَلَى الصَّبِيِّ. واسْتَعَدَّ الصَّبِيُّ لِلْهُجُومِ عَلَيْهِ، راحَ كُلٌّ مِنْهُمَا يَتَقَدَّمُ تِجاه الآخَرِ مُتَحَفِّزًا لأَنْ يَغْرِسَ قَرْنَهُ في الآخَرِ، أَتاهُما صَوْتُ الغَزالَةِ أُمِّ الصَّبِيِّ وهِيَ تَأْتِي مُسْرِعَةً، وتَصِيحُ قائِلَةً:

- لا يا وَلَدِي.

أَجابَ الصَّبِيُّ أُمَّهُ وهُوَ عَلَى نَفْسِ حالِهِ، وقالَ لَهَا:

- أَزاحَنِي بَعِيدًا عَنِ الطَّعامِ الَّذِي أَرادَتْهُ نَفْسِي، وأَخَذَهُ لِنَفْسِهِ.

نَظَرَ كَبِيرُ التُّيُوسِ إِلَى الغَزالَةِ، وقالَ لَهَا:

- قَدْ حَذَّرْناكِ مِنَ البِدايَةِ.

صاحَ الصَّبِيُّ في التَّيْسِ، وقالَ:

- تَظُنُّ نَفْسَكَ قَوِيًّا بِقُرُونِكَ وحَوافِرِكَ، وصِرْتَ تَمْنَعُنِي عَنِ الثِّمارِ، هَيَّا قاتِلْنِي. لِنَرَ الآنَ مَنْ مِنَّا الأَكْثَرُ قُوَّةً.

لَمْ يَرْضَ كَبِيرُ التُّيُوسِ أَنْ يُهَدِّدَهُ صَبِيٌّ أَرْضَعَتْهُ واحِدَةٌ مِنْ غِزْلانِهِ، تَراجَعَ لِلوَراءِ.. ضَرَبَ الأَرْضَ بِقَوائِمِهِ الرَّفِيعَةِ ذاتِ الحَوافِرِ المَشْقُوقَةِ.. أَسْرَعَ لِمُهاجَمَةِ الصَّبِيِّ وأَطْرافُ قُرُونِهِ المُدَبَّبَةِ تَسْبِقُهُ.

اقْتَرَبَ التَّيْسُ مِنَ الصَّبِيِّ مُسْرِعًا.. حَبَسَتِ الغَزالَةُ الأُمُّ أَنْفاسَهَا.. تَنَفَّسَتِ الصُّعَداءَ حِينَ غَرَسَ الصَّبِيُّ طَرَفَ شَـوْكَتِهِ فِي الأَرْضِ، واعْتَمَدَ عَلَيْهَا وقَفَزَ فِي الهَواءِ، ومَرَّ مِنْ فَوْق التَّيْسِ وحَطَّ خَلْفَهُ.

قالَ الْحِصَانُ الأَبْيَضُ لِزَوْجَتِهِ:

- سَيَنْتَصِرُ الصَّبِيُّ .

عـادَ التَّيْسُ لِلْهُجُومِ ثانِيَةً.. انْدَفَعَ نَحْوَ الصَّبِيِّ، لَمْ يَتَحَرَّكِ الصَّبِيُّ مِنْ مَكانِهِ.. وَجَّهَ شَـوْكَتَهُ الطَّوِيلَةَ ذاتَ السِّـنِّ المُدَبَّبَةِ ناحِيَةَ صَدْرِ التَّيْسِ، أَدْرَكَ التَّيْسُ أَنَّ قَرْنَ الصَّبِيِّ أَطْوَلُ مِنْ قُرُونِهِ.. تَوَقَّفَ قَبْلَ أَنْ تَنْغَرِسَ الشَّوْكَةُ فِي صَدْرِهِ وانْسَحَبَ.

وانْسَحَبَ زَوْجُ الخُيُولِ البَيْضَاءِ وهُمَا مُطْمَئِنَّانِ عَلَى الصَّبِيِّ.

١١

رَفْرَفَتِ الطُّيُورُ وانْتَشَرَتْ في سَماءِ الجَزِيرَةِ تُعْلِنُ خَبَرَ انْتِصَارِ الصَّبِيِّ عَلَى التَّيْسِ الكَبِيرِ.

تَجَمَّعَــتْ كُلُّ مَجْمُوعَةٍ مِنْ مَجْمُوعاتِ الطُّيورِ والحَيَواناتِ حَوْلَ كَبِيرِهَا، مِنْهَا مَنِ التفَّ حَوْلَ بَعْضِها في السُّــهُولِ، ومِنْها مَنْ وَقَفَ فَوْقَ أَفْرُعِ الأَشْــجارِ. وقَضَوْا جَمِيعًا نَهارَهُمْ وهُمْ يَتَعَجَّبُونَ لِفَوْزِ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ عَلَى التَّيْسِ الكَبِيرِ، صاحِبِ القُرُونِ المُتَشَعِّبَةِ، والَّذِي لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَهْزِمَهُ مِنْ قَبْلُ. وكُلُّهُم وَصَلُوا إِلَى قَرارٍ واحِدٍ، وقالُوا:

ـ قَدْ صارَ الصَّبِيُّ خَطَرًا عَلَيْنا، ومُنْذُ الآنَ لا بُدَّ أَنْ نَأْخُذَ حَذَرَنَا مِنْهُ.

أَرادَتِ الغَزالَةُ أَنْ تُدافِعَ عَنْ رَضِيعِهَا، حاوَلَتْ أَنْ تُقْنِعَ الجَمِيعَ بأَنَّ التَّيْسَ هُوَ الَّذِي أَجْبَرَهُ عَلَى الشِّجارِ .. لَمْ يَسْتَمِعْ إِلَيْها أَحَدٌ، انْسَحَبَتْ في هُدُوءٍ وراحَتْ تَبْحَثُ عَنْهُ.

كانَ الصَّبِيُّ يَجْلِسُ في كَهْفِهِ حَزِينًا.. يُعاتِبُ نَفْسَهُ، لَمْ يَكُنْ أَبَدًا يُرِيدُ أَنْ يَتَشَاجَرَ مَعَ أَحَدٍ .. قالَ لَهُ عَقْلُهُ:

- لِمَاذا تَقْسُو عَلَى نَفْسِــكَ هَكَذا؟! أَنْتَ فَعَلْتَ ما يَفْعَلُونَهُ. القُوَّةُ هِيَ السَّيِّدُ هُنَا. أَلَمْ تُلاحِظْ أَنَّ كُلَّ قَطِيعٍ يَتْبَعُ سَــيِّدَهُ القَوِيَّ. أَنْتَ نَفْسُكَ كُنْتَ تَتْبَعُ هَذا التَّيْسَ.. أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

وبَيْنَمَا هُوَ مُسْــتَغْرِقٌ في تَفْكِيرٍ عَمِيقٍ، إِذَا بِأُمِّهِ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ قادِمَةٌ إِلَيْهِ.. جَلَسَــتْ بِجِوَارِهِ، تَمَسَّحَتْ بِرَأْسِهَا في جَسَدِهِ العارِي، أَخَذَهَا في حِضْنِهِ وهُوَ يَقُولُ:

- لَمْ أَكُنْ أُرِيدُ أَبَدًا أَنْ أَتَشاجَرَ مَعَ التَّيْسِ الكَبِيرِ.

رَدَّتِ الأُمُّ قائِلَةً:

- فَعَلْتَ ما يَفْعَلُهُ كُلُّ الذُّكُورِ يا وَلَدِي؛ يَتَشاجَرُونَ دائِمًا ثُمَّ يَتَصالَحُونَ.

هَدَأَ الصَّبِيُّ.. لَمْ يَعُدْ يُؤَنِّبُ نَفْسَهُ أَوْ يَلُومُها، فَقَدْ فَعَلَ ما يَفْعَلُونَ. لَكِنَّهُ تَذَكَّرَ قَوْلَهَا لَهُ إِنَّهُ مِنْ فَصِيلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنْ كُلِّ الفَصائِلِ، فَسَأَلَهَا قائِلًا:

- هَلْ صَحِيحٌ أَنَّنِي مِنْ فَصِيلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنْ كُلِّ الفَصائِلِ الَّتِي هُنَا؟

أَجابَتِ الأُمُّ قائِلَةً:

ـ نَعَـــمْ يا وَلَدِي. أَنْتَ مِنْ فَصِيلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وكُلُّ الفَصائِلِ الَّتِي تَعِيشُ هُنا تَعْرِفُ ذَلِكَ. لَكِنَّهُمْ جَمِيعًا يُحِبُّونَكَ، ويَعْتَبِرُونَكَ وَاحِدًا مِنْهُمْ.

قالَ الصَّبِيُّ في هُدُوءٍ:

ـ وأنَا أَيْضًا أُحِبُّهُمْ .

أَرادَ الصَّبِيُّ ألَّا يُفَكِّرَ في شَـــيْءٍ، أَراحَ رَأْسَـــهُ عَلَى رَأْسِ أُمِّهِ وأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ. وحِينَ فَتَحَهَا وَجَدَ نَفْسَـــهُ مُمَدَّدًا عَلَى الأَرْضِ وَحِيدًا، وقَدْ مَرَّ أَكْثَرُ مِنْ نِصْفِ النَّهارِ، أَدْرَكَ أَنَّهُ نامَ وأَراحَتْهُ أُمُّهُ عَلَى الأَرْضِ ورَاحَتْ لِحَالِهَا، لَكِنَّ ذِهْنَهُ كانَ صَافِيًا.. لَمْ يَكُنْ في نَفْسِهِ أَيَّةُ كَراهِيَةٍ لِلتَّيْسِ الكَبِيرِ الَّذِي أَصَرَّ عَلى الشِّجارِ مَعَهُ. فَقَرَّرَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَيْهِ لِيَتَصالَحَ مَعَهُ.

قَفَزَ إِلَى الوَادِي المُتَّسِـــعِ أَمَامَ الكَهْفِ، وحِينَ وَصَلَ إِلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي في مُنْتَصَفِ الوَادِي أَدْرَكَ أَنَّ

حَرْبَتَهُ الخَشَبِيَّةَ لَيْسَتْ فِي يَدِهِ، تَوَقَّفَ. قالَ لَهُ عَقْلُهُ:

ـ نَسِيتَ مَصْدَرَ قُوَّتِكَ.

عادَ إِلَى الكَهْفِ وأَحْضَرَ حَرْبَتَهُ الخَشَبِيَّةَ ذاتَ السِّنِّ المُدَبَّبَةِ، أَمْسَكَ بِهَا فِي يَدِهِ وهَمَّ بِالْقَفْزِ إِلَى الوادِي كَما فَعَلَ مِنْ قَبْلُ، وَجَدَ نَفْسَهُ يَسِيرُ فِي هُدُوءٍ وكِبْرِيَاءٍ والعَصَا فِي يَدِهِ.

وَاصَلَ الصَّبِيُّ سَيْرَهُ، ولاحَظَ فِي طَرِيقِهِ أَنَّ بَعْضَ الحَيَواناتِ الصَّغِيرَةِ بَدَأَتْ تَخافُ مِنْهُ، وحِينَ يُحاوِلُ أَنْ يَلْهُوَ مَعَهَا تَفِرُّ مِنْ أَمامِهِ وتَهْرُبُ بَعِيدًا، أَمَّا الحَيَواناتُ الكَبِيرَةُ فَقَدْ كانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي خَوْفٍ ولا تَقْتَرِبُ مِنْهُ، حَتَّى الطُّيُورُ الَّتِي كانَتْ تُرَفْرِفُ بِالقُرْبِ مِنْ رَأْسِهِ هَرَبَتْ وَوَقَفَتْ عَلَى أَطْرافِ الفُرُوعِ تُراقِبُهُ.

أَدْرَكَ الصَّبِيُّ أَنَّ العَصَا هِيَ الَّتِي جَعَلَتْهُمْ يَخْشَوْنَهُ، فَسارَ وهُوَ يُلَوِّحُ بِهَا فِي الهَواءِ.

رَآهُ زَوْجُ الخَيْلِ الأَبْيَضِ وهُوَ عَلَى هَذِهِ الحالِ، قالَتِ الزَّوْجَةُ:

ـ قَدْ بَدَأَ الصَّبِيُّ يَشْعُرُ بِقُوَّتِهِ وتَمَيُّزِهِ.

أَجابَ زَوْجُهَا وقالَ:

ـ سَنَرَى ماذا سَيَفْعَلُ بَعْدَ أَنْ جَعَلَتْهُ العَصَا وَحِيدًا، ولَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يَلْعَبُ أَوْ يَلْهُو مَعَهُ.. ولَنْ يَقْتَرِبَ مِنْهُ سِوَى أُمِّهِ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ.

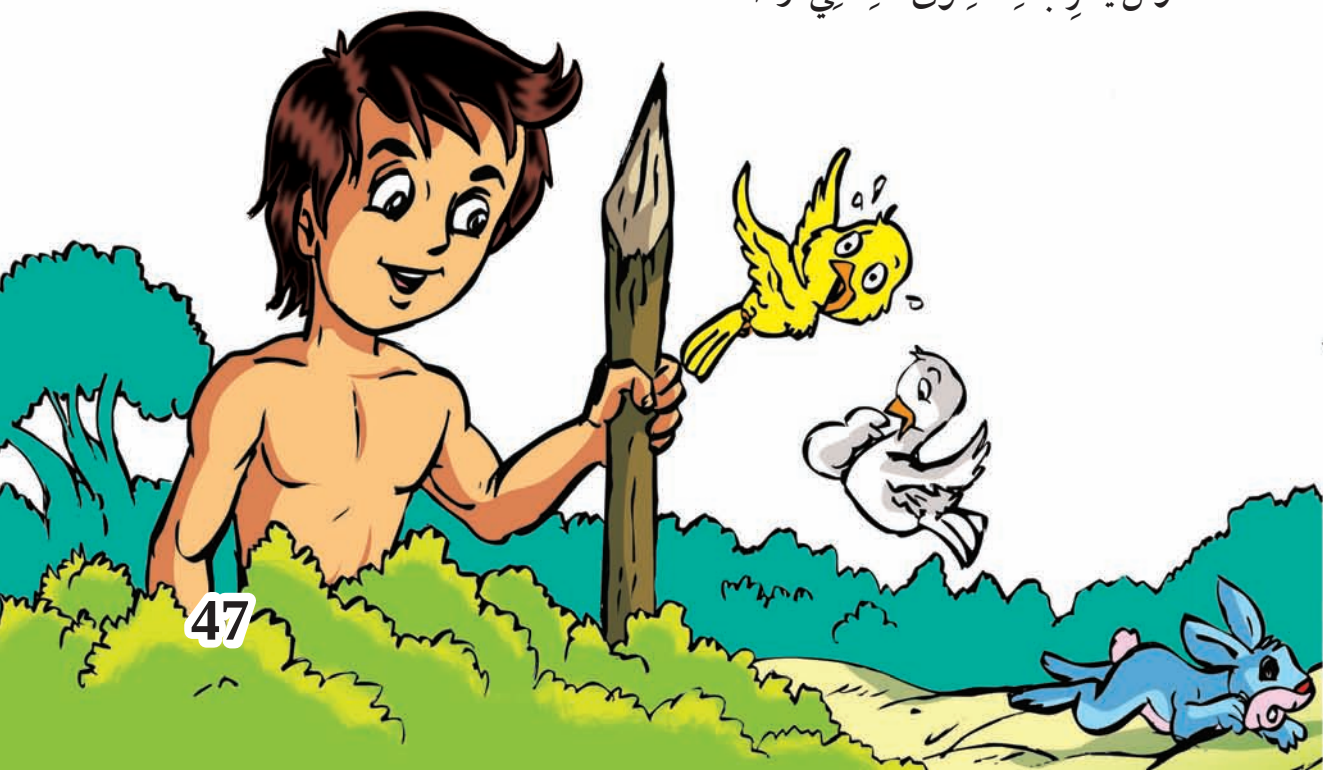

12

مَرَّتْ أَيَّامُ الصَّبِيِّ عَلَى الجَزِيرَةِ وصارَتْ شُهُورًا، والشُّهُورُ أَكْمَلَتْ سَنواتٍ، وصارَ الصَّبِيُّ فَتًى، وأَدْرَكَ أَنَّهُ يَمْلِكُ عَقْلًا يُفَكِّرُ وهُمْ لا يَمْلِكُونَ. قَرَّرَ أَنْ يَسْتَخْدِمَ عَقْلَهُ هَذا لِيُصْبِحَ سَيِّدَ هَذِهِ الجَزِيرَةِ؛ حَتَّى يَعِيشَ عَلَيْها في سَلامٍ.

وذَاتَ يَوْمٍ كانَ جَالِسًا أَمامَ كَهْفِهِ يُهَذِّبُ عَصًا جَدِيدَةً طَوِيلَةً وقَوِيَّةً، رَفَعَ عَيْنَيْهِ إِلَى الفَضَاءِ الأَخْضَرِ الَّذِي أَمامَهُ لِيُرِيحَ عَيْنَيْهِ، رَأَى زَوْجَ الخَيْلِ الأَبْيَضِ هُناكَ عِنْدَ الشَّجَرَةِ الَّتِي تَتَوَسَّطُ الوَادِي. تَرَكَ ما في يَدِهِ وأَسْرَعَ يَقْفِزُ كالْغِزْلانِ ناحِيَتَهُمَا. وفي لَحَظاتٍ كانَا قَدِ اخْتَفَيَا مِنْ أَمامِ عَيْنَيْهِ، وكَمُنَا في مَكانٍ يُراقِبَانِ ما سَيَفْعَلُ. قالَتِ الزَّوْجَةُ:

- قَدْ صَارَ الصَّبِيُّ فَتًى.

رَدَّ الزَّوْجُ وقالَ:

- سَيَبْدَأُ فِي مَعْرِفَةِ مُتْعَةِ التَّفْكِيرِ والاكْتِشَافِ.

عادَ الفَتَــى إِلَى ما كانَ يَفْعَلُهُ، جَلَسَ أَمامَ فَتْحَةِ كَهْفِهِ يُسَــوِّي حَرْبَتَهُ الكَبِيرَةَ، وبَعْدَ قَلِيــلٍ مَرَّ أَمامَهُ قَطِيعٌ مِنَ الماعِزِ .. لا يَدْرِي لِمَاذا نَظَرَ إِلَيْهِمْ، ولا يَدْرِي ما الَّذِي جَعَلَهُ يَنْظُرُ إِلَى مُؤَخِّراتِهِم، كانَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ ذَيْلٌ يُخْفِي عَوْرَتَهُ.. نَظَرَ إِلَى نَفْسِهِ.. كانَ عارِيًا كمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، قالَ لَهُ عَقْلُهُ:

- لا يَجِبُ أَنْ تَظَلَّ هَكذَا وأَنْتَ سَيِّدُ الجَزِيرَةِ.

شَعَرَ بالخَجَلِ مِنْ نَفْسِــهِ، لأَوَّلِ مَرَّةٍ يَشْعُرُ بالخَجَلِ حِينَ رَأَى نَفْسَهُ عارِيًا.. أَمَرَهُ عَقْلُهُ وقالَ لهُ:

- يَجِبُ أَنْ تَسْتُرَ عَوْرَتَكَ .

أَخَذَ العَصَا فِي يَدِهِ.. راحَ يَطُوفُ فِي كُلِّ الطُّرُقاتِ بَحْثًا عَنْ شَــيْءٍ يَلُفُّهُ حَوْلَ وَسَطِهِ، مَرَّ عَلَى شَجَرَةِ مَوْزٍ، فَلَفَتَ نَظَرَهُ طُولُ وَرَقِها.

أَخَذَ الفَتَى وَرَقَةً مِنْ أَوْراقِ شَجَرَةِ المَوْزِ، ولَفَّهَا حَوْلَ وَسَطِهِ. شَعَرَ بالرِّضَا، فَرَدَ ذِراعَيْهِ ودارَ فِي الهَواءِ فَرِحًا.. سَقَطَتْ وَرَقَةُ المَوْزِ عَلَى الأَرْضِ.. أَسْرَعَ وَلَفَّها ثانِيةً فِي مَكانِهَا. ظَلَّ مُمْسِكًا بِهَا بِيَدِهِ، وسارَ وهُوَ يُفَكِّرُ فِي طَرِيقَةٍ تُثَبِّتُهَا حَوْلَ جَسَدِهِ ولا تَقَعُ ثانِيَةً.

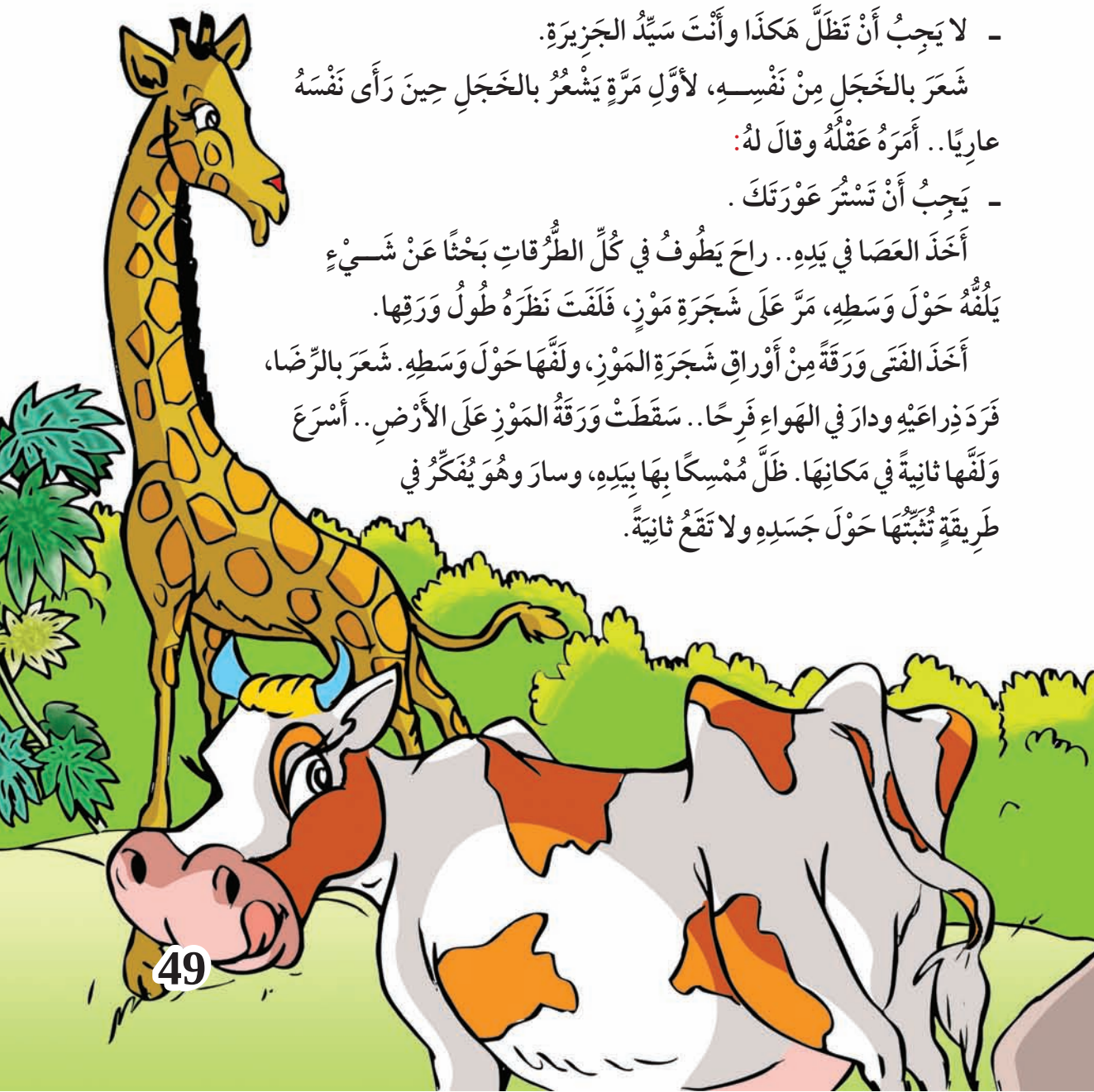

قالَ لَهُ عَقْلُهُ:

- ابْحَثْ عَنْ شَجَرَةٍ لَهَا لِحاءٌ تُقَشِّرُهُ وتَصْنَعُ مِنْهُ رِباطًا.

أَطاعَ الفَتَى عَقْلَهُ.. دارَ في الجَزِيرَةِ كُلِّهَا ولَمْ يَهْتَدِ إِلَى الشَّجَرَةِ المَطْلُوبَةِ.. وَصَلَ إِلَى الشَّاطِئِ.. وَقَفَ شارِدًا يَنْظُرُ إِلَى الفَضاءِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ نِهايَةٌ أَمامَ عَيْنَيْهِ. قالَتْ لَهُ النَّخْلَةُ:

- الحَلُّ تَحْتَ قَدَمَيْكَ.

نَظَرَ إِلَى الأَرْضِ حَيْثُ يَقِفُ، كانَتْ عِدَّةُ سَعفاتٍ قَدْ سَقَطَتْ مِنَ النَّخْلَةِ، جَلَسَ بالقُرْبِ مِنْها يُفَكِّرُ كَيْفَ يَصْنَعُ مِنْها شَرِيطًا يَلُفُّهُ فَوْقَ وَرَقَةِ المَوْزِ حَوْلَ وَسَطِهِ حَتَّى لا تَسْقُطَ وتَجْعَلَهُ يَخْجَلُ مِنْ نَفْسِه ثانِيةً.. انْزَلَقَتْ وَرَقَةُ المَوْزِ مِنْ حَوْلَ جَسَدِه واسْتَقَرَّتْ عَلَى الأَرْضِ. عادَ عارِيًا كَمَا كانَ.. خَجِلَ مِنْ نَفْسِهِ.. تَعَجَّبَ كَيْفَ عَرَفَ الخَجَلَ ولَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ مِنْ قَبْلُ! قالَ لَهُ عَقْلُهُ:

- كُنْتَ جاهِلًا.. والآنَ قَدْ عَرَفْتَ.

أَحْضَرَ وَرَقَةَ المَوْزِ وَوَضَعَها عَلَى فَخِذَيْهِ.. عاد يَنْظُرُ إِلَى أَوْراقِ سَعْفَةِ النَّخْلَةِ، وعَقْلُهُ يُفَكِّرُ ماذا يُمْكِنُ أَنْ تُقَدِّمَهُ لَهُ هَذِه الأَوْرَاقُ الشَّرِيطِيَّةُ الطَّوِيلَةُ، لَفَتَ نَظَرَهُ أَنَّها مُتَراصَّةٌ بِجِوَارِ بَعْضِهَا، قالَ لَهُ عَقْلُهُ :

- لَوْ تَداخَلَتْ هَذِه الأَوْراقُ طُولًا وعَرْضًا لَصَنَعْتَ مِنْهَا شَرِيطًا لا يَنْحَلُّ .

رَاحَ يُقَشِّرُ خُوصَ السَّعْفَةِ مِنْ جَرِيدِهَا.. نَسَجَ مِنْهَا شَرِيطًا طَوِيلًا يَكْفِي لأَنْ يَدُورَ حَوْلَ وَسَطِهِ، أَمْسَكَهُ مِنْ طَرَفَيْهِ واخْتَبَرَ تَماسُكَهُ، شَدَّتِ الوَحْداتُ عَلَى بَعْضِها ولَمْ تَنْحَلَّ، وَقَفَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ. أَحاطَ وَسَطَهُ بِوَرَقَةِ المَوْزِ .. ثَبَّتَهَا بِشَرِيطِ الخُوصِ الَّذِي صَنَعَهُ.. وَقَفَ يَخْتَبِرُها فَلَمْ تَسْقُطْ، تَراقَصَ حَوْلَ النَّخْلَةِ، فَظَلَّتِ الوَرَقَةُ في مَكانِهَا، اطْمَأَنَّ إِلَى أَنَّهُ لَنْ يَخْجَلَ مِنْ نَفْسِهِ ثانِيَةً، أَخَذَ حَرْبَتَهُ الكَبِيرَةَ وسارَ عائِدًا إِلَى كَهْفِهِ وهُوَ سَعِيدٌ بِمَا فَعَلَتْ يَدَاهُ .

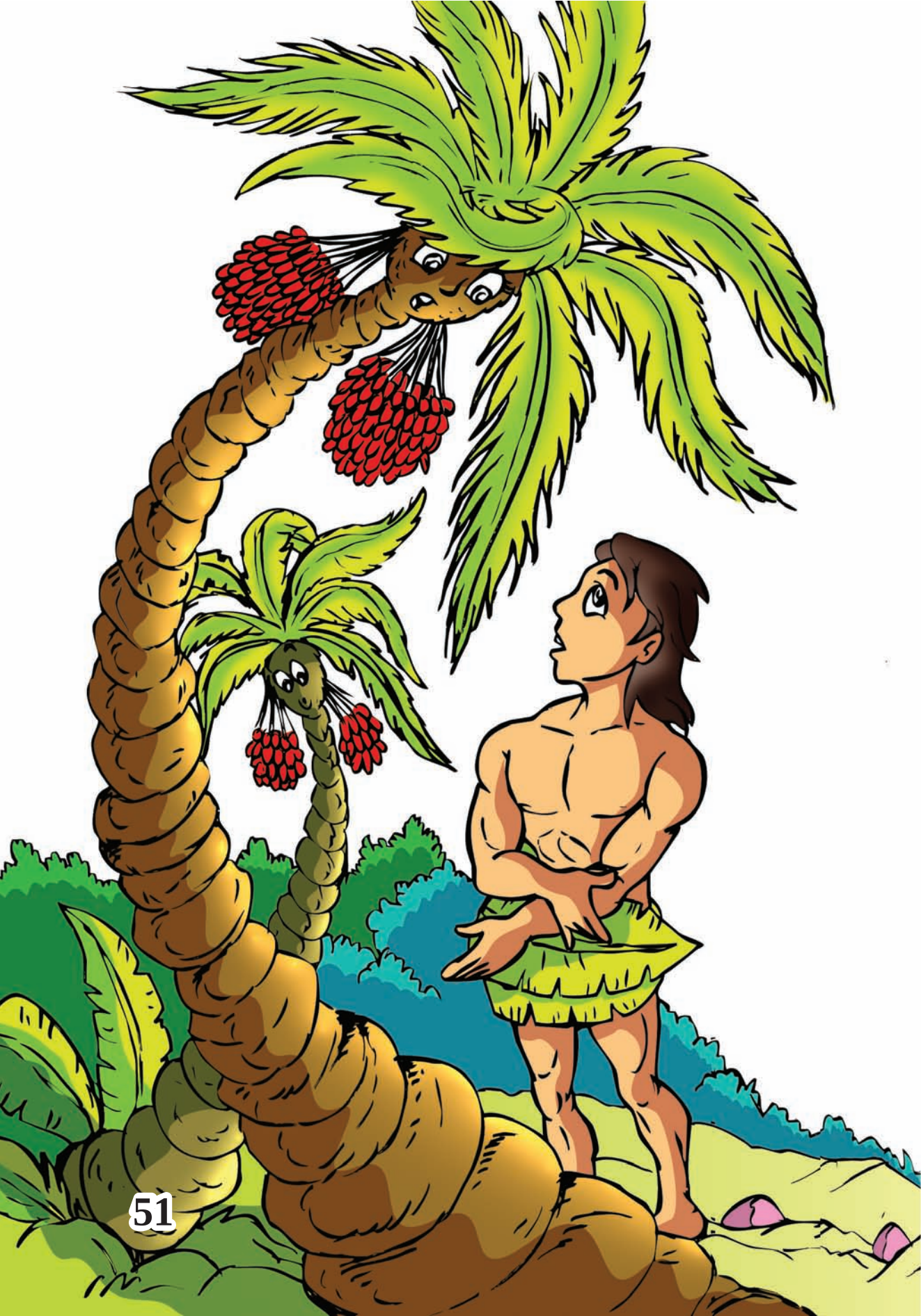

13

مَـرَّتْ أَيَّامُ الفَتَى عَـلَى الجَزِيرَةِ فِي هُدُوءٍ.. لَمْ يَكُنْ يُضايِقُهُ شَـيْءٌ سِـوَى تَجَنُّبِ الحَيَواناتِ والطُّيُورِ لَهُ، وحَيَاتِه الَّتِي يَحْيَاهَا وَحِيدًا لا يَزُورُه إلَّا أُمُّهُ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ، وأَنَّ الأَوْراقَ الَّتِي يَلُفُّهَا حَوْلَ وَسَطِهِ كانَتْ تَذْبُلُ وتَتَساقَطُ، وكانَ يُضْطَرُّ لِتَغْيِيرِهَا.

وذاتَ يَـوْمٍ.. بَيْنَمَا هُوَ سـائِرٌ فِي طُرُقاتِ الجَزِيـرَةِ، وعَصاهُ الطَّوِيلَـةُ فِي يَدِهِ مِثْلُ صَوْلَجانِ المَلِكِ، وَصَلَ إِلَى مَكانٍ مُنْعَزِلٍ.. أَرْضُهُ صَخْرِيَّةٌ لَمْ تَنْبُتْ فِيهَا أَشْجارٌ، وَجَدَ نَسْرًا عَلَى الأَرْضِ قَدْ فَرَدَ جَناحَيْهِ وذَيْلَهُ، فَغَطَّى رِيشُ الْجَناحَيْنِ والذَّيْلِ مِساحَةً كَبِيرَةً مِـنَ الأَرْضِ. وَقَفَ هادِئًا بالقُرْبِ مِنْهُ، أَعْجَبَهُ أَلْوانُ الرِّيشِ، تَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ مِثْلُهَا لِيَصْنَعَ مِنْهَا حِزامًا يَلُفُّهُ حَوْلَ وَسَـطِهِ، فَلا يَذْبُلُ ولا يَسْـقُطُ.. وَخَزَ النَّسْرَ بِعَصَاهُ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ. أَدْرَكَ أَنَّ النَّسْرَ الَّذِي كانَ يَحْيَا فِي داخِلِ هَذا الجَسَدِ قَدْ غادَرَهُ. جَلَسَ بِجِوَارِهِ.. أَخَذَ رِيشَ جَناحَيْهِ وذَيْلِهِ وَذَهَبَ لِيَجْلِسَ بِهِمَا تَحْتَ النَّخْلَةِ عَلَى شَاطِئِ المُحِيطِ.

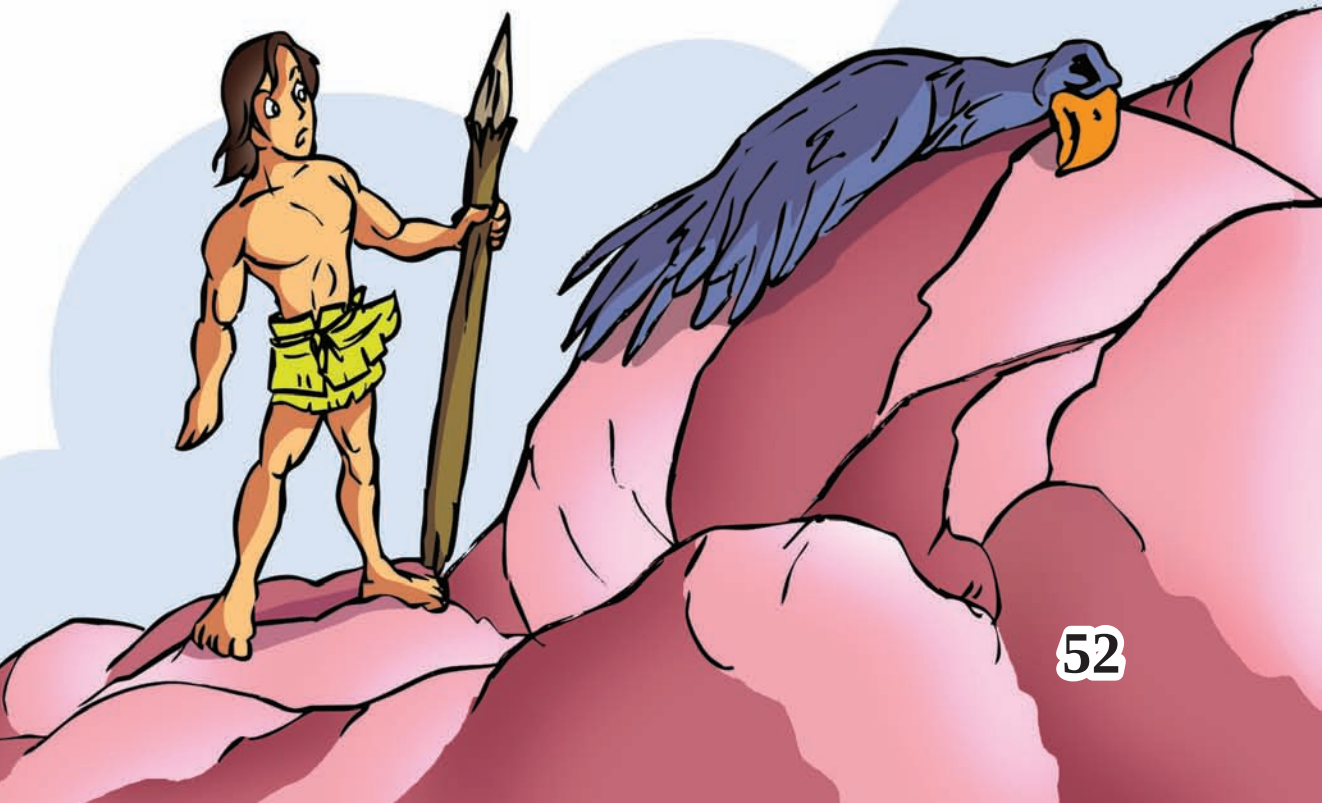

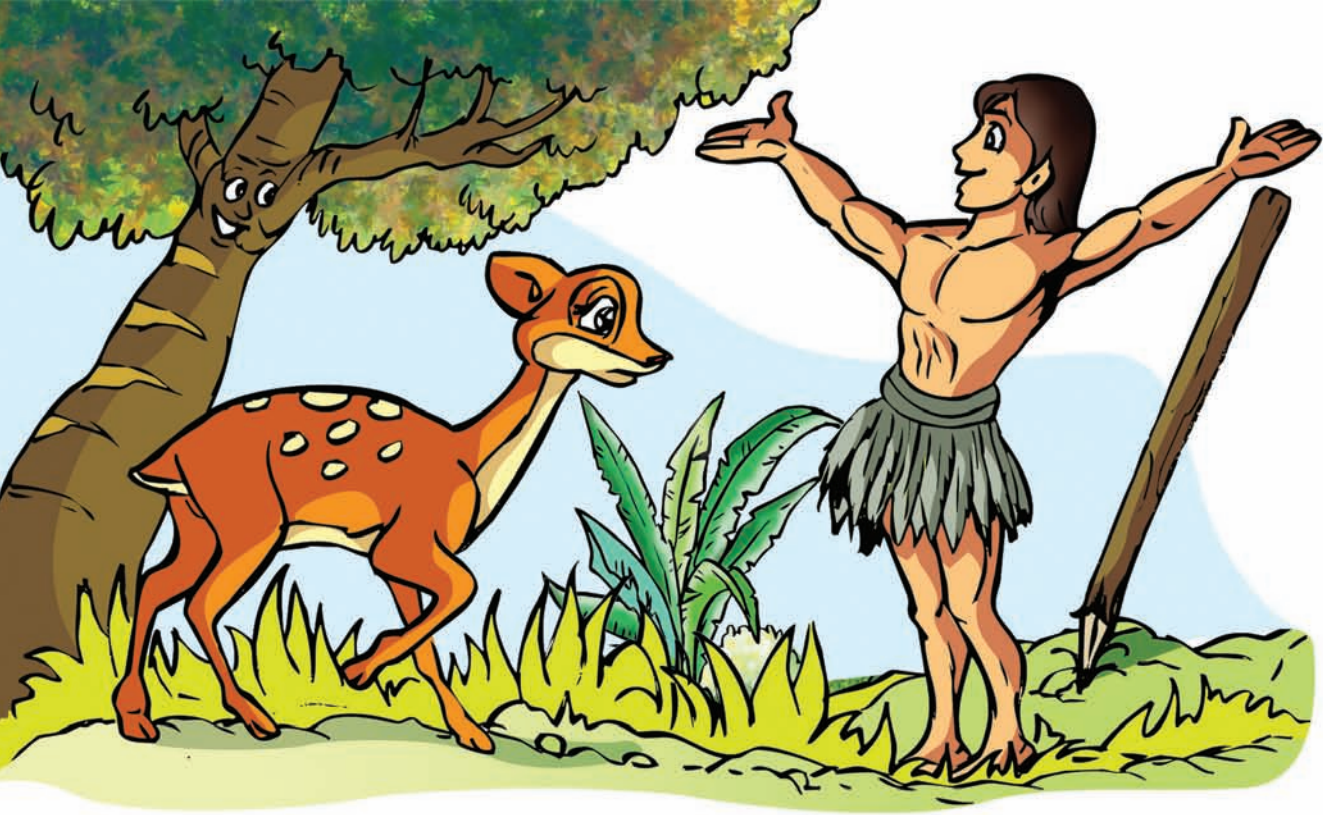

نَسَـــجَ مِنْ خُوصِ النَّخْلَةِ حِزامًا جَدِيدًا.. ولَكِنَّهُ هَذِهِ المَرَّةَ أَكْثَرُ عَرْضًا مِنْ سَابِقِهِ.

صارَ يَأْخُذُ مِنْ رِيشِ النَّسْرِ ويَرْشُقُهُ في الحِزَامِ .. نَقَلَ كُلَّ الرِّيشِ إِلَيْهِ، أَعْجَبَهُ ما صَنَعَ.

خَجِلَ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ يُبَدِّلَ الحِزَامَ القَدِيمَ في العَراءِ، أَسْرَعَ إِلَى كَهْفِهِ. وفي الدَّاخِلِ بَدَّلَ حِزامَ الرِّيشِ بحِزامِ الأَوْراقِ. وأَخَذَ عَصاهُ الكَبِيرَةَ وأَسْرَعَ يَبْحَثُ عَنْ أُمِّهِ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ لِيُرِيَهَا ما صَنَعَتْ يَدَاهُ.

بَحَثَ الفَتَى عَنْ أُمِّهِ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ حَتَّى يُرِيَهَا ما صَنَعَتْ يَداهُ، وَجَدَها تَرْعَى الأَعْشابَ بَيْـــنَ عَدَدٍ مِنَ الغِزْلانِ. فُوجِئَتْ بِهِ يَعْدُو ناحِيَتَها.. كَفَّتْ عَنْ تَناوُلِ طَعامِهَا واسْـــتَقْبَلَتْهُ بِتَتْرِيبٍ(*) جَمِيلٍ، دارَ حَوْلَ نَفْسِهِ في فَخْرٍ يَسْتَعْرِضُ ما صَنَعَتْ يَداهُ، وهُوَ يَقُولُ:

- انْظُرِي ما صَنَعَتْ يَدايَ.

نَظَرَتِ الغَزالَةُ إِلَى إِزارِ وَلَدِها الَّذِي صَنَعَهُ مِنَ الخُوصِ والرِّيشِ وَلَفَّهُ حَوْلَ وَسَطِهِ، بِإِعْجابٍ شَدِيدٍ، وقالَتْ لَهُ:

(*) تَتْرِيب : صَوْتُ الظِّباءِ.

ـ صـــارَ لِيَدَيْكَ فَضْلٌ كَبِيرٌ عَلَيْـــكَ؛ صَنَعْتَ بِهَا العَصَا الَّتِي تُدافِعُ بِهَا عَنْ نَفْسِـــكَ، وجَعَلْتَ كُلَّ الحَيَواناتِ تَهابُكَ، وصَنَعْتَ بِهَا ما يَسْتُرُ عَوْرَتَكَ.

وابْتَسَمَتِ الغَزالَةُ في وَجْهِ رَضِيعِهَا، واسْتَطْرَدَتْ قائِلَةً:

ـ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ مِنْ فَصِيلَةٍ أَفْضَلَ مِنْ كُلِّ الفَصائِلِ؟

جَلَسَ الفَتَى عَلَى رُكْبَتَيْهِ أَمَامَ أُمِّهِ، وأَخَذَ رَأْسَهَا في حِضْنِهِ وراحَ يُقَبِّلُهُ ويَقُولُ لَهَا:

ـ الفَضْلُ لَكِ يَا أُمِّي؛ فَأَنْتِ الَّتِي أَرْضَعْتِنِي.

اسْتَسْـــلَمَتِ الغَزالَةُ لِدِفْءِ الْحُبِّ الَّذِي انْتَقَلَ إِلَيْهَا مِنْ قَلْـــبِ رَضِيعِهَا، لَحَظاتٌ وبَدَأَتْ تَشْعُرُ بِأَنَّ تَغَيُّرًا سَيَحْدُثُ في الجَوِّ حَوْلَهَا.. شَعَرَتْ بِهِ صَاحِباتُهَا أَيْضًا فَأَسْرَعْنَ مُبْتَعِداتٍ عَنِ المَكانِ، كُلٌّ مِنْهُنَّ راحَتْ تَبْحَثُ عَنْ مَكانٍ تَحْتَمِي فِيهِ مِمَّا سَيَحْدُثُ.

سَحَبَتِ الغَزالَةُ رَأْسَها مِنْ حِضْنِ رَضِيعِهَا، وقالَتْ لَهُ:

ـ اذْهَبْ يا وَلَدِي فالسَّماءُ سَتُمْطِرُ بَعْدَ قَلِيلٍ.

قالَ الفَتَى لأُمِّهِ:

ـ تَعالَيْ مَعِي.

رَدَّتْ عَلَيْهِ حازِمَةً وقالَتْ:

ـ سَـــبَقَ أَنْ قُلْتُ لَـــكَ بِأَنَّنِي مُهَيَّأَةٌ لِلْحَياةِ في العَراءِ، أَمَّا أَنْتَ فَلا.

قالَتْ هَذا، ثُمَّ أَرْدَفَتْ آمِرَةً:

ـ اذْهَبْ أَنْتَ إِلَى بَيْتِكَ.. هَيَّا.

انْطَلَقَ الفَتَى إِلَى بَيْتِهِ مُسْــرِعًا، وقَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ.. بَدَأَ لَوْنُ الدُّنْيَا يَتَغَيَّرُ مِنْ حَوْلِهِ. نَظَرَ إِلَى أَعْلَى فَوَجَدَ السُّحُبَ السَّوْداءَ الكَثِيفَةَ آتِيَةً مِنْ فَوْقِ المَاءِ إِلَى فَوْقِ الجَزِيرَةِ، وقَدْ حَجَبَتْ ضَوْءَ الشَّمْسِ فَوْقَها، وأَرْسَلَتْ ظِلَّهَا الرَّمَادِيَّ يَزْحَفُ عَلَى الأَرْضِ.

لَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيــلٌ حَتَّى كادَتِ الدُّنْيَا تُظْلِمُ مِنْ حَــوْلِ الفَتَى، وقَبْلَ أَنْ يَهْطِلُ المَطَرُ.. كانَ الْفَتَى يَجْلِسُ في فَتْحَةِ كَهْفِهِ، يَتَفَكَّرُ في حالَ الدُّنْيا وكَيْفَ تَتَغَيَّرُ في لَحَظاتٍ مِنْ حالٍ إِلَى حَالٍ.

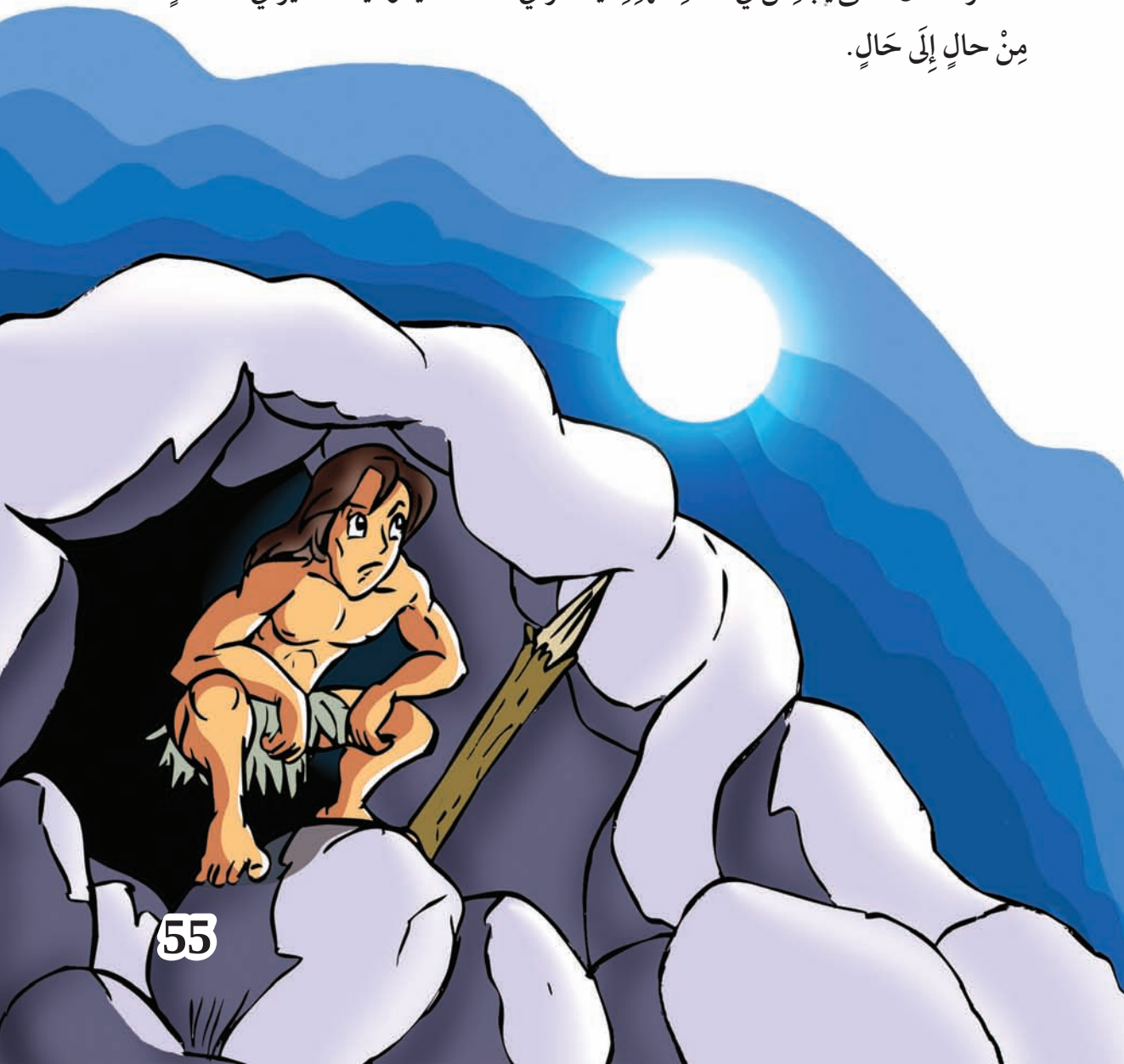

فَكَّرَ الفَتَى في أُمِّهِ الَّتِي رَفَضَتْ أَنْ تَأْتِيَ مَعَهُ، هَمَّ بالنُّزُولِ إِلَى الْمَراعِي لِلْبَحْثِ عَنْهَا، طَمْأَنَتْهُ نَفْسُهُ عَلَيْهَا وقالَتْ لَهُ:

ـ ما دامَتْ قَدْ أَخْبَرَتْكَ أَنَّها مُهَيَّأَةٌ لِلْعَيْشِ في الْعَراءِ، فَلا تَقْلَقْ عَلَيْهَا.

حاوَلَ الفَتَى أَنْ يَطْرُدَ إِحْساسَـهُ بالقَلَقِ عَلَى أُمِّهِ مِنْ عَقْلِهِ، وفَجْأَةً سَمِعَ دَوِيًّا اهْتَزَّتْ لَهُ جُدْرانُ الكَهْفِ، ولَمَعَ خَطٌّ واصِلٌ بَيْنَ السَّـماءِ والأَرْضِ وهَطَلَتِ الأَمْطارُ بِغَزارَةٍ. زادَ قَلَقُهُ عَلَى أُمِّهِ الَّتِي تَرَكَها في المَراعِي، فانْطَلَقَ مُسْرِعًا يَبْحَثُ عَنْهَا.

بَحَـثَ عَنْهَا حَيْثُ تَرَكَها فَلَمْ يَجِدْها! زادَ قَلَقُـه، وانْطَلَقَ يَبْحَثُ عَنْها في كُلِّ مَكانٍ يَعْـرِفُ أَنَّها تَذْهَبُ إِلَيْهِ.. لَمْ يَجِدْهَا! بَحَثَ عَنْهَا تَحْـتَ كُلِّ خَمِيلَةٍ وتَحْتَ كُلِّ نُتُوءٍ صَخْرِيٍّ، حَتَّى تَجاوِيفُ الأَشْجارِ القَدِيمَةِ نَظَرَ فِيهَا، ولَمْ يَعْثُرْ لَهَا عَلَى أَثَرٍ!!

أَخْبَرَهُ عَقْلُهُ بأَنَّها رُبَّما ذَهَبَتْ إِلَى الشَّاطِئِ حَيْثُ تُحِبُّ أَنْ تَجْلِسَ هُناكَ وتَنْظُرُ إِلَى المَاءِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ نِهَايَةٌ. أَسْـرَعَ حَتَّى صارَ تَحْتَ نَخْلَةِ البَلَحِ العالِيَةِ.. كانَتْ أُمُّهُ هُناكَ راقِدَةً عَلَى الأَرْضِ تَصْطَدِمُ بِهَا قَطَراتُ المَطَرِ المُنْدَفِعَةُ مِنَ السَّـماءِ، وكانَتْ عَيْناهَا تُحَدِّقانِ في الفَراغِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ نِهَايَةٌ أَمَامَهَا.. أَسْـرَعَ ورَكَعَ بِجِوَارِهَا.. خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّها لا تَتَنَفَّسُ، وَضَعَ أُذُنَهُ حَيْثُ كانَ يَسْمَعُ دَقَّاتِ قَلْبِهَا. سَمِعَ خَفَقاتٍ خافِتَةً، حَمَلَها بَيْنَ ذِراعَيْهِ ورَاحَ يَعْدُو بِها ناحِيَةَ كَهْفِهِ.

ما زالَ عَقْلُ الغَزالَةِ يَشْعُرُ بِمَا يَدُورُ حَوْلَهُ، أَخْبَرَهَا أَنَّها مَحْمُولَةٌ عَلَى صَدْرِ رَضِيعِهَا، شَعَرَتْ بالرِّضَا والسَّـعادَةِ؛ فَلا يُوجَدُ حَيَوانٌ يَفْعَلُ بِأُمِّهِ مِثْلَ ما يَفْعَلُهُ هَذا الفَتَى الآنَ، تَمَسَّحَتْ بِرَأْسِهَا في رَقَبَتِهِ وقالَتْ في نَفْسِهَا:

ـ هَذا هُوَ الفِعْلُ الحَقِيقِيُّ لابْنِ الإِنْسَانِ.

واصَلَ الفَتَى طَرِيقَهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى كَهْفِهِ، أَراحَ أُمَّهُ عَلَى الأَرْضِ، وجَلَسَ بِجوارِهَا لا يَعْرِفُ ماذَا يَفْعَلُ، حَتَّى كَفَّ الماءُ عَنِ الانْدِفَاعِ مِنَ السَّـــمَاءِ نَحْوَ الأَرْضِ.. وأَطَلَّ قُرْصُ الشَّـــمْسِ مائِلًا نَحْوَ الأُفُقِ الغَرْبِيِّ، وأَضاءَ الدُّنْيا بِضَوْءٍ أَصْفَرَ فِي لَوْنِ الذَّهَبِ، انْعَكَسَ داخِلَ الكَهْفِ فَأَضاءَهُ قَلِيلًا.

نَظَرَ الفَتَى إِلَى أُمِّهِ .. وَجَدَها شاحِبَةً غَيْرَ قادِرَةٍ عَلَى الحَرَكَةِ كَمَا يَعْرِفُها، تَذَكَّرَ ثِمارًا حُلْوَةَ المَذَاقِ.. كانَ يَشْعُرُ بالحَيَوِيَّةِ والنَّشاطِ حِينَ يَأْكُلُها، تَرَكَ أُمَّهُ وأَسْرَعَ خارِجًا، عادَ بَعْدَ قَلِيلٍ وهُوَ يَحْمِلُ حُزْمَةً مِنَ الأَعْشَـــابِ الطَّرِيَّةِ، نَفَضَ عَنْهَا قَطَراتِ المَطَرِ العالِقَةَ بِهَا، ثُمَّ فَرَشَها فِي أَحَدِ الأَرْكانِ، وحَمَلَ الغَزَالَةَ بَيْنَ ذِراعَيْهِ وأَراحَهَا عَلَى الفِرَاشِ.

اعْتَدَلَ واقِفًا وهُوَ يَقُولُ:

- سَأُحْضِرُ لَكِ بَعْضَ الطَّعامِ.

أَرادَتِ الغَزالَةُ أَنْ تُخْبِرَ رَضِيعَها بِأَنَّها لَيْسَـــتْ فِي حاجَـــةٍ إِلَى طَعَامٍ، لَكِنَّ صَوْتَها لَمْ يَخْرُجْ مِنْ جَوْفِهَا. تابَعَتْهُ بِعَيْنَيْهَا وهُوَ يَقْفِزُ خارِجًا، ثُمَّ وهُوَ يُسْرِعُ عَبْرَ الْوادِي الأَخْضَرِ الفَسِـــيحِ أَمامَ الكَهْفِ، وحِينَ اخْتَفَى عَنْ نَظَرِهَا عادَتْ إِلَى نَفْسِهَا.. أَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا، واسْتَسْـــلَمَتْ لِلخَدَرِ الَّذِي بَدَأَ يَتَسَلَّلُ إِلَى جَسَدِها الهَزِيلِ، يَسْحَبُ ما تَبَقَّى مِنْ قُواهَا، يُفْقِدُهَا السَّـــيْطَرَةَ عَلَى أَعْضائِهَا ، وشَيْئًا فَشَـــيْئًا بَدَأَتْ عَضَلاتُها تَتَراخَى وتَسْكُتُ عَنِ الحَرَكَةِ قَلِيلًا، وبِهُدُوءٍ خَرَجَتِ القُوَّةِ الَّتِي تُحَرِّكُ الجَسَدَ، ولَمْ يَعُدْ يَتَحَرَّكُ .

كانَتِ الشَّمْسُ قَدْ غابَتْ عَنِ الجَزِيرَةِ، والفَتَى ما زالَ يَبْحَثُ عَنِ الشَّجَرَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا، ضَاعَ مِنْهُ الطَّرِيقُ ولَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ يَصِلُ إِلَيْها بالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كانَ يَعْرِفُهُ جَيِّدًا.

لَمْ يَعْرِفِ الفَتَى أَنَّ حُزْنَهُ عَلَى أُمِّهِ كانَ ظُلْمَةً عَلَى نَفْسِهِ أَكْثَرَ مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وهُوَ الَّذِي جَعَلَهُ يَضِلُّ الطَّرِيقَ إِلَى الشَّجَرَةِ ذاتِ الثِّمارِ الحُلْوَةِ الَّتِي يُرِيدُها. لَكِنَّ حُبَّهُ لأُمِّهِ كانَ نُورًا فِي قَلْبِهِ ودافِعًا لأَنْ يَسْـــتَمِرَّ ، دارَ فِي الجَزِيرَةِ المُظْلِمَةِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ يَبْحَثُ عَنِ الشَّـــجَرَةِ ، وأَخِيرًا وَجَدَها، وقَطَفَ مِنْهَا قَدْرَ ما يَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ، وأَسْرَعَ عائِدًا إِلَى كَهْفِهِ.

15

دَخَلَ الفَتَى إِلَى كَهْفِهِ حامِلًا مَعَهُ الثَّمَراتِ الَّتِي جَمَعَهَا، صاحَ عَلَى أُمِّهِ يُخْبِرُهَا بِوُصُولِه، لَمْ تَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، ولَمْ تَفْتَحْ عَيْنَيْهَا. ظَنَّ أَنَّها لَمْ تَسْمَعْهُ.. أَسْرَعَ إِلَيْهَا وهُوَ يَأْمُلُ أَنْ تُعِيدَ إِلَيْهَا حَلاوَةُ الثِّمارِ حَيَوِيَّتَهَا، كَمَا تَفْعَلُ مَعَهُ حِينَ يَأْكُلُهَا، جَلَسَ بِجِوَارِهَا وَرَبَّتَ عَلَى جَسَدِها وهُوَ يَقُولُ لَهَا:

ـ أُمِّي .. أَحْضَرْتُ لَكِ الثِّمارَ الحُلْوَةَ.

شَعَرَتْ يَدُهُ بِأَنَّ الدِّفْءَ الَّذِي كانَ فِي الأُمِّ قَدْ راحَ، وحَلَّ البَرْدُ فِي الجَسَدِ.

أَخَذَ الفَتَى أُمَّهُ فِي حِضْنِهِ يُدْفِئُهَا. رَفَعَ رَأْسَهَا إِلَى أَعْلَى، أَمْسَكَ ثَمَرَةً فِي يَدِهِ.. قَرَّبَها مِنْ فَمِهَا، ضَغَطَ عَلَيْهَا بِأَصابِعِهِ فَسالَ عَصِيرُهَا عَلَى شَفَتَيْهَا، لَمْ تَشْعُرْ بِهِ الأُمُّ ولَمْ تَبْلَعْهُ.

وَضَعَ الثَّمَرَةَ عَلَى الأَرْضِ، وضَمَّ أُمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ عَلَى أَمَلِ أَنْ يَشْعُرَ بِتِلْكَ الخَفَقاتِ الَّتِي شَعَرَ بِهَا مِنْ قَبْلُ، فَلَمْ يَشْعُرْ بِشَيْءٍ، أَراحَها عَلَى الأَعْشابِ.. فَتَحَ جَفْنَيْهَا لِيَنْظُرَ إِلَى عَيْنَيْهَا، فَلَمْ يَرَ بَرِيقَهُمَا. رَفَعَ أَحَدَ أَطْرافِها إِلَى أَعْلَى فَسَقَطَ . لأَوَّلِ مَرَّةٍ عَرَفَتْ عَيْنَاهُ

الدُّمُوعَ حِينَ تَساقَطَتْ عَلَى خَدِّهِ. تَساءَلَ عَقْلُهُ وقالَ:

- أَيْنَ الدَّقَّاتُ الَّتِي كانَتْ فِي داخِلِهَا؟

ثُمَّ تَساءَلَ ثانِيَةً وقالَ:

- هَلِ الدَّقَّاتُ الَّتِي كانَتْ فِي الدَّاخِلِ هِيَ الَّتِي كانَتْ تُحَرِّكُ هَذا الجَسَدَ؟

ظَلَّ جَسَدُ الغَزالَةِ ساكِنًا أَمَامَ الفَتَى .. هَزَّهُ بِيَدَيْهِ هَزًّا عَنِيفًا عِدَّةَ مَرَّاتٍ وهُوَ يُنادِي أُمَّهُ، عَلَّهَا تُفِيقُ ويَتَحَرَّكُ الجَسَدُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَجِبْ. قالَ عَقْلُهُ حَزِينًا:

- فِي المَاضِي كانَتْ تَسْتَجِيبُ لأيِّ صَوْتٍ يَصْدُرُ مِنْكَ حَتَّى لَوْ كانَتْ نائِمَةً.

أَدْرَكَ أَنَّ أُمَّهُ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ والَّتِي كانَتْ تَحْنُو عَلَيْهِ، كانَتْ فِي هَذا الجَسَدِ الَّذِي يَرْقُدُ أَمامَهُ.. وقَدْ رَحَلَتْ بَعِيدًا، وأَنَّ هَذا الجَسَدَ الَّذِي صارَ مُتَعَطِّلًا عَنِ الحَرَكَةِ.. سَيُصْبِحُ تُرابًا مِثْلَ أَجْسادِ حَيَواناتٍ كَثِيرَةٍ، رَآها تَمْرَحُ هُنَا وهُناكَ، ثُمَّ رَآها مُلْقاةً فِي الجَزِيرَةِ وقَدْ بَلِيَ جَسَدُها ورَاحَ.

لَمْ يَرْضَ الفَتَى أَنْ يَكُونَ هَذا حالَ الجَسَدِ الَّذِي كانَتْ أُمُّهُ تَسْكُنُهُ وتَتَحَرَّكُ بِهِ، وظَلَّ طَوالَ اللَّيْلِ يُفَكِّرُ ماذا يَفْعَلُ بِهِ.

حِينَ جاءَ الصَّباحُ.. حَمَلَ الفَتَى جَسَدَ أُمِّهِ عَلَى كَتِفَيْهِ، هَبَطَ مِنْ كَهْفِهِ ورَاحَ يَجُوبُ طُرُقــاتِ الجَزِيرَةِ طُولًا وعَرْضًا، وهُوَ لا يَعْرِفُ ماذا يَفْعَلُ بِهِ. مَرَّ عَلَى حَيَواناتٍ كَثِيرَةٍ، فكانَتْ تُشِيرُ إِلَيْهِ وتَتَصايَحُ ساخِرَةً مِنْهُ.. نَصَحَتْهُ الأَشْجارُ كَثِيرًا بِأَنْ يُلْقِيَهُ فِي أَيِّ مَكانٍ ويَسْتَرِيحَ مِنْهُ. لَكِنَّهُ رَفَضَ، وظَلَّ عَلَى حالِهِ حَتَّى تَعِبَ جَسَدُهُ، فَجَلَسَ يَسْتَرِيحُ.

مَرَّ مِنْ أَمامِهِ غُرابَانِ يَقْتَتِلانِ فِي الهَواءِ.. أَوْقَــعَ أَحَدُهُمَا الآخَرَ أَرْضًا.. هَبَطَ إِلَيْهِ.. ظَلَّ يَنْقُرُ فِيهِ حَتَّى خَمَدَ جَسَدُهُ وأَصْبَحَ ساكِنًا مِثْلَ جَسَدِ الغَزالَةِ. قالَ عَقْلُ الفَتَى لَهُ:

- لَقَدْ رَحَلَ الغُرابُ الَّذِي كانَ يَسْكُنُ هَذا الجَسَدَ كَما رَحَلَتْ أُمُّكَ.

عَلَّقَتْ نَفْسُهُ وقالَتْ:

- فَلْتَنْظُرْ لِتَرَى مَاذا سَيَفْعَلُ الغُرابُ فِي جَسَدِ أَخِيهِ.

حَفَــرَ الغُرابُ فِي الأَرْضِ حُفْرَةً كَبِيرَةً، وسَــحَبَ جُثَّةَ أَخِيــهِ وَوَضَعَهَا فِي الحُفْرَةِ، وغَطَّاهَا بالتُّرابِ.

قَرَّرَ الْفَتَى أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ ما فَعَلَ الغُرابُ، وحَمَلَ الجَسَـدَ الَّذِي كانَتْ تَسْـكُنُهُ أُمُّهُ ورَاحَ بِهِ إِلَى شَاطِئِ المُحِيطِ، سارَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى نَخْلَةِ البَلَحِ، وفِي المَكانِ الَّذِي كانَتْ أُمُّهُ تُحِبُّ أَنْ تَجْلِسَ فِيهِ.. حَفَرَ حُفْرَةً كَبِيرَةً ووَضَعَ الجَسَدَ فِيهَا وغَطَّاهُ بالتُّرابِ. تَرَكَهُ وسَارَ وَحِيدًا عائِدًا إِلَى كَهْفِهِ، تُرَبِّتُ أَوْراقُ الشَّجَرِ عَلَى وَجْهِه، وتَقُولُ لَهُ:

- لا تَحْزَنْ فَكُلُّ الأَحْياءِ تَمُوتُ.

ظَـلَّ الفَتَى عَلَى حالِهِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى كَهْفِهِ، صَعِدَ إِلَيْهِ وفِي تَثاقُلٍ جَلَسَ. راحَ يَتَذَكَّرُ كُلَّ أَيَّامِـهِ المَاضِيَةِ مَعَ أُمِّهِ الَّتِي رَحَلَتْ ولا يَعْـرِفُ إِلَى أَيْنَ، أَتاهُ صَوْتُ أُمِّهِ يُذَكِّرُهُ بِأَنَّهُ مِنْ فَصِيلَةٍ أَفْضَلَ مِنْ كُلِّ الفَصائِلِ الَّتِي هُنَا. أَمْسَكَ بِعَصاهُ الكَبِيرَةِ يَسْتَمِدُّ مِنْهَا القُوَّةَ. ضَمَّهَا إِلَى صَدْرِهِ وتَمَدَّدَ لِيَنامَ.

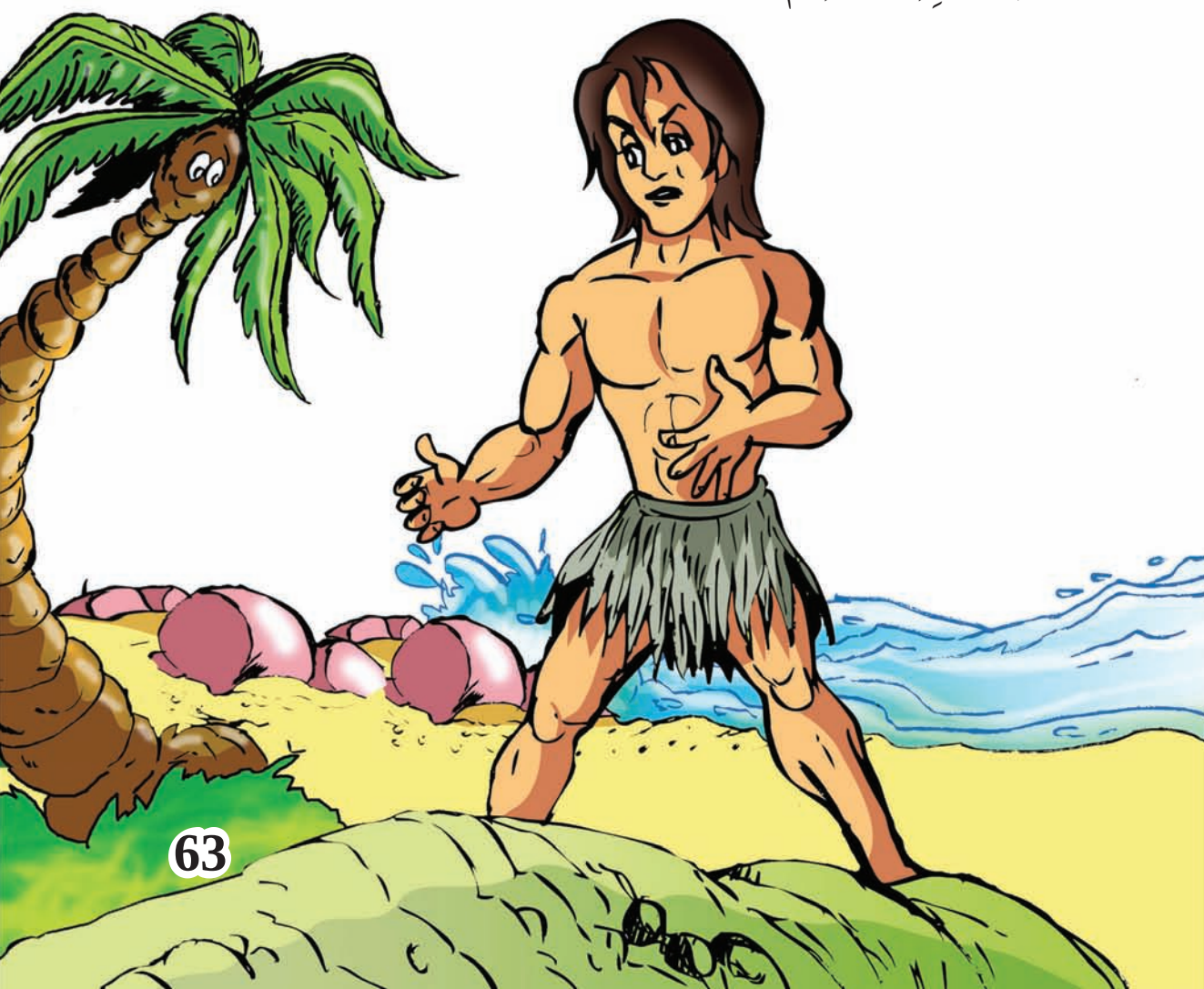

16

حِينَ تَسَـلَّلَ ضَوْءُ الشَّـمْسِ إِلَى الكَهْفِ، صَحَا الفَتَى عَلَى أَوَّلِ يَـوْمٍ لَهُ فِي الجَزِيرَةِ وقَـدْ صارَ وَحِيـدًا.. لَيْسَ غَيْرَ عَصـاهُ الطَّوِيلَةِ القَوِيَّةِ ذاتِ السِّـنِّ الْمُدَبَّبَةِ، يُمْسِـكُ بِهَا بِيَدِهِ، هَبَطَ إِلَى مَمَرَّاتِ الجَزِيرَةِ وهُوَ يُفَكِّرُ فِي أُمِّهِ الَّتِي رَحَلَتْ ولا يَعْرِفُ إِلَى أَيْنَ، يَتَذَكَّرُ كُلَّ ما فَعَلَتْهُ مَعَهُ، كَيْفَ أَرْضَعَتْهُ.. وكَيْفَ عَلَّمَتْهُ حَتَّى كَبِرَ.. وكَيْفَ كانَتْ تَحْنُو عَلَيْهِ.

تَذَكَّـرَ قَوْلَهَا لَهُ بِأَنَّهُ مِنْ فَصِيلَـةٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنْ كُلِّ الفَصائِلِ الَّتِـي حَوْلَهُ، راحَ عَقْلُهُ يَتَساءَلُ: وأَيْنَ بَقِيَّةُ فَصِيلَتِهِ؟ ولِمَاذا تَرَكُوهُ وَحِيدًا بَيْنَ فَصائِلَ غَرِيبَةٍ عَنْهُ؟

لَمْ يَشْـعُرِ الفَتَى بالسُّحُبِ السَّـوْداءِ وهِيَ تَتَجَمَّعُ فَوْقَ الجَزِيرَةِ.. وتَحْجُبُ ضَوْءَ الشَّـمْسِ، حَتَّى كادَتِ الدُّنْيا تُظْلِمُ مِنْ حَوْلِهِ. وفِي الوَقْتِ الَّذِي قَرَّرَ فِيهِ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ فَصِيلَتِـهِ أَوْ أَيِّ واحِدٍ مِنْهَا، فَلَيْسَ مِنَ المَعْقُولِ أَنْ يَأْتِـيَ إِلَى هُنا دُونَ أَنْ يُحْضِرَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، دَوَّى الرَّعْدُ فِي السَّماءِ.. وانْطَلَقَ مِنَ السَّحابِ ضَوْءٌ فِضِّيٌّ بَرَّاقٌ أَخَذَ طَرِيقَهُ إِلَى الأَرْضِ، وسَقَطَ فَوْقَ الشَّجَرَةِ الخَضْراءِ الَّتِي فِي وَسَطِ السَّهْلِ الواسِـعِ أَمَامَ كَهْفِ الفَتَى، أَضَاءَ الجَزِيرَةَ لَحَظاتٍ وأَشْعَلَ النَّارَ فِي الشَّجَرَةِ ثُمَّ اخْتَفَى.

ارْتَعَدَ الفَتَى وَوَقَعَ عَـلَى الأَرْضِ.. انْجَذَبَتْ عَيْنَاهُ إِلَى لَهِيـبِ النَّارِ المُتَصاعِـدِ مِنَ الأَفْرُعِ الخَضْراءِ، جاهَدَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى قَدَمَيْهِ. أَمْسَـكَ بِعَصاهُ القَوِيَّـةِ وتَقَدَّمَ نَحْوَ الشَّجَرَةِ فِي حَذَرٍ وخَوْفٍ.

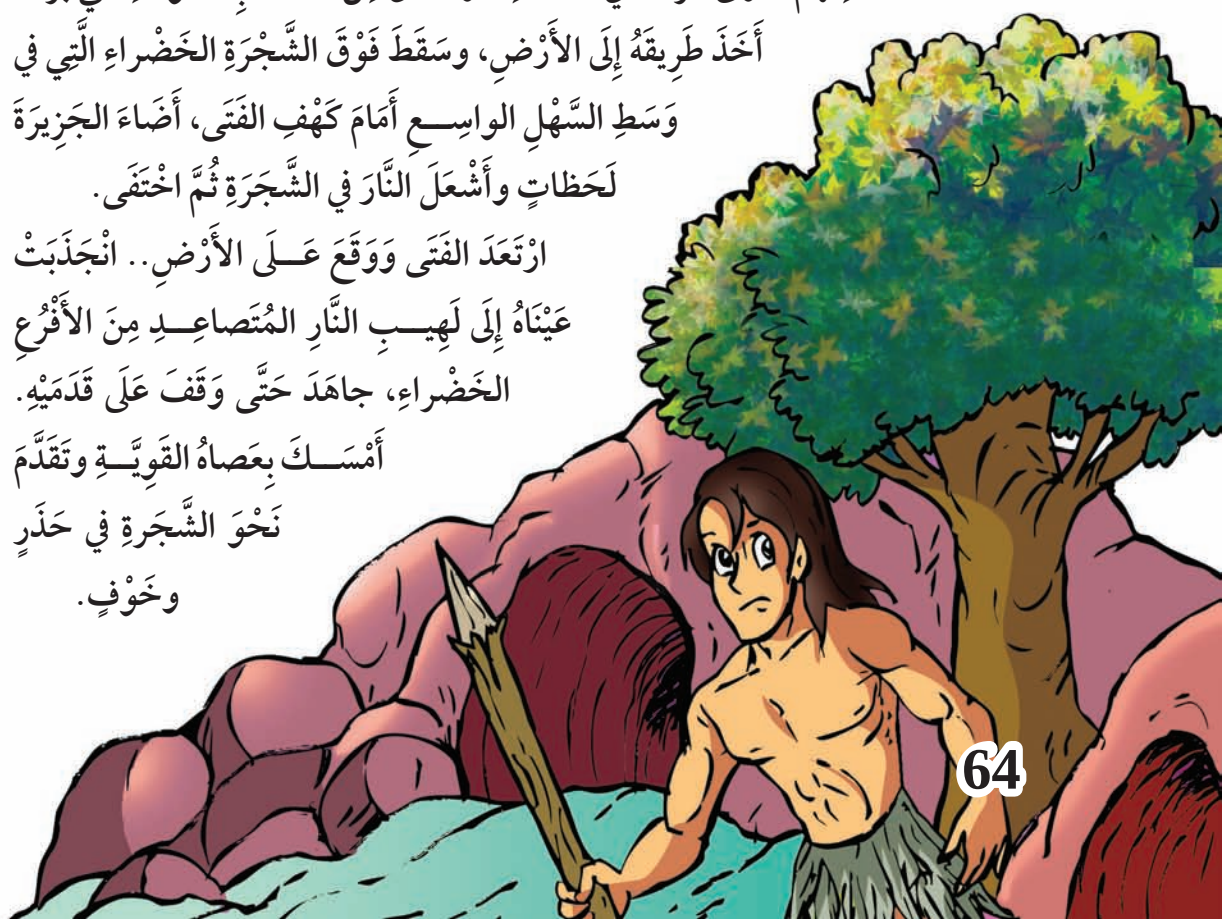

حِينَ اقْتَرَبَ مِنَ الشَّجَرَةِ المُشْتَعِلَةِ، شَعَرَ بالدِّفْءِ، وَقَفَ يَتَأَمَّلُ اللَّهَبَ وهُوَ يُمْسِكُ بالأَفْرُعِ ويَمْتَــدُّ راقِصًا إِلَى أَعْلَى.. كانَتْ يَدُهُ قابِضَةً عَلَى العَصَا اسْــتِعْدادًا للدِّفاعِ عَنْ نَفْسِهِ فِي أَيَّةِ لَحْظَةٍ. طَوَّحَ العَصَا وضَرَبَ بِها اللَّهَبَ فَاخْتَرَقَتْهُ ، قالَ لَهُ عَقْلُهُ:

- هَذِه لا تَنْفَعُ مَعَها العَصَا.

وحِينَ زَادَ دِفْءُ جَسَدِهِ بِقُرْبِهِ مِنَ النَّارِ.. قالَ لَهُ عَقْلُهُ:

- خُذْ لِنَفْسِكَ جُزءًا مِنْهَا.

ظَلَّ الفَتَى مُتَرَدِّدًا حَتَّى وَقَعَ أَحَدُ الفُرُوعِ مُشْــتَعِلًا أَمامَهُ. مَدَّ يَدَهُ لِيُمْسِكَ بِهِ، فَلَسَعَتْهُ النِّيرَانُ وكادَتْ تَحْرِقُ يَدَهُ. قالَ عَقْلُهُ مُحَذِّرًا لَهُ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنِ الجُزْءِ الَّذِي آلَمَ يَدَهُ.

نَظَــرَ الفَتَى إِلَى الفَرْعِ المُشْــتَعِلِ، رَأَى جُزْءًا مِنْهُ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ النِّيرانُ، أَمْسَــكَهُ مِنْهُ وأَسْرَعَ بِهِ إِلَى كَهْفِهِ. رَآه زَوْجُ الخَيْلِ الأَبْيَضِ، فَقالَ الزَّوْجُ لِزَوْجَتِهِ:

- الآنَ صارَ الفَتَى قَوِيًّا، وقَدْ سَيْطَرَ عَلَى النَّارِ وامْتَلَكَ قُوَّتَهَا.

رَدَّتِ الزَّوْجَةُ وقالَتْ:

- نَنْتَظِرُ حَتَّى نَراهُ وقَدْ سَيْطَرَ عَلَيْهَا بِعَقْلِهِ ورَوَّضَهَا لِمَصْلَحَتِهِ.

تابَــعَ زَوْجُ الخَيْلِ الفَتَى بِأَعْيُنِهِمَا وهُوَ يَحْمِلُ فِي يَدِهِ شُــعْلَةَ النَّارِ حَتَّى دَخَلَ كَهْفَهُ، وانْصَرَفَا.

أَضاءَتِ النِّيرانُ الكَهْفَ، وجَعَلَتْهُ دافِئًا، قالَ عَقْلُ الفَتَى:

- أَظُنُّ أَنَّ هَذِه مِثْلَ الَّتِي تُضِيءُ النَّهارَ.

تَراقَصَ اللَّهَبُ وقالَ لِلْفَتَى:

- أَنا لَسْتُ مِثْلَ الشَّمْسِ، أَنَا قَبَسٌ مِنَ النَّارِ، آكُلُ ما أَلْقَاهُ.

سَأَلَ الفَتَى وقالَ:

- هَلْ تَقْدِرُ عَلَى العَيْشِ مَعِي، أَمْ سَتَتْرُكُنِي مِثْلَ أُمِّي الَّتِي رَحَلَتْ؟

رَدَّ اللَّهَبُ وقالَ:

- إذا وَفَّرْتَ لي طَعَامِي فَستَجِدُنِي .. وإنْ لَمْ أَجِدْ شَيْئًا آكُلُهُ.. رَحَلْتُ.

أَسْــرَعَ الفتَى وأَطْعَمَ النَّارَ بالحَطَبِ، فَزادَ لَهِيبُهَا وارْتَفَعَ. أَسْرَعَ وجَمَعَ الكَثِيرَ مِنْ أَفْرُعِ الشَّجَرِ المُتَساقِطَةِ ونَقَلَها إلَى كَهْفِهِ. جَلَسَ أَمامَ النَّارِ يُغَذِّيهَا بِالحَطَبِ وهِيَ تُمْسِكُ بِمَا تَطُولُهُ وتُشْــعِلُهُ ويَرْتَفِعُ لَهِيبُهَا عالِيًا،وظَلَّ يُغَذِّيهَا حَتَّى يَظَلَّ لَهِيبُهَا صاعِدًا. وحِينَ جاءَ اللَّيْلُ، صارَتِ النِّيرانُ أَنِيسًا لَهُ.. أَضاءَتْ كَهْفَهُ وأَعْطَتْهُ الدِّفْءَ.. قالَتْ لَهُ نَفْسُهُ:

- هَذا الدِّفْءُ يُذَكِّرُنِي بِدِفْءِ حِضْنِ الأُمِّ الَّتِي أَرْضَعْتَنِي.

عَلَّقَ عَقْلُهُ وقالَ:

- في الصَّباحِ لا بُدَّ أَنْ أَبْحَثَ عَنْ أُمِّي الَّتِي وَلَدَتْنِي .

وقَبْــلَ أَنْ يَنامَ.. أَعْطَى النَّارَ جِذْعَ شَــجَرَةٍ كَبِيرًا.. يَكْفِــي لِطَعَامِهَا حَتَّى يَصْحُوَ..

وتَمَدَّدَ بالْقُرْبِ مِنْهَا واسْتَسْلَمَ لِلنَّوْمِ.

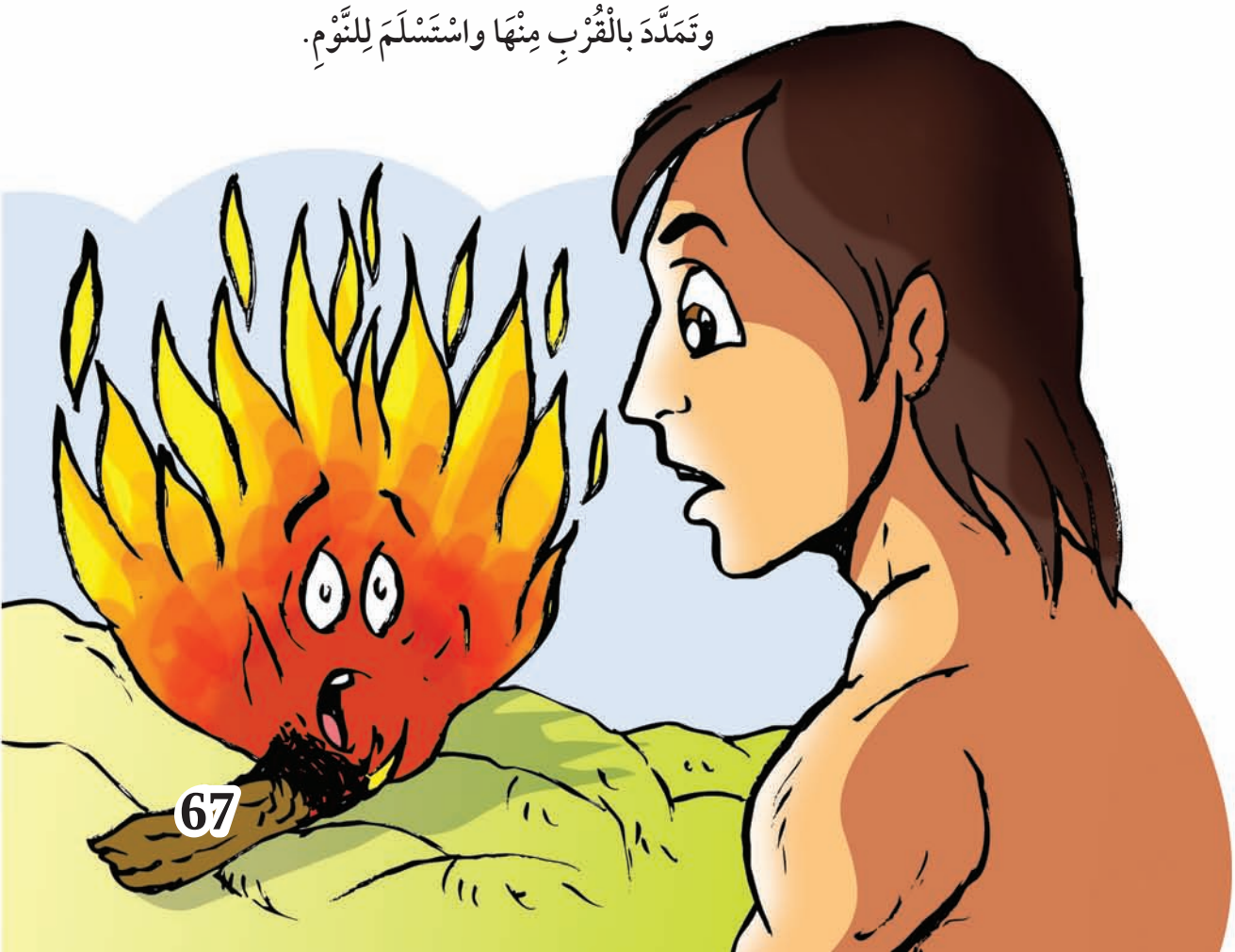

12

ظَلَّتِ النِّيرانُ تَلْتَهِمُ جِذْعَ الشَّـــجَرَةِ طَوالَ اللَّيْلِ، وَحِينَ جَاءَ الصَّباحُ وَصَحا الفَتَى، وَجَدَ مِنَ الجِذْعِ بَقِيَّةً، فَأَسْـــرَعَ وَأَحْضَرَ لَها حَطَبًا جَديدًا حَتَّى تَجِدَ ما تَأْكُلُهُ فَلَا تَرْحَلَ مِثْلَ أُمِّه. وَبَعْدَ أَنِ اطْمَأَنَّ إِلى أَنَّ طَعَامَ النَّارِ يَكْفِيهَا، راحَ يَبْحَثُ عَنْ فَصيلَتِه.

أَمْسَـــكَ الفَتى حَرْبَتَه الخَشَبِيَّةَ ذَاتَ السِّـــنِّ المُدَبَّبَةِ في يَدِه، وراحَ يَمْشِي في مَمَرَّاتِ الجَزيرَةِ يَتَفَحَّصُ وُجُوهَ كُلِّ مَنْ يُقابِلُه أَوْ يَسْمَعُ صَوْتَه. بَحَثَ تَحْتَ الخَمائِلِ الشَّجَرِيَّةِ رُبَّما يَجِدُ مَنْ يَعِيشُ تَحْتَها كَما كانَ يَعِيشُ هُوَ.

كانَ الفَتَى يَأْمُلُ أَنْ يَجِدَ واحِدًا مِنْ جِنْسِهِ.. لَمْ يُقابِلْهُ سِوى قُطْعَانِ الحيَواناتِ الَّتِي تَرْعَى في السُّـــهولِ الخَضْراءِ أَوِ الَّتِي تَلْهُو مَعَ بَعْضِها.. وَأَسْـــرابِ الطُّيورِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ أَعْشاشِـــها مُشَقْشِـــقَةً أَو تَعُود، كُلُّهم يَهْرُبُون مِنْه حِينَ يَرَوْنَه والحَرْبَةُ الخَشَبِيَّةُ في يَدِهِ، يَسْـــمَعُهُمْ وهُمْ يُنَبِّهُونَ بَعْضَهُمْ لِوُجُودِه قَرِيبًا، فَيَبْتَعِدُونَ عَنْ طَرِيقِه، أَوْ يُحَذِّرُونَ أَبْناءَهُم مِنَ الاقْتِرابِ مِنْ طَرِيقِه.

تَعِبَ جَسَدُ الفَتَى مِن طُولِ لَفٍّ ودَوَرانٍ في مَمَرَّاتِ الجَزيرَةِ، ولَمْ يَجِدْ أَبَدًا أَيَّ فَصِيلٍ يَسِيرُ عَلَى ساقَيْهِ الخَلْفِيَّتَيْنِ مِثْلَما يَسِيرُ، قادَتْهُ قَدَماهُ إِلَى شَاطِئِ المُحِيطِ، جَلَسَ بِجِوارِ جِذْعِ نَخْلَةِ البَلَحِ العالِيَةِ، أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَيهِ، أَدْرَكَ أَنَّهُ صارَ وَحِيدًا بَعْدَ أَنْ فارَقَتْهُ أُمُّه الَّتِي أَرْضَعَتْهُ، تَسَلَّلَ الحُزْنُ إِلَى قَلْبِه وعَقْلِه، رَغْمًا عَنْهُ انْسابَتْ دُموعُه مِنْ عَيْنَيهِ وسالَتْ عَلَى خَدَّيْهِ. فَتَرَكَها تَغْسِلُ حُزْنَه.

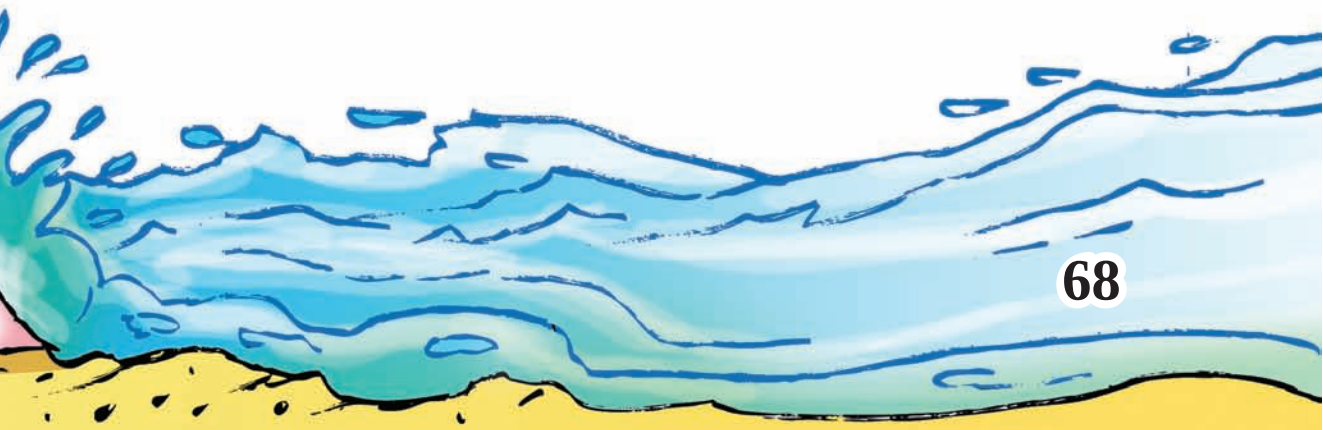

غَضِبَ المُحِيطُ لدُمُوعِ الفَتَى الَّذِي يَبْحثُ عَنْ شَبِيهٍ لَهُ بَعْدَ أَنْ فَقَدَ أُمَّه الَّتِي أَرْضَعَتْه. يَعْرِفُ أَنَّهُ لَنْ يَجِدَ لَهُ شَـبِيهًا فَهُوَ كَمَا قالَتْ لَهُ أُمُّه مِنْ فَصِيلَةٍ مُخْتلِفةٍ عَنْ كُلِّ الفَصائِلِ الَّتِي تَعِيشُ عَلَى الجَزِيرَةِ. لقَدْ كانَ شـاهِدًا عَلَى هُروبِ رُكَّابِ المَرْكَبِ الخَشَـبِيِّ مِنَ الجَزِيرَةِ مُنْذُ سَنَواتٍ، ونِسْيانِهِم لَهُ رَضِيعًا وَحِيدًا تَحْتَ خَمِيلَةٍ شَجَرِيَّة.

في ذَلِكَ اليَوْمِ البَعِيدِ، غَضِبَ المُحِيطُ مِن رُكَّابِ مَرْكَبِ البَحْرِ الَّذِينَ نَسُوا الرَّضِيعَ تَحْتَ الخَمِيلَةِ واتَّهَمُوه بأَنَّهُ ابْتَلَعَــهُ، أَرادَ أَنْ يَثُورَ ويَقْلِبَ بِهِمْ مَرْكَبَهُم انْتِقامًا لِكَرامَتِهِ ولِذَلِكَ الرَّضِيعِ الَّذِي نَسُــوهُ ، لَكِنَّهُ تَذَكَّرَ أَنَّ اللهَ ـ سُــبحانَهُ وتَعالَى ـ قَدْ خَلَقَهُ لِيَرْكَبُوا سَــطْحَهُ ويَنْتَفِعُوا بِخَيْراتِه، فَهَدَأَ وقَرَّرَ أَنْ يُقَدِّمَ شَــيْئًا للفَتَى الَّذِي لا يَعْرِفُ شَيئًا، لكِنَّهُ يُحاوِلُ أَنْ يَعْرِفَ.

أَمَرَ المُحِيطُ أَمْواجَهُ بأَنْ تُعْطِيَ الفَتَى شَيئًا مِنَ المَخْلُوقاتِ الَّتِي تَعِيشُ فِيهِ، ارْتَفَعَتِ الأَمْواجُ عالِيًا وقَذَفَتْ بأَطْرافِهَا ناحِيَةَ الفَتَى، وَقَفَ يَتَلَقَّى رَذاذَها عَلَى وَجْهِه وجَسَــدِه كُلِّه، شَــعَرَ بِهَا تُرَطِّبُه، غَسَلَتْ دُمُوعَهُ وأَنْسَتْهُ ما تَسَــلَّلَ إِلَى قَلْبِهِ مِنْ حُزنٍ. فَرَدَ ذِراعَيْهِ في الهَواءِ ورَاحَ يَقْفِزُ ضاحِكًا حتَّى اصْطَدَمَ بِهِ شَــيْءٌ أَوْقَعَهُ عَلَى الأَرْضِ. وحِينَ قامَ.. كانَتْ أَمْواجُ البَحْرِ قَدْ هَدَأَتْ وَوَجَدَ عَلَى الأَرْضِ سَمَكَةً عَظِيمَةً تَتَقافَزُ في مُحاوَلَةٍ مِنْها أَنْ تَعُودَ إِلَى المَاءِ. أَدْرَكَ أَنَّه جائِعٌ.. نَظَرَ إِلَى ماءِ المُحِيطِ شاكِرًا..قالتْ لَهُ نَفْسُه:

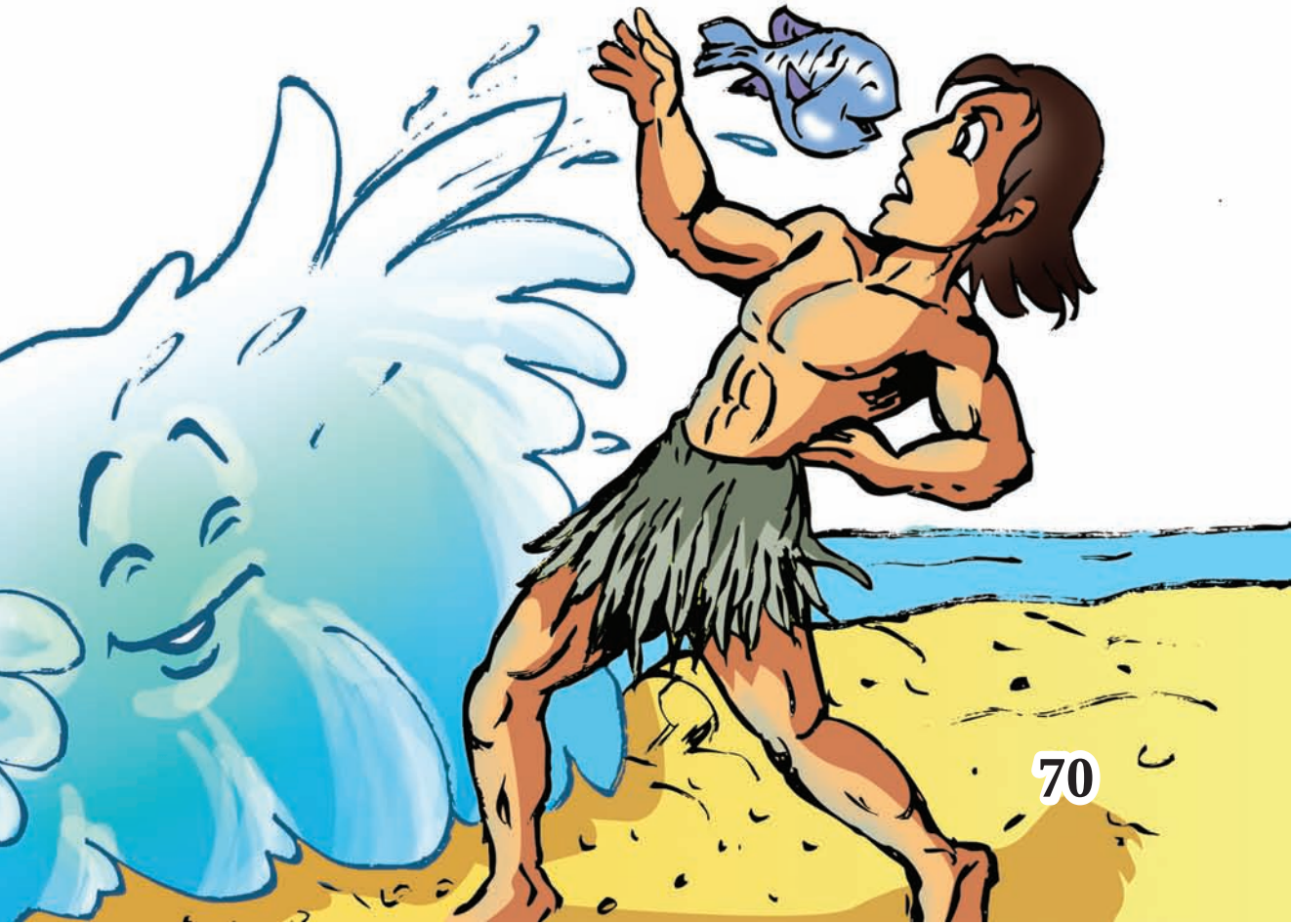

- قَدْ جَرَّبْــتَ قُوَّةَ النَّارِ عَــلَى مَخْلُوقاتِ الأَرْضِ، جَرِّبْهَا عَلَى مَخْلُوقاتِ البَحْرِ.. وفي الغَدِ واصِلِ البَحْثَ عَنْ شَبِيهٍ لَكَ في مَكانٍ آخَرَ.

أَخَذَ الفَتَى السَّــمَكَةَ وعادَ بِهَــا إِلَى كَهْفِه، وفي الطَّرِيقِ كانَتِ السَّمَكَةُ تُحاوِلُ التَّخَلُّصَ مِنْ قَبْضَةِ يَدِهِ.. ولَكِنَّ حَرَكَةَ جَسَدِها بَدَأَتْ تَقِــلُّ تَدْرِيجِيًّا حَتَّى هَمَدَتْ تَمامًا، فأَدْرَكَ أَنَّ السَّمَكَةَ الَّتِي كانَتْ تَسْكُنُ الجَسَدَ الَّذِي يَحْمِلُه.. قَدْ رَحَلَتْ بَعِيدًا. وواصَلَ طَرِيقَه.

حِينَ دخَلَ الكَهْفَ، وَضَعَ جَسَدَ السَّمَكَةِ عَلَى النَّارِ، خَرَجَتْ رائِحَةُ الشِّواءِ إِلَى أَنْفِه فَأَعْجَبَتْــهُ. أَحْضَرَ فَرْعًا جافًّا وأَخَذَها مِنَ النَّارِ قَبْلَ أَنْ تَأْكُلَها.. وجَرَّبَ أَنْ يَأْكُلَها هُوَ. لَسَعَتْهُ حَرارَتُها فانْتَظَرَ قَلِيلًا حَتَّى بَرَدَتْ وقَضَمَ مِنْها مِلْءَ فَمِهِ، شَعَرَ بِطَعْمٍ رائِعٍ يَذُوقُه لأَوَّلِ مَرَّةٍ، فَراحَ يَلْتَهِمُهَا في نَهَمٍ.

حِينَ انْتَهَى الفَتَى مِنْ أَكْلِ السَّمَكَةِ، شَعَرَ بالشِّبَعِ.. تَراخَى جَسَدُه وأَرادَ النَّوْمَ.. أَتاهُ صَوْتُ لَهِيبِ النَّارِ واهِنًا يَطْلُبُ الطَّعامَ.. نَظَرَ حَوْلَهُ فَلَمْ يَجِدْ أَفْرُعًا يُناوِلُها لَهُ. أَسْــرَعَ هابِطًا الرَّبْوَةَ إِلَى الوَادِي الأَخْضَرِ الَّذِي أَمامَها.. اخْتَفَى قَلِيلًا وَسَطَ الأَشْجارِ. عادَ وهُوَ يَحْمِــلُ حُزْمَةً كَبِيرَةً مِنَ الفُرُوعِ الجافَّةِ، صَعِدَ إِلَى كَهْفِه.. أَطْعَمَ النَّارَ.. وتَمَدَّدَ بالقُرْبِ مِنْها، وفي لَحَظاتٍ كانَ قَدْ نامَ.

18

في الصَّباحِ.. قَرَّرَ الفَتَى أَنْ يُواصِلَ بَحْثَهُ عَنْ شَبِيهٍ لَهُ في الجَزِيرَةِ، رَفَضَتْ نَفْسُه أَنْ تُطاوِعَهُ وأَعْلَنَتْ أَنَّها تَتُوقُ إِلَى طَعامِ البَحْرِ.. وافَقَ عَقْلُه عَلَى رَغْبَةِ نَفْسِهِ وقالَ:

- نَأْكُلُ أَوَّلًا ثُمَّ نَذْهَبُ لِلبَحْثِ.

هَمَّ الفَتَى بالنُّزُولِ مِنْ كَهْفِه.. ذَكَّرَهُ عَقْلُهُ بِطَعامِ النَّارِ، نَظَرَ إِلَيْهَا فَتَأَكَّدَ أَنَّ عِنْدَها طعامًا يَكْفِيهَا حتَّى يَعُودَ، خَرَجَ مِنْ كَهْفِه، وذَهَبَ ناحِيَةَ المُحِيطِ وهُوَ يَأْمُلُ أَنْ تَقْذِفَ لَهُ الأَمْواجُ بواحِدَةٍ أُخْرَى مِنْ مَخْلُوقاتِ البَحْرِ.

حِينَ وَصَلَ وَجَدَ سَطْحَ الماءِ هادِئًا لا مَوْجَ فِيهِ. وَقَفَ يَتَأَمَّلُهُ.. احْتارَ عَقْلُهُ وراحَ يَتَساءَلُ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي يَجْعَلُهُ يَثُورُ وتَعْلُو أَمْواجُه وتَعْدُو خَلْفَ بَعْضِها، قالَتْ لَهُ نَفْسُه:

- في الثَّوْرَةِ خَيْرٌ أَحْيانًا.

قالَتْ نَفْسُ الفَتَى هَذا الكَلامَ وصَمَتَتْ قَلِيلًا، ثُمَّ قالَتْ مُؤَكِّدَةً:

- لَوْلَا ثَوْرَتُه ما عَرَفْتَ طَعْمَ ما بِهِ مِنْ مَخْلُوقاتٍ.

وَقَفَ الفَتَى فِي انْتِظــارِ أَنْ يَقْذِفَ لَهُ البَحْرُ بواحِدَةٍ مِن مَخْلُوقَاتِه كَما فَعَلَ بالأَمْسِ، قالَ لَهُ عَقْلُهُ:

- حِينَ تُرِيدُ شَيْئًا.. عَلَيْكَ أَنْ تَسْعَى لِتُحْضِرَهُ.

عَرَفَ الفَتَى أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْــعَى للإمْساكِ بِمَخْلُوقاتِ البَحْرِ بِنَفْسِه، ولا يَنْتَظِرَ حَتَّى يَقْذِفَ بِهَا أَحَدٌ إِلَيْه، إِذَنْ لا بُدَّ أَنْ يَنْزِلَ إِلَى الماءِ ويَبْحَثَ عَنْهُ بِنَفْسِهِ.

احْتَارَتْ نَفْسُهُ فِيمَا يَقُولُ عَقْلُه.. كَيْفَ سَيَعْرِفُ مَكانَ هَذِهِ المَخْلُوقاتِ فِي كُلِّ هَذَا الماءِ الواسِعِ؟! وإذا عَرَفَ أَيْنَ هِيَ.. كَيْفَ سَيُمْسِكُ بواحِدَةٍ مِنْهَا بِيَدَيْهِ وهِيَ فِي الماءِ، وقَدْ كانَتْ سَتَتَغَلَّبُ عَلَيْه وتَهْرُبُ مِنْهُ وهُوَ مُمْسِكٌ بِهَا عَلَى الأَرْضِ؟!

رَدَّ عَقْلُه عَلَيْها وقَالَ لهَا:

- فِي كُلِّ قُــوَّةٍ أَماكِنُ ضَعْفٍ، أَلَمْ تَرَيْ كَيْفَ حَمَلَ النَّارَ إِلَى كَهْفِه وهِيَ الَّتِي تَحْرِقُ ما تُمْسِكُ بِهِ؟

جَلَسَ الفَتَى بِجِوَارِ جِذْعِ النَّخْلَةِ.. راحَ يُفَكِّرُ كَيْفَ يُمْسِكُ بِمَخْلُوقاتِ البَحْرِ وهِيَ فِي المَاءِ، وأَخِيرًا قالَ لَهُ عَقْلُه:

- لِكَيْ تُمْسِكَ بِشَيْءٍ لا بُدَّ أَنْ تُقَيِّدَ حُرِّيَّتَهُ أَوَّلًا.

هَبَّ واقِفًا. أَسْرَعَ يَبْحَثُ عَنْ شَـجَرَةٍ ذاتِ أَفْرُعٍ طَوِيلَةٍ ورَفِيعَةٍ حَتَّى وَجَدَها، أَخَذَ مِنْها مَجْمُوعَةً مِنَ الأَفْـرُعِ. عادَ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ..جَلَسَ يَنْسِـجُ الأَفْرُعَ ويَصْنَعُ مِنْها وِعاءً يُشْـبِهُ القَفَصَ، مَفْتُوحًا مِنْ جِهَةٍ واحِدَةٍ. وحِينَ انْتَهَى مِن صُنْعِه وَضَعَهُ فِي المَاءِ وجَلَسَ يَنْتَظِرُ، قالَ لَهُ عَقْلُه:

- مِنَ الخَيْرِ أَلَّا تُضَيِّعَ الوَقْتَ في الانْتِظارِ، وأَرَى أَنْ تَسْـتَغِلَّهُ في البَحْثِ عَنْ شَـبِيهِكَ الَّذِي تَتَمَنَّاهُ.

صاحَتِ النَّفْسُ ثائِرَةً رافِضَةً ما قالَهُ العَقْلُ، وقالَتْ:

- أَنا جَائِعَةٌ وأَتُوقُ إِلَى طَعامِ البَحْرِ.

تَغَلَّـبَ الفَتَى عَلَى رَغْبَةِ نَفْسِـه وأَطاعَ عَقْلَهُ.. تَرَكَ القَفَصَ في المَاءِ وراحَ يَسِـيرُ في مَمَرَّاتِ الجَزِيرةِ باحِثًا عَنْ شَـبِيهٍ لَهُ، وكَمَا فَعَلَ في المَرَّةِ السَّابِقَهِ.. دَقَّقَ في كُلِّ الوُجُوهِ الَّتِـي قابَلَتْهُ، نَظَرَ تَحْتَ كُلِّ خَمِيلَةٍ.. صَعِدَ عِـدَّةَ رَوابٍ ودَخَلَ كُهُوفَها الَّتِي وَجَدَها، ولَمْ يَلْتَقِ بواحِدٍ شَبِيهٍ لَهُ أَبَدًا.

مَضَـــى أَغْلَبُ اليَوْمِ، ولَمْ يَجِدِ الفَتَى أَيَّ أَثَرٍ لأَيِّ مَخْلُوقٍ يُشْـــبِهُه ، أَعْلَنَتْ نَفْسُـــه غَضَبَها وقالَتْ ثائِرَةً:

- قَدْ أَضَعْتَ اليَوْمَ كُلَّهُ دُونَ فائِدَةٍ. تَذَكَّرْ ما قَالَتْهُ لَكَ الأُمُّ قَبْلَ أَنْ تَرْحَلَ.

رَدَّ العَقْلُ في هُدُوءٍ وقالَ:

- قالَتْ إِنَّهُ مِنْ فَصِيلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، ولَمْ تَقُلْ إِنَّهُ مِنْ فَصِيلَةٍ غَيْرِ مَوْجُودَةٍ.

لَمْ يَهْدَأْ عَقْلُ الفَتَى إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَقْنَعَ نَفْسَـــهُ بِأَنَّ هُناكَ أَماكِـــنَ كَثِيرَةً لَمْ يَبْحَثْ فِيهَا، وعَلَيْها أَنْ تُشَجِّعَهُ عَلَى البَحْثِ فَرُبَّما يَجِدُه فِيهَا.. ثُمَّ قالَ لِلْفَتَى:

- هَيَّا الآنَ لِنَعُدْ لِتَناوُلِ طَعامِنَا، ثُمَّ نُواصِلِ البَحْثَ في الأَيَّامِ المُقْبِلَةِ.

أَطـــاعَ الفَتَى عَقْلَه، وبَعْدَ قَلِيلٍ.. كانَ يَهْبِطُ إِلَى المَـــاءِ ويَرْفَعُ قَفَصَهُ عالِيًا، تَراقَصَتْ فِيهِ عِدَّةُ سَمَكاتٍ،قَذَفَ بِهَا إِلَى الأَرْضِ، وأَعادَ القَفَصَ إِلَى المَاءِ ثانِيَةً، وخَرَجَ لِيَحْمِلَ صَيْدَهُ وعادَ إِلَى كَهْفِه حَيْثُ النَّارُ تَنْتَظِرُ أَنْ يُطْعِمَها وتُطْعِمَهُ. وحِينَ جاءَ المَساءُ.. تَمَدَّدَ بالقُرْبِ مِنَ النَّارِ ونَامَ.

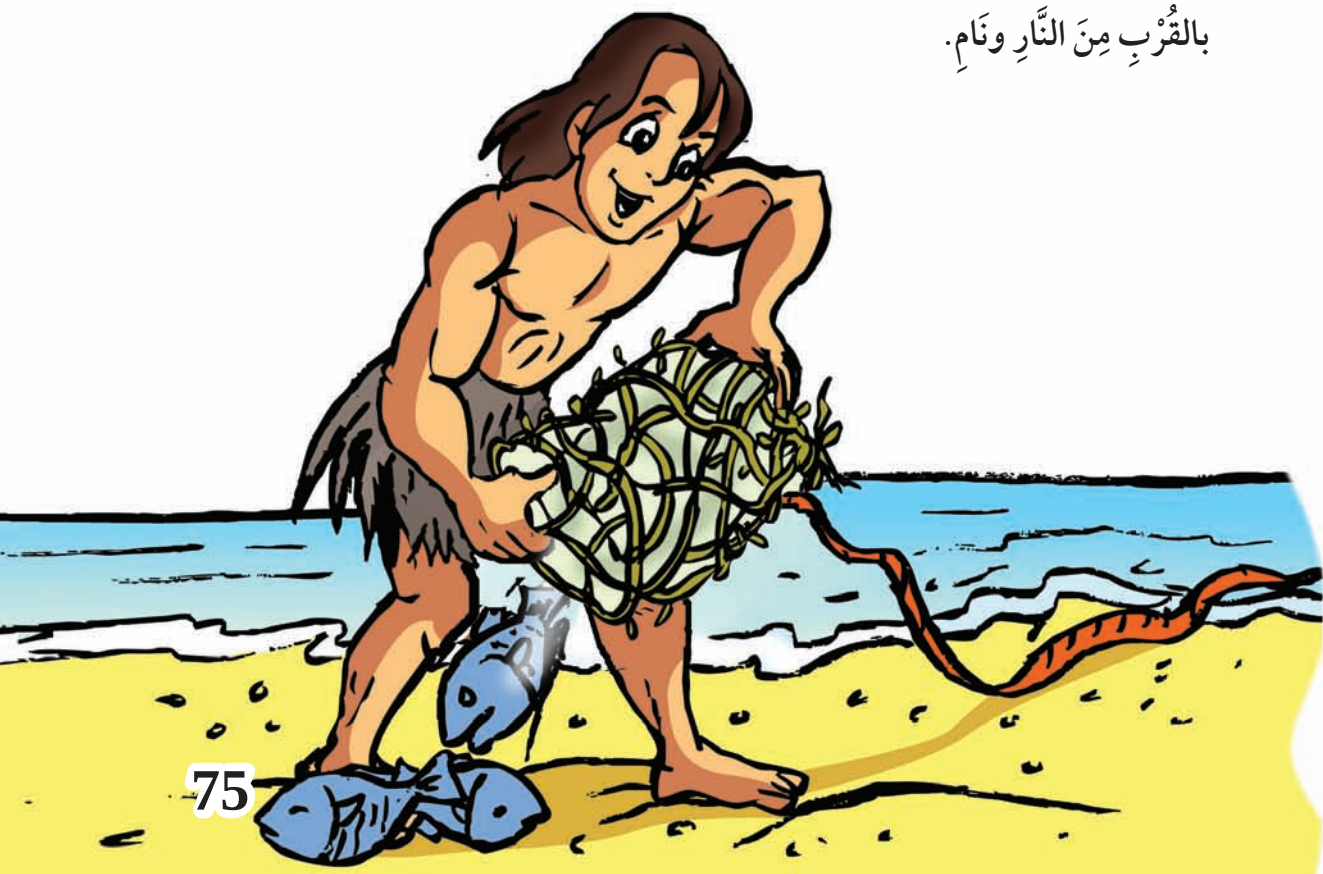

١٩

حِينَ صَحَا الفَتَــى، كانَتِ النَّارُ قَدْ أَكَلَتْ كُلَّ ما عِنْدَها مِــنْ حَطَبٍ فِي أَثْنَاءَ نَوْمِه، نَظَرَ حَوْلَه، لَمْ يَجِدْ ما يُقَدِّمُه لهَا، أَسْرَعَ بالنُّزُولِ مِنَ الكَهْفِ لِيَجْمَعَ لهَا الطَّعامَ.

لَمْ يَجِدْ حَطبًا جافًّا قَرِيبًا مِنَ الكَهْفِ، خافَ أَنْ يَتَوَغَّلَ فِي الجَزِيرَةِ فَتَخْمُدَ النَّارُ قَبْلَ عَوْدَتِه، وَقَفَ حائِرًا ماذا يَفْعَلُ.. قالَ لَهُ عَقْلُه:

ـ النَّارُ تَأْكُلُ الأَخْضَرَ والجَافَّ، هَلْ نَسِــيتَ أَنَّكَ حِينَ رَأَيْتَها أَوَّلَ مَرَّةٍ كانَتْ مُشْتَعِلَةً فِي شَجَرَةٍ خَضراءَ؟

تَذَكَّرَ الفَتَى الشَّجَرَةَ.. لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْها مُنْذُ رَآها مُشْتَعِلَةً، أَجَّلَ الذَّهابَ لِزِيارَتِها حَتَّى يُطْعِمَ النَّارَ أَوَّلًا.. أَخَذَ عِدَّةَ أَفْرُعٍ مِنَ الأَشْــجارِ الَّتِي حَوْلَهُ وأَسْرَعَ بِهَا إِلَى كَهْفِهِ.. أَعْطَى النَّارَ واحِدًا مِنْها.

تَغَلْغَلَــتْ أَلْسِــنَةُ اللَّهَبِ بَيْنَ الأَفْــرُعِ والأَوْراقِ، تَراقَصَتْ فَرَحًا بِطَعامِها، وراحَــتْ تَطْرُدُ ما يَحْتَوِيهِ

الفَرْعُ مِنْ ماءٍ اسْــتِعْدادًا لِتَناوُلِهِ، تَصاعَدَ مِنْهُ دُخانٌ أَبْيَضُ كَثِيفٌ.. انْتَشَــرَ في الكَهْفِ حتَّى عَبَّأَهُ، هَرْوَلَ الفَتَى خارِجًا حَتَّى لا يَخْتَنِقَ.

وَقَفَ الفَتَى أَسْــفَلَ الرَّبْوَةِ يُراقِبُ الدُّخانَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ فَتْحَتِهِ ويَتَصاعَدُ مُنْدَفِعًا صاعِــدًا إِلَى أَعْلَى. قَلِقَ عَلَى النَّارِ فَرُبَّما يَخْنُقُها الدُّخانُ مِثْلَمَا أَرادَ أَنْ يَخْنُقَهُ.. صاحَ فِيهِ مُتَوَسِّلًا وقالَ:

- أَرْجُوكَ.. لا تَخْنُقْهَا؛ فَقَدْ صارَتْ صَدِيقَتِي الوَحِيدَةَ.

كانَتِ الطُّيورُ الَّتِي تُعَشِّــشُ عَلَى الأَشْجارِ حَوْلَ الرَّبْوَةِ، أَوَّلَ مَنْ رَأَى عَمُودَ الدُّخانِ الصَّاعِدِ مِنْ فَتْحَةِ الكَهْفِ.. أَسْــرَعَ بَعْضُها يَسْتَطْلِعُ السَّــبَبَ، وأَسْرَعَ البَعْضُ الآخَرُ لِيُخْبِرَ كُلَّ أَهْلِ الجَزِيرَةِ مِنْ طُيورٍ وحَيَواناتٍ. حَتَّى وَصَلَ الأَمْرُ إِلَى الطَّرَفِ البَعِيدِ مِنَ الجَزِيرَةِ حَيْثُ يَعِيشُ زَوْجُ الخَيْلِ الأَبْيَضِ.

هَرْوَلَتْ كُلُّ حَيواناتِ الجَزِيرَةِ وطُيُورِها ناحِيَةَ الوادِي الأَخْضَرِ الواسِعِ أَمَامَ الرَّبْوَةِ؛ لِتُحاوِلَ أَنْ تَعْرِفَ ما هَذا الصَّاعِدُ مِنْهَا إِلَى السَّــماءِ. كانَ زَوْجُ الخَيْلِ الأَبْيَضِ هُوَ أَوَّلَ مَنْ وَصَلَ إِلَى هُناكَ وَوَقَفَ عِنْدَ بَقايا الشَّجرَةِ المُحْتَرِقَةِ.

دُونَ أَنْ يَشْعُرَ الفَتَى وَجَدَ نَفْسَهُ مُحاطًا بالحَيَواناتِ تَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْ بَيْنِ الأَشْجارِ، نَظَرَ إِلَى يَدَيْــهِ وَجَدَها خَالِيَةً مِنَ الحَرْبَةِ الَّتِي يَسْــتَمِدُّ مِنْهَا القُوَّةَ، فَكَّرَ في أَنْ يَهْرُبَ إِلَى كَهْفِهِ يَحْتَمِي بِهِ وبِهَا. تَذَكَّرَ الدُّخانَ الَّذِي طَرَدَهُ مِنَ الدَّاخِلِ مُنْذُ قَلِيلٍ، نَظَرَ إِلَيْهِ فَوَجَدَهُ قَدْ تَضاءَلَ.. اطْمَأَنَّ قَلِيلًا وأَسْرَعَ صاعِدًا الرَّبْوَةَ حَتَّى اخْتَفَى داخِلَ كَهْفِهِ.

اخْتَفَى قَلِيلًا.. ثُمَّ خَرَجَ وفي يَدِه اليُمْنَى حَرْبَتُهُ الكَبِيرَةُ، وفي اليُسْــرَى جُزْءٌ مُشْتَعِلٌ مِنْ فَرْعِ الشَّــجَرَةِ واللَّهَــبُ يَتَصاعَدُ مِنْهُ.. خَطا خُطْوَتَيْــنِ إِلَى الأَمامِ. تَوَقَّفَ. رَفَعَ يَدَيْهِ بالعَصَا وشُــعْلَةِ النَّارِ عالِيًا، هَزَّهُمَا في الهَواءِ مُحَذِّرًا، وهُوَ يَصِيحُ قائِلًا:

- مَاذا تُرِيدُونَ؟! ابْتَعِدُوا.

صَرَخَــتِ الحَيَواناتُ وهَرَبَتْ خَوْفًــا مِنْ حَرْبَةِ الفَتَى والنَّارِ اللَّتَيْــنِ يَحْمِلُهُمَــا في يَدَيْهِ،اخْتَفُوا جَمِيعًا بَيْنَ الأَشْــجارِ، وظَلَّ زَوْجُ الخَيْلِ الأَبْيَضِ واقِفًا في مَكانِه بجِوارِ بَقَايا الشَّــجَرَةِ المُحْتَرِقَةِ وَسَطَ الوادِي.

شَعَرَ الفَتَى بالزَّهْوِ .. دَخَلَ إِلَى كَهْفِه وأعادَ شُعْلَةَ النَّارِ إِلَى مَكانِها، ثُمَّ خَرَجَ وحَرْبَتُهُ في يَدِهِ، وَجَدَ زَوْجَ الخَيْلِ الأَبْيضِ ما زالَ واقِفًــا في مَكانِه. هَبَطَ الرَّبْوَةَ. تَوَجَّهَ ناحِيَتَهَ.

قالَتِ الزَّوْجَةُ لِزَوْجِهَا:

- الآنَ يَسْتَحِقُّ الفَتَى أَنْ يُصْبِحَ سَيِّدًا.

رَدَّ الزَّوْجُ قائِلًا:

- لا تُقَدِّمِي شَيْئًا لِمَنْ لا يَطْلُبُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُسْتَحِقًّا لَهُ.

قالَتِ الزَّوْجَةُ تُوَضِّحُ رَأْيَها:

- قَدِ اسْتَعادَ الفَتَى عَقْلَهُ البَشَرِيَّ، وبَدَأَ يَسْتَخْدِمُه.

أَمَــرَ الزَّوْجُ زَوْجَتَهُ أَنْ تَصْمُتَ فالفَتَى قادِمٌ ناحِيَتَهُمَــا، وقَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِما تَرَكاهُ وسارَا مُبْتَعِدَيْنِ عَنْهُ.

تابَعَهُمــا الفَتَى بِعَيْنَيْــهِ مُتَعَجِّبًا مِنْ حالِهِمَــا حَتَّى اخْتَفَيَا. عادَ بِنَظَرِهِ إِلَى الشَّــجَرَةِ المُحْتَرِقَةِ.. دُهِشَ حِينَ اكْتَشَفَ أَنَّها قَدْ أَنْبَتَتْ بَراعِمَ جَدِيدَةً تَنْظُرُ إِلَى أَعْلَى. قالَ:

- كُنْتُ ظَنَنْتُ أَنَّ الشَّــجَرَةَ الَّتِي تَسْكُنُ الجِذْعَ الخَشَــبِيَّ قَدْ رَحَلَتْ وتَرَكَتْهُ لِيَجِفَّ، لكِنَّها أَصَرَّتْ عَلَى الحَياةِ وأَنْبَتَتْ فُرُوعًا جَدِيدَةً!

عادَ إِلَى كَهْفِه وهُوَ يَتساءَلُ ويَقُولُ:

- ما الَّذِي في السَّــماءِ يَجْعَلُ كُلَّ الأَشْــياءِ تَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ؟!

20

جَلَسَ الفَتَى في كَهْفِه بالقُرْبِ مِنْ لَهِيبِ النَّارِ وهُوَ يَتراقَصُ في الهَواءِ، وعَقْلُهُ شـارِدٌ يَبْحَثُ عَنْ إجاباتٍ لِتَساؤُلاتِه:

- ما الَّذِي في السَّـماءِ يَجْعَلُ كُلَّ الأَشْـياءِ تَتَطَلَّعُ إلَيْه؟ ولِمَاذَا خَافَـتْ كُلُّ الطُّيُورِ والحَيَواناتِ مِنَ النَّارِ؟ هَلْ جَرَّبَتْهَا ولَسَـعَتْهَا كَما فَعَلَتْ مَعَـهُ؟ أَمْ هُوَ خَوْفٌ بِلا سَبَبٍ يَعْرِفُونَهُ؟

قَضَى الفَتَى يَوْمَهُ يُفَكِّرُ في أَحْداثِ اليَوْمِ، أَدْرَكَ أَنَّ الأَشْـياءَ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ تَعْرِفُ مَنْ هُوَ بالسَّماءِ وتَتَطَلَّعُ إلَيْهِ، وهُوَ أَيْضًا يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَهُ.. لَكِنْ، كَيْفَ يَعْرِفُه وهُوَ لا يَراهُ؟

قالَ لَهُ عَقْلُه:

- إذا عَرَفْتَ ما حَوْلَكَ.. عَرَفْتَ مَنْ هُوَ بالسَّماءِ.

عادَ الفَتَى للسُّؤَالِ وَقَالَ:

- وما حِكايَـةُ هَذَا الزَّوْجِ الأَبْيَضِ مِنَ الحَيَوانَاتِ الَّذِي لا يَخـافُ مِنِّي ويَبْتَعِدُ كُلَّمَا اقْتَرَبْتُ مِنْهُ؟ لِمَاذا يَخْتَلِفُ عَنِ الآخَرِينَ في شَكْلِه وحَجْمِه؟

أَجابَ عَقْلُه وقالَ لَهُ:

- لَنْ تَعْرِفَ إلَّا إذا اقْتَرَبْتَ مِنْهُ.

أَدْرَكَتْ نَفْسُ الفَتَى أَنَّ عَقْلَهُ سَيَقُودُه في رِحْلَةٍ جَدِيدَةٍ لِلْبَحْثِ عَنِ المَعْرِفَةِ، ولَوْ بَدَأَ فَسَيَنْسَى رَغَباتِها ولَنْ تَأْكُلَ طَوالَ اليَوْمِ، فَصاحَتْ قائِلَةً:

- أَنا جائِعَةٌ.

تَحَرَّكَتِ الرَّغْبَةُ في النَّفْسِ ناحِيَةَ الطَّعامِ، أَدْرَكَ العَقْلُ أَنَّهُ لَمْ يَأْكُلْ شَيْئًا طَوالَ اليَوْمِ..

انْتَهَزَتِ النَّفْسُ الفُرْصَةَ وَقالَتْ هامِسَةً تَسْتَرْضِيهِ:

- أَتُوقُ اليَوْمَ لِطَعامِ البَحْرِ.

عَلَّقَ العَقْلُ وَقالَ لِلْفَتَى:

- لَنْ تُفَكِّرَ جَيِّدًا ونَفْسُكَ تَرْغَبُ في الطَّعامِ.

أَطاعَ الفَتَى عَقْلَــهُ، وأَخَذَ طَرِيقَهُ ناحِيَــةَ المُحِيطِ. وما إنِ اقْتَرَبَ مِنْه حَتَّى رَأَى الماءَ وقَدْ تَحَــوَّلَ إلَى ذَرَّاتٍ دَقِيقَةٍ أَخَذَتْ طَرِيقَها إلَى أَعْلَى، نَسِيَ رَغْبَةَ نَفْسِه في الطَّعامِ، وجَلَسَ تَحْتَ نَخْلَةِ البَلَحِ الطَّوِيلَةِ يُراقِبُ بُخارَ الماءِ المُتَصاعِدَ إلَى أَعْلَى هُوَ الآخَرُ.. حاوَلَ أَنْ يُتابِعَهُ حَتَّى يَعْرِفَ إلَى أَيْنَ يَذْهَبُ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَعْرِفَ.. فَلَمْ يَرَ لَهُ نِهايَةً.. تَجَمَّعَ في الفَضاءِ وحَجَبَ عَنْهُ الرُّؤْيَةَ. تَساءَلَ عَقْلُه وقالَ:

- أَيْنَ يَذْهَبُ هذَا المَاءُ؟

أَجابَ عَقْلُه عَنِ السُّؤالِ بِسُؤالٍ آخَرَ وَقَالَ:

ـ وأَيْنَ ذَهَبَ الدُّخانُ مِنْ قَبْلُ؟

صَرَخَتِ النَّفْسُ تَطْلُبُ الطَّعامَ.

رَكَنَ حَرْبَتَهُ الخَشَبِيَّةَ ذاتَ السِّنِّ المُدَبَّبَةِ عَلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ.. نَزَلَ إِلَى المَاءِ.. أَخْرَجَ قَفَصَ الصَّيْدِ الَّذِي صَنَعَهُ، وَجَدَهُ قَدْ أَمْسَكَ بِعِدَّةِ سَمَكاتٍ، حِينَ رَفَعَهُ عالِيًا انْتَفَضَتِ السَّمَكاتُ احْتِجاجًا عَلَى انْتِزاعِهَا مِنْ وَطَنِها، وأَرادَتِ العَوْدَةَ ثانِيةً إِلَيهِ، أَمْسَكَ الفَتَى بِكُلٍّ مِنْهَا مِنْ عِنْدِ رَأْسِها وقَذَفَ بِهَا إِلَى الأَرْضِ، تَقافَزَتْ هُناكَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ ولَمْ تَسْتَطِعِ العَوْدَةَ.

ثَبَّتَ الفَتَى القَفَصَ فِي مَكانِه وخَرَجَ مِنَ الماءِ. كانَتْ حَرَكَةُ السَّمَكاتِ قَدْ هَدَأَتْ، حَمَلَها بَيْنَ يَدَيْهِ وأَخَذَ عَصاهُ وعادَ إِلَى كَهْفِه، أَطْعَمَ النَّارَ بِقَلِيلٍ مِنَ الخَشَبِ، أَعْطاهَا السَّمَكَ لِتُعِدَّهُ طَعامًا لَهُ، جَلَسَ يَنْتَظِرُ رائِحَةَ الشِّواءِ الَّتِي أَحَبَّها، قَلِيلًا وداعَبَتِ الرَّوائِحُ أَنْفَهُ.. اعْتَدَلَ فِي جِلْسَتِهِ.. قَلَبَ الأَسْماكَ عَلَى جانِبِهَا الآخَرِ. انْتَظَرَ قَلِيلًا ثُمَّ رَفَعَها مِنْ فَوْقِ النَّارِ. انْتَظَرَ حَتَّى بَرَدَتْ سُخُونَتُها بِالقَدْرِ الَّذِي يُطِيقُه، بَدَأَ يَسْتَمْتِعُ بِالْتِهامِها وهُوَ يَنْظُرُ إِلَى النَّارِ شاكِرًا لهَا ما قَدَّمَتْهُ مِنْ خَيْرٍ لَهُ.

وحِينَ انْتَهَى مِنْ تَناوُلِ طَعَامِه هَدَأَتْ نَفْسُه ولَمْ تَعُدْ تَطْلُبُ شَيْئًا، ذَكَّرَهُ عَقْلُه بِزَوْجِ الخَيْلِ الأَبْيَضِ المُخْتَلِفِ عَنْ كُلِّ الفَصائِلِ الَّتِي عاشَ بَيْنَها طَوالَ عُمْرِه، ولا يَخافُ مِنْهُ مِثْلَ الفَصائِلِ الَّتِي يَعْرِفُها.

أَمْسَكَ الفَتَى بِحَرْبَتِهِ الخَشَبِيَّةِ وهَمَّ بِالنُّزولِ مِنَ الكَهْفِ لِلبَحْثِ عَنْ زَوْجِ الخَيْلِ الأَبْيَضِ، فُوجِئَ بِأَنَّ الشَّمْسَ قَدْ غابَتْ، وصارَ الجَوُّ رَمادِيًّا استِعْدادًا لِحُلُولِ الظَّلامِ.

خافَ أَنْ يَضِيعَ فِي الجَزِيرَةِ ولا يَسْتَطِيعَ العَوْدَةَ إِلَى كَهْفِه، عادَ إِلَى النَّارِ وأَطْعَمَها ما يَكْفِيهَا طَوالَ اللَّيْلِ وتَمَدَّدَ بِالقُرْبِ مِنْهَا.. ونَامَ.

21

ظَلَّتِ النَّارُ مُشْـتَعِلَةً بِجِوارِ الفَتَى طَوالَ اللَّيْلِ، نامَتْ نَفْسُه، لَكِنَّ عَقْلَهُ لَمْ يَنَمْ، ظَلَّ يُفَكِّرُ فِي ذَلِكَ الَّذِي فِي السَّماءِ وتَتَّجِهُ ناحِيَتَهُ كُلُّ الأَشْياءِ، مَنْ يَكُونُ؟

ولَمْ يَنْسَ العَقْلُ ذَلِكَ الـزَّوْجَ الأَبْيَضَ مِنَ الخَيْلِ الَّذِي يَأْتِي ويَرُوحُ ولا يَخافُ مِنَ الفَتَى مِثْلَ الآخَرِينَ.. وتَسـاءَلَ: لِمَاذَا يَأْتِيانِ ولِمَاذا يَبْتَعِدَانِ؟ وقَرَّرَ أَنْ يَبْحَثَ عَنْهُمَا لِيَعْرِفَ السَّبَبَ.

وفِي الوَقْتِ نَفْسِـهِ لَمْ يَيْأَسْ مِنْ وُجُودِ شَـبِيهٍ لَهُ عَلَى الجَزِيرَةِ؛ فَـكُلُّ الأَبْناءِ يَأْتُونَ مِـنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى.. والفَتَى قَدْ صارَ مَوْجُودًا.. إذنْ لا بُدَّ مِنْ وُجُودِ ذَكَرٍ وأُنْثَى تَسَـبَّبا فِي وُجُودِه، ولا بُدَّ أَنَّهُمَا فِي مَكانٍ ما عَلَى الجَزِيرَةِ.

حِينَ صَحا الفَتَى مِنْ نَوْمِه نَاوَلَ النَّارَ طَعامَها، وأَخَذَ حَرْبَتَهُ الخَشَـبِيَّةَ ذاتَ السِّـنِّ المُدَبَّبَةِ ونَزَلَ مِنَ الكَهْفِ لِيَجْنِيَ طَعَامَ إِفْطارِه. قالَ لَهُ عَقْلُهُ:

- لَنْ تَعُودَ إِلَى هُنا لِتَتَناوَلَ طَعامَكَ، فالثِّمارُ الَّتِي تَجْنِيهَا تَأْكُلُها فِي حِينِهَا حَتَّى تَشْـبَعَ، ولَنْ تَعُودَ حَتَّى يَنْتَهِيَ النَّهارُ.

تَعَجَّبَ الفَتَى وَسَأَلَ عَقْلَهُ وقالَ:

- لِمَاذا ؟

أَجابَ العَقْلُ قائِلًا:

- سَوْفَ نَذْهَبُ لِلْبَحْثِ عَنْ فَصِيلَتِكَ فِي ناحِيَةٍ جَدِيدَةٍ، وفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ نَبْحَثُ عَنْ ذَلِكَ الفَصِيلِ الأَبْيضِ كَبِيرِ الحَجْمِ الَّذِي يَأْتِي ويَرُوحُ ولا يَخافُ مِنْكَ مِثْلَ كُلِّ الفَصائِلِ.

أَطاعَ الفَتَى ولَمْ تَعْتَرِضْ نَفْسُه.

بَدَأَ الفَتَى رِحْلَتَهُ، اخْتَرَقَ مـا يَعْرِفُهُ مِنْ مَمَرَّاتٍ فِي الجَزِيرَةِ، أَكَلَ مِنْ ثِمارِ أَشْجارِها حَتَّى شَبِعَ، وَواصَلَ سَيْرَهُ وبَحْثَهُ

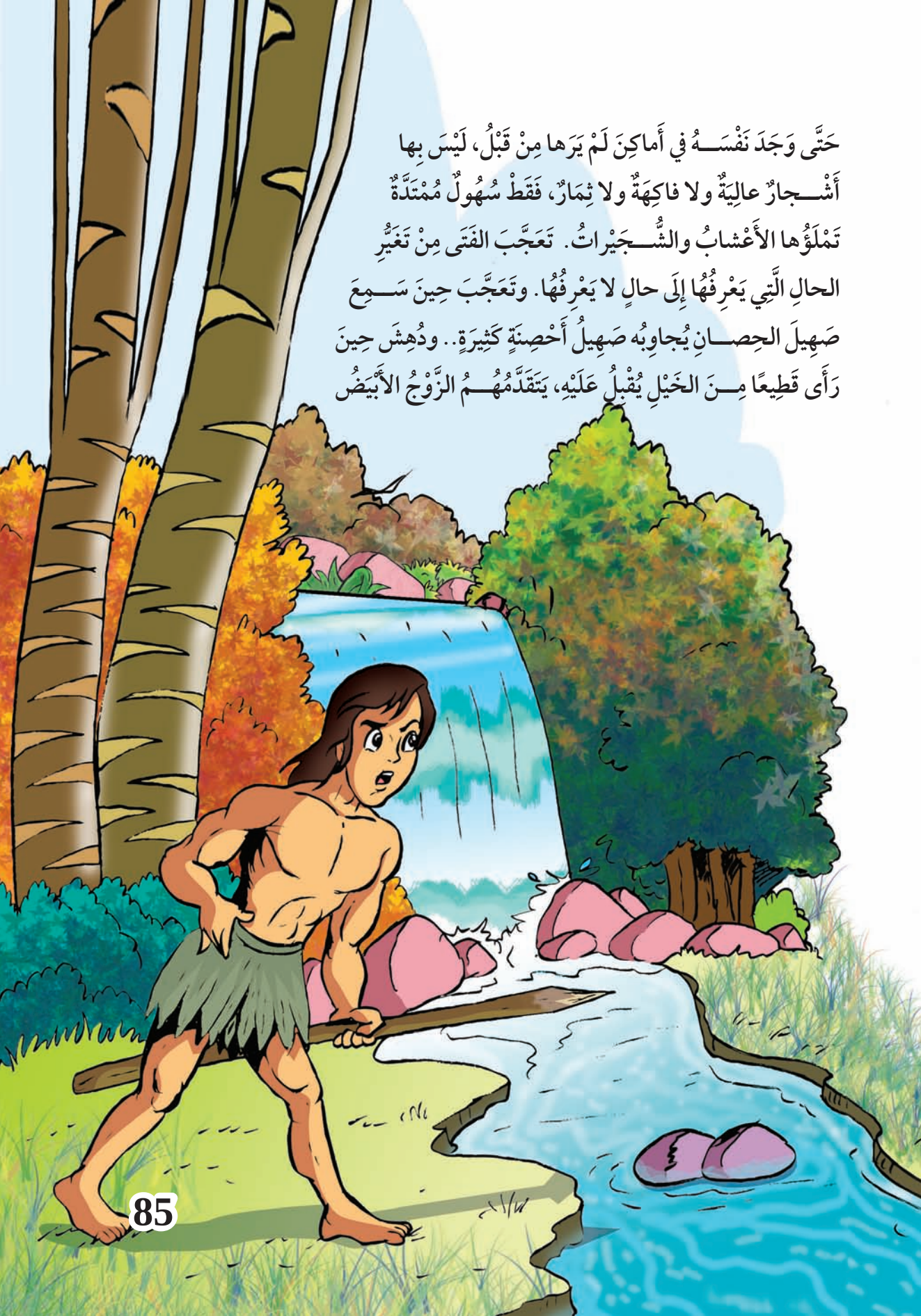

حَتَّى وَجَدَ نَفْسَــهُ فِي أَماكِنَ لَمْ يَرَها مِنْ قَبْلُ، لَيْسَ بِها أَشْــجارٌ عالِيَةٌ ولا فاكِهَةٌ ولا ثِمارٌ، فَقَطْ سُهُولٌ مُمْتَدَّةٌ تَمْلَؤُها الأَعْشابُ والشُّــجَيْراتُ. تَعَجَّبَ الفَتَى مِنْ تَغَيُّرِ الحالِ الَّتِي يَعْرِفُهَا إِلَى حالٍ لا يَعْرِفُهُا. وتَعَجَّبَ حِينَ سَــمِعَ صَهِيلَ الحِصــانِ يُجاوِبُه صَهِيلُ أَحْصِنَةٍ كَثِيرَةٍ.. ودُهِشَ حِينَ رَأَى قَطِيعًا مِــنَ الخَيْلِ يُقْبِلُ عَلَيْهِ، يَتَقَدَّمُهُــمُ الزَّوْجُ الأَبْيَضُ

الكَبيرُ الَّذِي يَعْرِفُه، وحِينَ الْتَقَوْا بِهِ.. أَحاطُوهُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. ســارُوا بِهِ حَتَّى وَقَفُوا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ. سَأَلَ الفَتَى الحِصَانَ الأَبْيَضَ الكَبِيرَ، وقالَ لَهُ مُتَعَجِّبًا:

- لِمَاذا كُنْتَ تَبْتَعِدُ عَنِّي حِينَ أَقْتَرِبُ مِنْكَ؟

رَدَّ الحِصَانُ وقالَ:

- كُنْتُ أَنْتَظِرُ حَتَّى تَمْتَلِكَ عَقْلَكَ لِتُصْبِحَ سَيِّدًا. والآنَ صارَ لَكَ عَقْلٌ يُفَكِّرُ.

أَشارَ الحِصانُ الأَبْيَضُ الكَبِيرُ بِرَأْسِــهِ.. تَقَدَّمَ مُهْرٌ رَمادِيُّ اللَّوْنِ لَهُ غُرَّةٌ بَيْضَاءُ عَلَى جَبْهَتِهِ، وَقَفَ أَمَامَ الفَتَى وقَدْ أَحْنَى رَأْسَه مُعْلِنًا وَلاءَهُ لَهُ.. قَالَ الحِصَانُ لِلْفَتَى:

- وَلَدِي هَذا هَدِيَّتُنا إِلَيْكَ.

فَرِحَ الفَتَى بِأَنْ صَارَ لَهُ رَفِيقٌ.. رَبَّتَ عَلَى رَأْسِ المُهْرِ الصَّغِيرِ وَهُوَ يَقُولُ:

- سَيَكُونُ صَاحِبِي.

صَمَتَ الحِصَانُ قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ لِلْفَتَى والمُهْرِ:

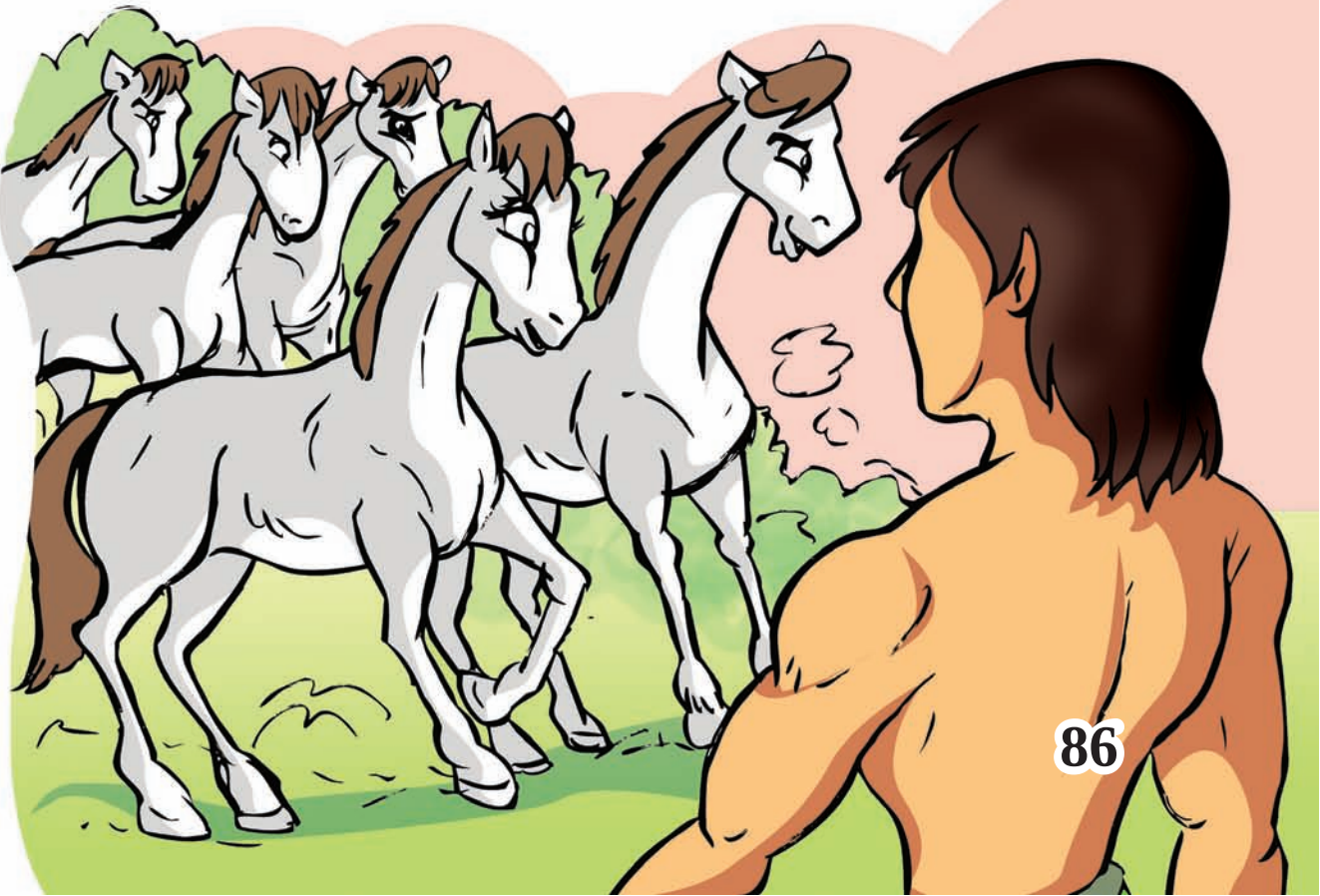

- اذْهَبا الآنَ.

قَفَزَ الفَتَى عَلَى ظَهْرِ المُهْرِ الصَّغِيرِ.. انْطَلَقَ يُسَابِقُ الرِّيحَ عَلَى شَاطِئِ المُحِيطِ، وحِينَ وَصَلَ إِلَى نَخْلَةِ البَلَحِ العالِيَةِ أَوْقَفَهُ الفَتَى. قَفَزَ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِه إِلَى الأَرْضِ وهَمَّ بالنُّزولِ إِلَى الماءِ؛ ليَرَى إِنْ كانَ قَفَصُهُ قَدْ أَمْسَكَ بِشَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقاتِ البَحْرِ، لكِنَّهُ تَراجَعَ حِينَ سَمِعَ صَوْتَ نَخْلَةِ البَلَحِ وهِيَ تَقُولُ ناصِحَةً فِي هُدُوءٍ:

- أَرَى أَنَّهُ قَدْ صارَ لَكَ صَدِيقٌ. لا تَبْحَثْ عَنْ فَصِيلَتِكَ هُنا فَلَنْ تَجِدَها؛ أَنَا أَعْرِفُ ذَلكَ ولا تُجادِلْنِي.

تضَايَقَ الفَتَى، فَنَسِيَ قَفَصَ صَيْدِه، وقَفَزَ عَلَى ظَهْرِ المُهْرِ الصَّغِيرِ وانْطَلَقَ بِهِ، وحِينَ وَصَلا إِلَى الوَادِي الأَخْضَرِ أَمَامَ الكَهْفِ كانَ النَّهارُ قَدْ قارَبَ عَلَى الانْتِهَاءِ. قَفَزَ إِلَى الأَرْضِ وأَسْرَعَ إِلَى الكَهْفِ لِيُطْعِمَ النَّارَ، وهُوَ يَقُولُ لَهُ:

- تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْطَلِقَ اليَوْمَ كَمَا تَشَاءُ، وفِي الغَدِ سَنَبْدَأُ الحَياةَ مَعًا.

فِي الصَّبــاحِ، كانَ أَوَّلُ شَــيْءٍ فَكَّرَ فِيهِ الفَتَى، هُــوَ أَنْ يَبْنِيَ لِلْحِصَــانِ بَيْتًا، أَحْضَرَ العَدِيدَ مِنَ الأَفْرُعِ الطَّوِيلَةِ والأَعْشابِ، وفِي حِضْنِ الرَّبْوَةِ أَسْفَلَ كَهْفِهِ وَقَفَ، ونَظَرَ إِلَى الأَشْجارِ المَغْرُوسَةِ فِي الأَرْضِ، وقَلَّدَها وغَرَسَ أَرْبَعَةَ جُذُوعٍ كالجُذُورِ، وعِنْدَ قِمَّتِهَا عَلَّقَ أَفْرُعًا أُخْرَى وقَلَّدَ الفُرُوعَ، وجَعَلَ فَوْقَها فُرُوعًا مُتَشــابِكَةً مِثْلَ الأَغْصانِ، وقَذَفَ فَوْقَها الأَعْشَابَ.

ظَلَّ الفَتَى يَقْذِفُ بِالأَعْشابِ فَوْقَ شَبَكَةِ الأَغْصانِ، وبِدُونِ أَنْ يَدْرِيَ ثَقُلَ وَزْنُهَا فَوْقَ القَوائِمِ الخَشَبِيَّةِ المَغْرُوسَةِ فِي الأَرْضِ، فَوَقَعَ الجَمِيعُ عَلَى الأَرْضِ!

لَــمْ يَحْزَنِ الفَتَى؛ فَهَذِه أَوَّلُ مَرَّةٍ يَصْنَعُ فِيهَا حُجْرَةً خَشَــبِيَّةً، حاوَلَ أَنْ يَعْرِفَ لِمَاذا وَقَعَتْ..أعادَ النَّظَرَ إِلَى الأَشْــجارِ والفُــرُوعِ والأَوْراقِ، عَرَفَ أَنَّهُ قَذَفَ فَوْقَ شَــبَكَةِ الأَغْصانِ بِأَعْشابٍ كَثِيرَةٍ.. عادَ لِبِناءِ الحُجْرَةِ مَرَّةً ثانِيَةً، ثَبَّتَ القَوائِمَ واقِفَةً مِثْلَ جُذُوعِ الأَشْــجارِ، عَلَّقَ عَلَيْهَا الأَغْصانَ، ثُمَّ جَعَلَ عَلَيْها شَبَكَةً مِنَ الأَغْصانِ الصَّغِيرَةِ وقَذَفَ بِالأَعْشابِ فَوْقَها، وحِينَ ظَلَّلَتِ الأَرْضَ مِنْ تَحْتِها كَفَّ عَنْ قَذْفِ المَزِيدِ.

صاحَ الفَتَى عَلَى الحِصَانِ فَجاءَ مُسْرِعًا إِلَيْه، أَشَارَ إِلَى الحُجْرَةِ الخَشَبِيَّةِ وقالَ لَهُ:

- امْرَحْ فِي الوادِي الأَخْضَرِ كَمَا كُنْتَ تَمْرَحُ مَعَ أَصْحابِكَ، وحِينَ تُرِيدُ الرَّاحَةَ اسْتَرِحْ فِي هَذِه الخَمِيلَةِ. وحِينَ أُرِيدُكَ سَأُصِيحُ عَلَيْكَ.

انْطَلَقَ الحِصَانُ يَمْرَحُ فِي الْوادِي.. وَقَفَ الفَتَى يَتَأَمَّلُهُ. أَوَّلُ مَرَّةٍ يَشْــعُرُ بِأَنَّهُ مَسْؤولٌ عَنْ أَحَدٍ غَيْرِ نَفْسِهِ،إِحْســاسٌ جَمِيلٌ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُه مِنْ قَبْلُ، إِحْسَــاسٌ جَعَلَهُ يَشْــعُرُ بِأَهَمِّيَّتِهِ، ابْتَســمَ رَاضِيًا وَرَاحَ يَجْمَــعُ طَعامَهُ. عادَ بَعْدَ قَلِيلٍ وهُــوَ يَحْمِلُ الكَثِيرَ مِنَ الفاكِهَةِ والثِّمارِ، صَعِدَ بِهَا إِلَى كَهْفِه. وحِينَ شَبِعَ.. قَرَّرَ أَنْ يَلْهُوَ مَعَ صَدِيقِه الجَدِيدِ .

أَعْطَى النَّارَ طَعامَها وهَبَطَ إِلَى الوَادِي.. رَآهُ الحِصَانُ فَأَسْــرَعَ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الأَرْضِ، قَفَزَ الفَتَى فِي الهَواءِ مِثْلَ القُرُودِ واسْــتَقَرَّ عَلَى ظَهْرِه، لَمْ يُوَجِّهِ الفَتَى الحِصانَ إِلَى وِجْهَــةٍ مُعَيَّنَةٍ، فَعَرَفَ أَنَّه يَتْرُكُ لَهُ حُرِّيَّةَ الاخْتِيــارِ، فَانْطَلَقَ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي يَعْرِفُه، وظَلَّ يَعْدُو بِهِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى شاطِئِ المُحِيطِ . وعِنْدَ جِذْعِ نَخْلَةِ البَلَحِ العالِيَةِ وَقَفَ.

قَفَزَ الفَتَى إِلَى الأَرْضِ.. قالَتْ لَهُ نَفْسُه:

- أَلا تَطْمَئِن عَلَى صَيْدِ البَحْرِ؟

هَبَطَ إِلَى الماءِ.. رَفَعَ قَفَصَهُ الشَّــجَرِيَّ مِنْ مَكانِه، وَجَدَهُ مَلِيئًا بالأَسْماكِ، قالَتْ لَهُ نَفْسُه:

- لا أَتُوقُ إِلَيْها الآنَ.

أَعَــادَ الفَتَى القَفَصَ إِلَى المَاءِ، ولَكِنَّهُ لَمْ يُثَبِّتْهُ جَيِّــدًا فِي الأَرْضِ مِثْلَ كُلِّ مَرَّةٍ، وقَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الماءِ كانَ القَفَصُ قَدْ طَفَا فَوْقَ سَــطْحِه. أَمْسَــكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَهُ التَّيَّارُ بَعِيدًا.. ثَبَّتَهُ جَيِّدًا فِي أَعْشَــابِ المَاءِ.. فَظَلَّ غاطِسًا تَحْتَ سَطْحِ المَاءِ يَنْتَظِرُ الأَسْماكَ لِيُمْسِكَ بِهَا مِنْ أَجْلِ الفَتَى.

تَسَاءَلَ عَقْلُه فِي دَهْشَةٍ وقالَ:

- الماءُ يَحْمِلُ الأَشْيَاءَ؟!

دُونَ أَنْ يَتَرَدَّدَ الفَتَى، مَالَ بِجَسَدِه عَلَى صَفْحَةِ المَاءِ، دَفَعَ الأَرْضَ بِقَدَمَيْهِ، فَطافَ عَلَى سَطْحِ المَاءِ.. راحَ يَلْهُو بِذِراعَيْهِ وساقَيْهِ فَوَجَدَ نَفْسَهُ يَسْبَحُ مُبْتَعِدًا.. صَهَلَ الحِصانُ في خَوْفٍ عَلَيْه، عادَ إِلَى الشَّاطِئِ. صَعِدَ الْفَتَى إِلَى الأَرْضِ.. رَبَّتَ عَلَى خَدَّيِ الحِصَانِ شاكِرًا وَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَى المَاءِ.

مَرَّةً ثانِيَةً.. لاحَظَ الفَتَى أَنَّ سَطْحَ الماءِ يَخْرُجُ مِنْهُ قَطَراتٌ دَقِيقَةٌ تَتَصاعَدُ إِلَى أَعْلَى.. لَمْ يَرَ أَيْنَ تَذْهَبُ كُلُّ تِلْكَ القَطَراتِ الَّتِي رَأَى أَنَّها تَتَجَمَّعُ هُناكَ في الأَعَالِي..

سَأَلَ عَقْلَهُ وقالَ:

- لَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرَى أَكْثَرَ؟

أَتاهُ صَوْتُ النَّخْلَةِ يُخْبِرُه بِأَنَّهُ كُلَّما ارْتَفَعَ عالِيًا رَأَى أَكْثَرَ. أَسْرَعَ في خِفَّةِ القُرُودِ يَتَسَلَّقُ جِذْعَ النَّخْلَةِ حَتَّى ارْتَطَمَ رَأْسُه بِبَلَحِهَا، اعْتَدَلَ وراحَ يَنْظُرُ إِلَى المَاءِ، رَأَى مِساحاتٍ أَوْسَعَ تَخْرُجُ مِنْهَا قَطَراتُ الماءِ الدَّقِيقَةُ، تَحَوَّلَ إِلَى الجَزِيرَةِ، رَأَى قِمَمَ الأَشْجارِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا نِهايَةٌ، ورَأَى جَبَلًا شاهِقًا في وَسَطِها، أَسْرَعَ بالنُّزُولِ إِلَى الحِصَانِ وأَسْرَعَ إِلَيْهِ.

23

أَسْــرَعَ الحِصانُ الصَّغِيرُ بالفَتَى في مَمَرَّاتِ الجَزِيرَةِ لا يَدْرِي إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ، لكِنَّ الفَتَى يَعْرِفُ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ، فَرَاحَ يُوَجِّهُ حِصانَهُ بِلَمَســاتٍ خَفِيفَةٍ مِنْ يَدِه. لَمْ يَلْتَفِتِ الفَتَى إِلَى ما حَوْلَهُ مِن أَشْجارٍ مُتَنَوِّعَةِ الأَشْكالِ والأَحْجامِ والأَزْهارِ والثِّمارِ. لقَدْ كانَ كُلُّ هَمِّهِ أَنْ يَصِلَ مُسْرِعًا إِلَى ذَلكَ الَّذِي رَآهُ مِنْ فَوْقِ جِذْعِ النَّخلَةِ.

وَصَلَ الحِصانُ بالفَتَى إِلَى حَيْثُ يُرِيدُ.. قَفَزَ الفَتَى إِلَى الأَرْضِ.. وَقَفَ مَشْدُوهًا لِمَا يَراهُ.. ارْتِفاعٌ شاهِقٌ أَكْبَرُ مِنَ الرَّبْوَةِ الَّتِي فِيهَا كَهْفُهُ عَشَراتِ المَرَّاتِ، أَمامَهُ بُحَيْرَةُ ماءٍ عَظِيمَةٌ يَتَفَرَّعُ مِنْها الكَثِيرُ مِنَ التُّرَعِ (السَّوَاقِي) والأَنْهارِ مُتَّجِهَةً إِلَى كُلِّ أَنْحاءِ الجَزِيرَةِ، طُيُورٌ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ وصِنْفٍ ونَوْعٍ تُرَفْرِفُ في الهَواءِ ثُمَّ تَهْبِطُ حتَّى تُلامِسَ بُطونُها سَطْحَ الماءِ وتَرْتَفِعُ ثانِيةً وهِيَ تُغَنِّي في سَعادَةٍ.

لَوْ عَرَفَ الفَتَى شَيئًا عَنِ الجَنَّةِ، لقالَ إِنَّ هَذا المَكانَ هُوَ الجَنَّةُ. سَأَلَتْ نَفْسُه في دَهْشَةٍ وقالَتْ:

- مِنْ أَيْنَ جاءَ هَذا الماءُ؟

أَجابَتِ الدُّنْيا عَلَيْهَا وأَظْلَمَتْ، نَظَرَ الفَتَى إِلَى أَعْلَى، كانَتْ عِدَّةُ سُحُبٍ سَوْداءَ قَدْ جاءَتْ مِنْ ناحِيَةِ البَحْرِ، ووَقَفَتْ فَوْقَ الجَبَلِ، ومَنَعَتْ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنَ النُّزولِ إِلَى الأَرْضِ، تَصادَمَتْ فَأَحْدَثَتْ أَصْواتًا مُرْعِبَةً وأَضْواءً مُبْهِرَةً، وهَبَطَ الماءُ غَزِيرًا فَوْقَ قِمَّةِ الجَبَلِ، وانْسابَ مُنْدَفِعًا نَحْوَ البُحَيْرَةِ.

أَسْرَعَ الفَتَى وحِصانُهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ كَثِيفَةٍ يَحْتَمِيانِ مِنَ المَطَرِ حَتَّى أَفْرَغَتِ السُّحُبُ حُمُولَتَهَا مِنَ المَاءِ، وسَقَطَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ إِلَى الأَرْضِ وانْتَشَرَ الضِّياءُ كَما كانَ.

لَمْ يَفْهَمْ عَقْلُ الفَتَى ما حَدَثَ، كَيْفَ حَدَثَ هَذا؟ كَيْفَ ارْتَفَعَتْ قَطَراتُ الماءِ الدَّقِيقَةُ مِنْ سَطْحِ البَحْرِ إِلَى هَذا الارْتِفاعِ الشَّاهِقِ؟ وكَيْفَ تَجَمَّعَتْ فِي سُحُبٍ هَكَذا؟ ومَنِ الَّذِي دَفَعَ بِهَا حَتَّى وَقَفَتْ فَوْقَ الجَبَلِ؟ ومَنِ الَّذِي أَمَرَهَا أَنْ تُفْرِغَ ماءَهَا هُنا؟ ومَنِ الَّذِي أَمَرَ الماءَ أَنْ يَنْسابَ فِي قَنَواتٍ تَنْتَشِرُ كالعُرُوقِ فِي الأَرْضِ حَتَّى تَشْرَبَ مِنْها الأَشْجارُ والحَيَواناتُ والطُّيُورُ؟!

مَنْ فَعَلَ هَذَا؟!

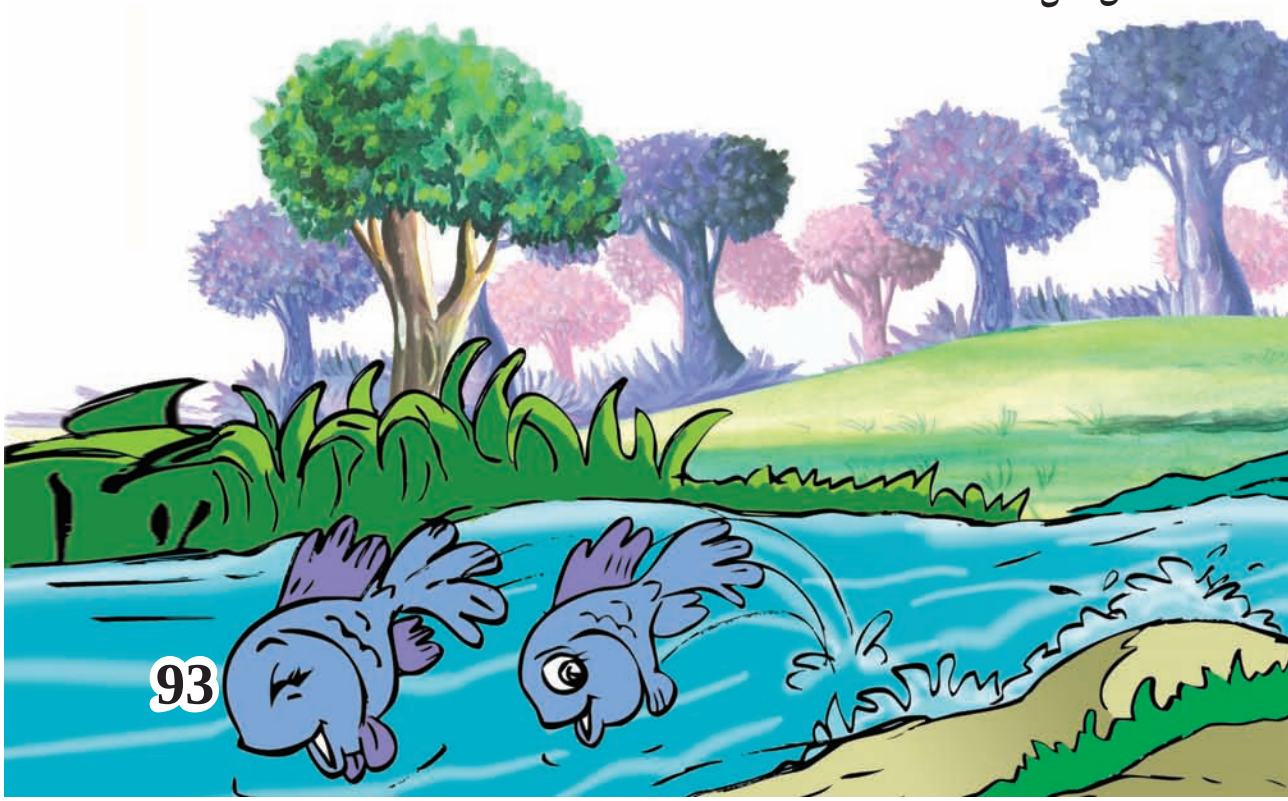

كانَ الفَتَى حَيَوانًا في صُورَةِ إنْسـانٍ.. رَضَعَ مِنْ أَثْداءِ حَيَـوانٍ وأَكَلَ طَعامَهُ وتَعَلَّمَ لُغَتَهُ. عَلَّمُوهُ كَيْفَ يَأْكُلُ وكَيْفَ يَشْرَبُ وأَيْنَ يَنامُ، كُلُّ ذلكَ بِدُونِ تَفْكِيرٍ أو تَدْبِيرٍ.. لَمْ يُخْبِرْهُ واحِدٌ مِنْهُمْ لِمَاذا يَفْعَلُ هَذَا أَوْ ذَاكَ.. عَلَّمُوهُ فَقَطْ كَيْفَ يَفْعَلُهُ.

وحِينَ صَارَ لَهُ عَقْلٌ يُفَكِّرُ، انْتَقَلَ إِلَى صُورَةِ إِنْسـانٍ فِي هَيْئَةِ إِنْسَانٍ، وعَرَفَ ما كانَتْ تَقْصِدُهُ أُمُّه الَّتِي أَرْضَعَتْهُ مِنْ أَنَّهُ مِنْ فَصِيلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنْ كُلِّ الفَصائِلِ الَّتِي حَوْلَهُ، وأَدْرَكَ أَنَّ الاخْتِلافَ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا، هُوَ أَنَّهُ صارَ يُفَكِّرُ ويَتَدَبَّرُ.. ويَعْرِفُ. وحِينَ عَرَفَ، بَدَأَ رِحْلَةَ البَحْثِ عَنْ حَقِيقَةِ الوُجُودِ مِنْ حَوْلِهِ.

صاحَ بِالْحِصانِ يَطْلُبُ مِنْهُ المَجِيءَ.. أَسْرَعَ الحِصانُ إِلَيْه وَوَقَفَ أَمَامَهُ يَنْتَظِرُ أَمْرَهُ فِي شُمُوخٍ. قَفَزَ الفَتَى عَلَى ظَهْرِهِ ورَبَّتَ عَلَى رَقَبَتِهِ وقالَ لَهُ:

- اذْهَبْ بِي إِلَى الكَهْفِ. لَكِنْ لا تُسْرِعْ فِي مِشْيَتِكَ.

سـارَ الحِصانُ وهُوَ يَتَبَخْتَرُ بَيْنَ الأَشْجارِ فِي مَمَرَّاتِ الجَزِيرَةِ، تُلامِسُ الأَفْرُعُ رَأْسَ الفَتَى، شَعَرَ بِأَنَّهُ يَرَى هَذِه الأَشْجارَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَياتِهِ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ عاشَ بَيْنَهَا سِنِينَ عُمْرِه كُلَّها.

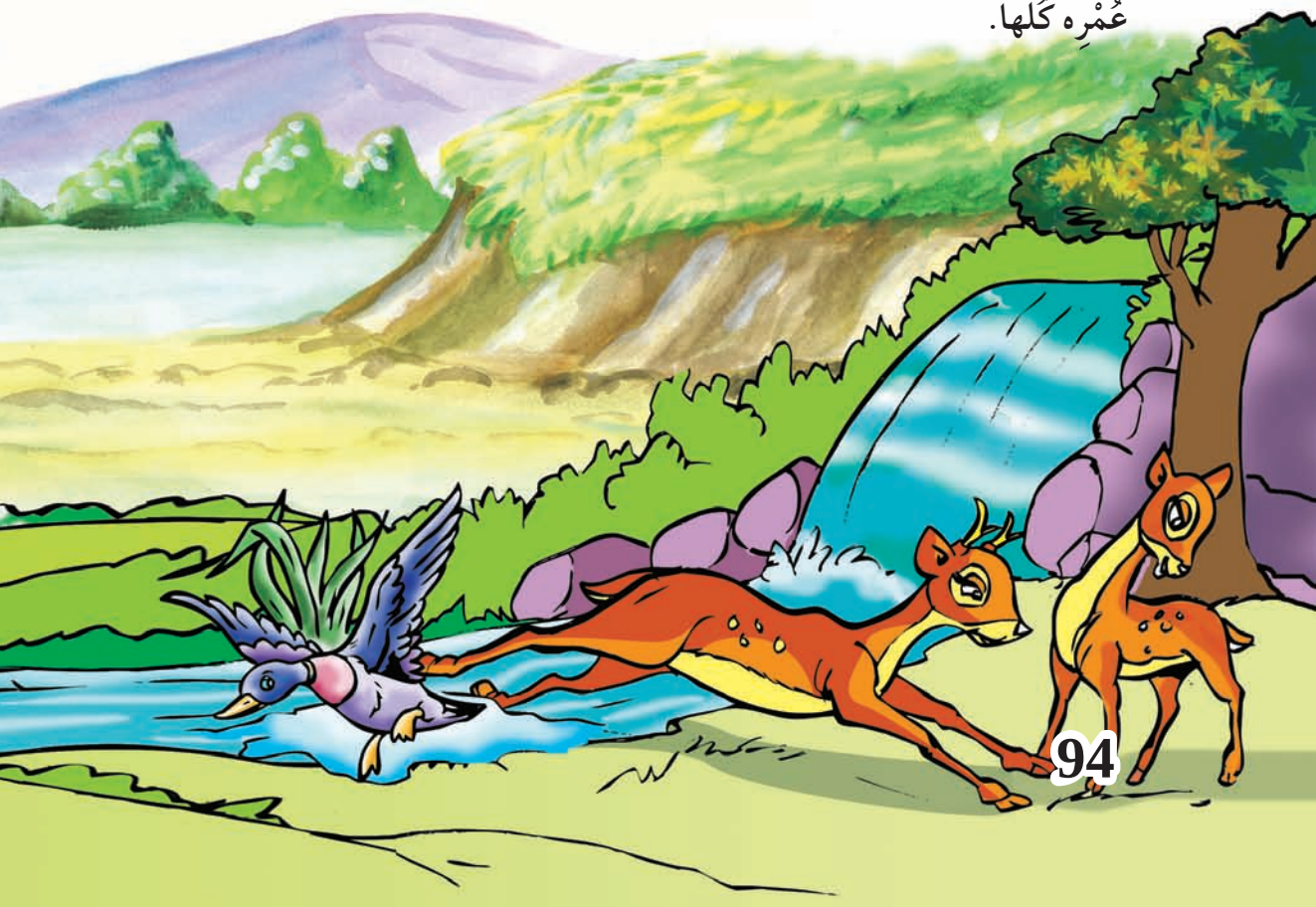

راقَبَ الفَتَى أَشْكالَ الأَوْراقِ والزُّهُورِ والثِّمارِ، وحَتَّى جُذُوعِ الأَشْجارِ.. لاحَظَ أَنَّ مِنَ الأَشْجارِ ما يَزْحَفُ عَلَى الأَرْضِ.. ومِنْهَا القَصِيرَةُ ذاتُ الأَفْرُعِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي تَصْنَعُ خَمِيلَةً، ومِنْهَا العالِيَةُ ذاتُ الجُذُوعِ الضَّخْمَةِ، اخْتَلَفَ شَكْلُ جُذُوعِ الأَشْجارِ وحَجْمُها، لكِنَّها كُلَّها لَهَا أَوْرَاقٌ، تَخْتَلِفُ الأَوْرَاقُ فِي شَكْلِها بَيْنَ نَوْعٍ وآخَرَ.. لكِنَّها فِي النِّهايَةِ أَوْرَاقٌ، ولاحَظَ أَيْضًا أَنَّ كُلَّ الأَشْجارِ تُعْطِي زُهُورًا، لكِنَّهَا زُهُورٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهَا وأَشْكالُهَا وأَحْجامُهَا.. تَتَساقَطُ فِي النِّهايَةِ لِتَتْرُكَ مَكانَها ثِمارًا.. تَساءَلَ عَقْلُه وقالَ:

- لِمَاذا الاخْتِلافُ إذَنْ؟ ومَنِ الَّذِي صَنَعَ هَذا الاخْتِلافَ؟

ظَلَّ الفَتَى عَلَى حَالِهِ مِنْ مُراقَبَةِ جُذُوعِ الأَشْجارِ وأَوْراقِهَا وزُهُورِهَا وثِمارِهَا حتَّى كادَ النَّهارُ يَنْتَهِي، وتَعِبَ عَقْلُهُ مِنْ طُولِ التَّفْكِيرِ، فَطَلَبَ مِنَ الحِصَانِ أَنْ يَعُودَ إِلَى كَهْفِهِ، اسْتَدَارَ الحِصانُ عائِدًا يَمْشِي الهُوَيْنَى كَمَا أَمَرَهُ صاحِبُهُ.

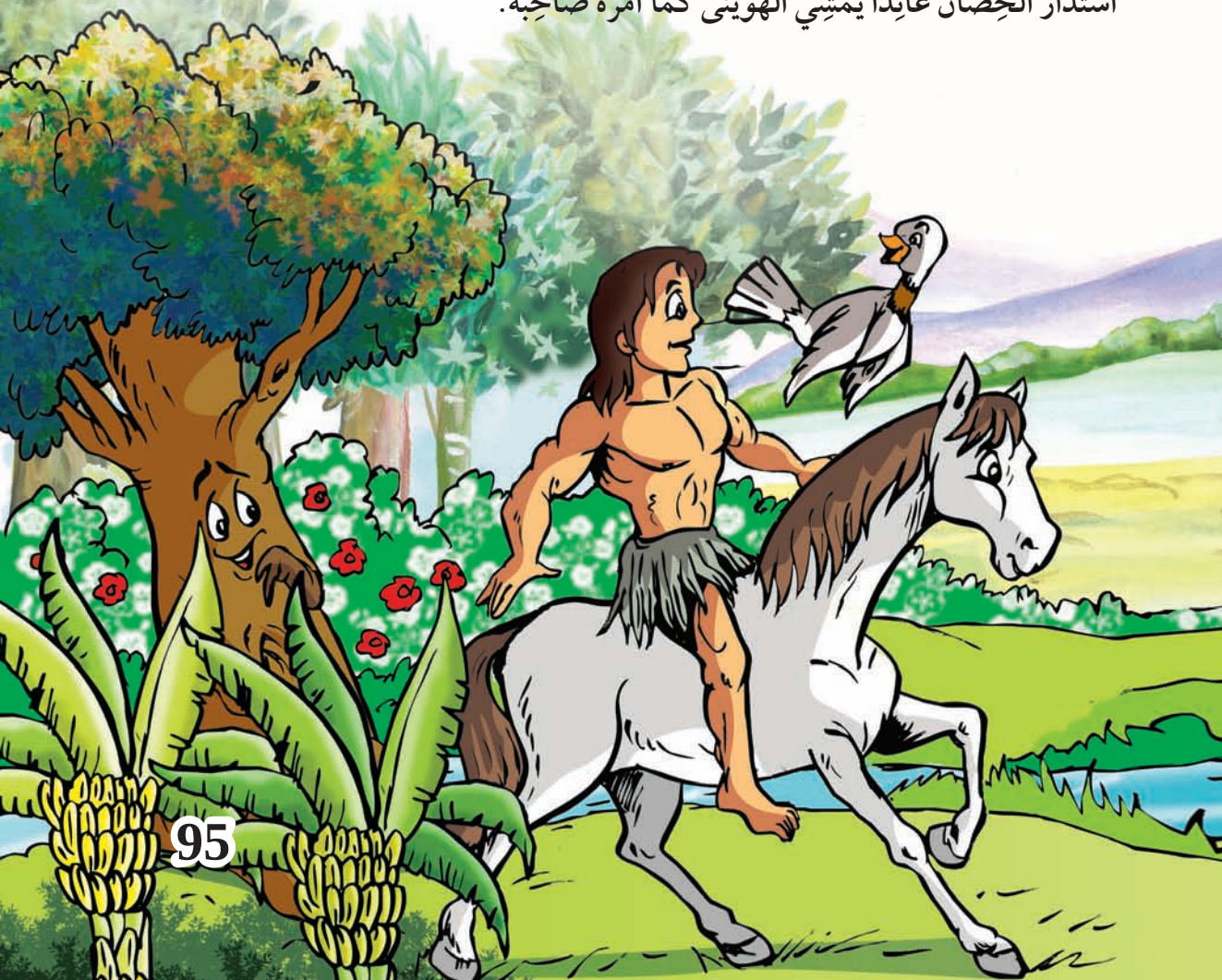

24

وفي رِحْلَــةِ العَوْدَةِ.. كانَ الأَمْرُ مُخْتَلِفًا؛ فَقَدْ قَرَأَتِ الأَشْــجارُ ما يَدُورُ في عَقْلِهِ مِنْ تَســاؤُلاتٍ.. وأَدْرَكَتْ أَنَّــهُ بَدَأَ طَرِيقَ مَعْرِفَــةِ الخَالِقِ، فَأَعْلَنَتِ الْخَبَرَ لِكُلِّ أَشْــجارِ الجَزِيرَةِ، وتَراقَصَتْ مِن حَوْلِه الفُرُوعُ، وقَــرَّرَتِ الطُّيورُ والعَصافِيرُ مُكافَأَتَهُ فَراحَتْ تُغَنِّي لَهُ وتَتَراقَصُ حَوْلَهُ.

حِيــنَ وَصَلَ الحِصانُ إِلَى الْوادِي الأَخْضَرِ، هَبَــطَ الفَتَى مِنْ فَوْقِ ظَهْرِه إِلَى الأَرْضِ مُتَثاقِلًا، أَسْــرَعَ الحِصانُ يَمْرَحُ في الْوَادِي.. هَمَّ الفَتَى بالصُّعُودِ إِلَى كَهْفِه، أَسْرَعَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الطُّيورِ بالخُرُوجِ مِنْ فَتْحَةِ الكَهْفِ وانْتَشَرُوا في الفَضاءِ، نَظَرَ إِلَيْهِمُ الفَتَى ولَمْ يَهْتَمَّ، وَاصَلَ صُعُودَهُ، مَرَّ نَظَرُهُ مِنْ فَتْحَــةِ الكَهْفِ إِلَى الدَّاخِلِ.. رَأَى كَوْمَةً مِنَ الثِّمارِ

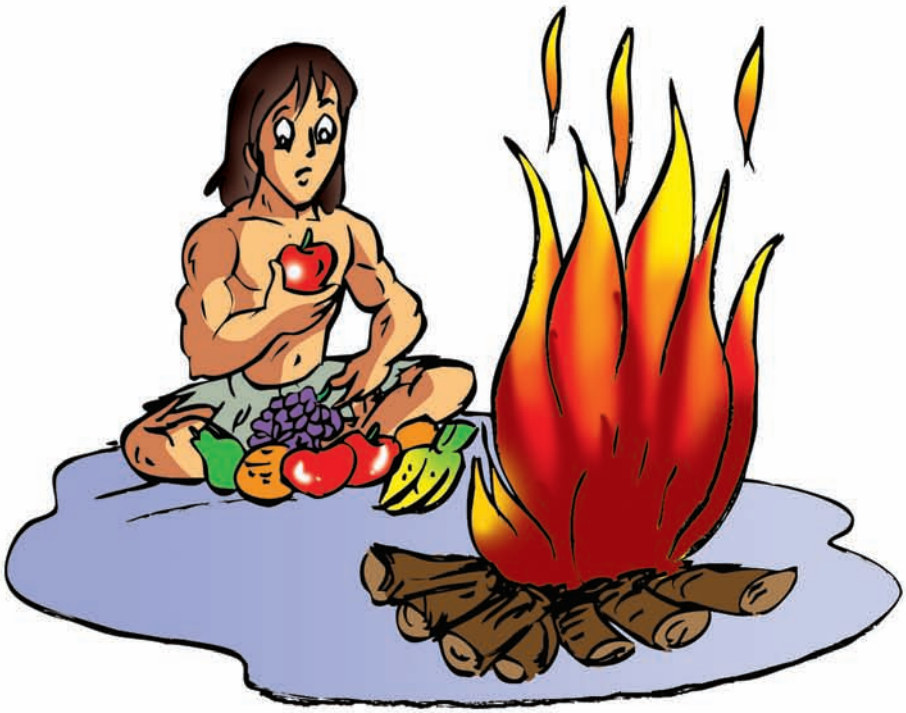

والفَاكِهَةِ بالقُرْبِ مِنَ النَّارِ. تَعَجَّبَ.. وَقَفَ، وتَسَاءَلَ قائِلًا:

- لِمَاذا أَحْضَرَتِ الطُّيورُ هَذِه الثِّمارَ؟ ولِمَاذا هَذا اليَوْمَ بالذَّاتِ؟

رَدَّ عَقْلُهُ وقالَ:

- رُبَّما لأَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّكَ بَدَأْتَ تُفَكِّرُ لِتَعْرِفَ. ورُبَّما هُمْ يَعْرِفُونَ ما تُفَكِّرُ فِيهِ مِنْ قَبْلِكَ بِكَثِيرٍ.

دَخَلَ الفَتَى إِلَى الكَهْفِ. جَلَسَ أَمَامَ كَوْمَةِ الثِّمارِ. اسْتَحْضَرَ عَقْلُهُ كُلَّ أَشْكالِ جُذُوعٍ وأَوْراقِ وزُهُورِ أَشْجارِ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهَا، راحَ يَطْرَحُ أَسْئِلَتَهُ الحَائِرَةَ مِنْ جَدِيدٍ:

- مَنِ الَّذِي صَنَعَ الاخْتِلافَ بَيْنَ أَنْواعِ الأَشْجارِ وبَعْضِها؟ ومَا الَّذِي تَسَبَّبَ فِي اخْتِلافِ شَكْلِ الجُذُوعِ والفُرُوعِ والأَوْراقِ والزُّهُورِ والثِّمارِ؟

اسْتَحْضَرَ العَقْلُ طَعْمَ الثِّمارِ عَلَى لِسَانِهِ.. واحِدَةً بَعْدَ الأُخْرَى، تَذَكَّرَ اخْتِلافَ طُعُومِهَا مِنْ نَوْعٍ إِلَى آخَرَ . قالَ مُتَسائِلًا:

- هَلِ الاخْتِلافُ فِي الشَّكْلِ يُؤَدِّي إِلَى الاخْتِلافِ فِي الطَّعْمِ؟

رَاحَ يَبْحَثُ عَنْ إجاباتٍ. الأَرْضُ هِيَ الأَرْضُ.. وطَعامُ الأَشْجارِ هُوَ نَفْسُ الطَّعامِ، وشَـرابُها هُوَ نَفْسُ الشَّـرابِ، كَيْفَ تُصْبِحُ كُلُّ شَـجَرَةٍ مُخْتَلِفَةً عَنِ الأُخْرَى في كُلِّ الأَشْـياءِ؟ ومَنِ الَّذِي أَوْجَدَ الأَشْجارَ مُنذُ البِدايَةِ وجَعَلَها مُتَشابِهَةً في طَعامِهَا وشَرابِهَا مُخْتَلِفَةً في أَشْـكالِهَا وزُهُورِهَا وثِمارِهَا؟ هَلْ للأَشْـجارِ ذَكَرٌ وأُنْثَى مِثْلُ كُلِّ فَصائِلِ الطُّيورِ والحَيَواناتِ؟

تَذَكَّرَ عَقْلُ الفَتَى أَنَّ الأَزْهارَ تَصْنَعُ بُذُورًا وتَتَطايَرُ البُذُورُ في الهَواءِ أَوْ تَحْمِلُهَا جُلُودُ الحَيَوانـاتِ وتَحُطُّ عَلَى الأَرْضِ؛ لِتُنْبِتَ بُرْعُمًا صَغِيـرًا يَنْمُو صاعِدًا إِلَى أَعْلَى.. قالَتْ نَفْسُه:

- البَذْرَةُ بِنْتُ الشَّجَرَةِ.

سَأَلَ عَقْلُهُ:

- ومَنِ الَّذِي جَعَلَ الشَّجَرَةَ تُنْبِتُ بَذْرَةً؟

- ومَنِ الَّذِي جَعَلَ البَذْرَةَ تُخْرِجُ بُرْعُمًا يَكْبُرُ ويَكْبُرُ حَتَّى يَصِيرَ شَجَرَةً تُزْهِرُ وتُثْمِرُ وتُعْطِي بُذُورًا جَدِيدَةً ؟

سَأَلَتِ النَّفْسُ مُجَدَّدًا وقالَتْ:

- ومَنِ الَّذِي أَوْجَدَ الشَّجَرَةَ مُنْذُ البِدَايَةِ؟

شَـرَدَ العَقْلُ قَلِيلًا بَحْثًا عَـنِ الإجابَةِ.. ثُمَّ قَالَ هامِسًا:

- السُّـؤَالُ الأَصْعَبُ، هُوَ مَنْ أَوْجَـدَ كُلَّ هَذِهِ الأَشْياءِ؟

صَمَتَ العَقْلُ قَلِيلًا، ثُمَّ قالَ هامِسًا للفَتَى:

ـ أَنا أَظُنُّ أَنَّ الَّذِي أَوْجَدَ كُلَّ هَذِه الأَشْـياءِ مَوْجُـودٌ حَيْثُ تَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ، وحَيْثُ يَصْعَدُ الماءُ والدُّخانُ.

هَبَّ الفَتَى واقِفًا.. أَسْرَعَ إِلَى خارِجِ الكَهْفِ.. وَقَفَ عَلَى بَابِهِ.. اكْتَشَفَ أَنَّ الشَّمْسَ تَرَكَتْهُ ورَاحَتْ وأَنَّ اللَّيْلَ قَدْ جاءَ. نَظَرَ إِلَى السَّماءِ.. رَآهَا بَعِيدَةً بَعِيدَةً، مُرْتَفِعَةً ارْتِفاعًا لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُهُ.. تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا نُدَفٌ مِنْ سُحُبٍ بَيْضاءَ تَتَهادَى.. تَتَداخَلُ .. تُكَوِّنُ أَشْكالًا يَتَخَيَّلُهَا أَشْكَالَ طُيُورٍ وحَيَوانَاتٍ.

زادَ عَقْلُهُ شُرُودًا.. تَذَكَّرَ سَقْفَ الحُجْرَةِ الخَشَبِيَّةِ الَّتِي صَنَعَها في الصَّباحِ، وكَيْفَ لَمْ تَتَحَمَّلْ أَعْمِدَتُها ثِقَلَ السَّقْفِ وانْهارَتْ، تَساءَلَ.. كَيْفَ لا تَنْهَارُ هَذِه ولا تُوجَدُ أَعْمِدَةٌ تَحْمِلُهَا؟ صاحَ يَسْأَلُهَا: مَنِ الَّذِي رَفَعَها بِدُونِ أَعْمِدَةٍ ؟

شَـعَرَتْ نَفْسُ الفَتَى أَنَّ الرَّبْوَةَ تَدُورُ بِهَا.. وأَنَّ كُلَّ الأَشْـياءِ الَّتِي عَرَفَهَا وفَكَّرَ فِيهَا تَجْرِي مِنْ أَمامِهَا.. أَسْرَعَ بالدُّخُولِ، طَلَبَتْ مِنْهُ نَفْسُه أَنْ يَنامَ حَتَّى يَسْتَرِيحَ، فَأَطاعَهَا.

25

لَمْ يَتعَوَّدِ الفَتَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَى أَعْلَى ويَتَفكَّرَ فِيمَا يَراهُ، كَما فَعَلَ الآنَ، في طُفُولَتِهِ وصِبَاهُ، كانَ مِثْــلَ كُلِّ فَصائِلِ الحَيَواناتِ الَّتِي عاشَ بَيْنَهــا.. وتَعَلَّمَ مِنْها ما يُفِيدُ حَياتَهُمْ بِكُلِّ جِدِّيَّةٍ، ولَمْ يَعْرِفُوا أَبَدًا كَيْفَ تَعَلَّمُوا ما يَفْعَلُونَ. ولَمْ يَسْأَلُوا أَبَدًا عَنْ مَعْنَى ما يَفْعَلُونَ، عَرَفُوا فَقَطْ أَنَّها تُفِيدُهُمْ فَأَقْبَلُوا عَلَيْها. وكانَ مِثْلَهُمْ.

حاوَلَ أَنْ يُطِيعَ نَفْسَــهُ ويَكُفَّ عَنِ التَّفْكِيرِ ويَنامَ.. تَمَدَّدَ بِجِوارِ النَّارِ.. ظَلَّتِ الأَسْــئِلَةُ تَتَلاحَقُ في عَقْلِه باحِثَةً عَنْ إجابَةٍ.. لَمْ يَسْتَطِعِ النَّوْمَ. اعْتَدَلَ جالِسًا، أَرادَ عَقْلُهُ النَّظَرَ إِلَى عُلُوِّ السَّماءِ، خَرَجَ ووَقَفَ أَمَامَ فَتْحَةِ الكَهْفِ، نَظَرَ إِلَى أَعْلَى، وَقَفَتْ حُدُودُ نَظَرِهِ أَسْفَلَ السُّحُبِ البَيْضاءِ الَّتِي تَتَهادَى تَحْتَ السَّــماءِ، رَآهَا وهِيَ تَتَداخَلُ مَعَ بَعْضِهَا، وتُكَوِّنُ تَشْــكِيلاتٍ تَقْتَرِبُ مِنْ أَشْكالِ الحَيَواناتِ الَّتِي يَراهَا تَتَصارَعُ عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ تَتَداخَلُ السُّحُبُ ثانِيَةً مَعَ بَعْضِهَا وتَتَلاشَى الأَشْكالُ الَّتِي أَمامَهُ وتَتَشَكَّلُ أُخْرَى. كُلُّ هَذا وهِيَ تُواصِلُ حَرَكَتَها.

تَعَجَّبَ الفَتَى مِمَّا يَراهُ، تَساءَلَ عَقْلُهُ وقالَ:

- مَنْ هَذا الَّذِي بالسَّماءِ يَسُوقُ هَذا؟ وإِلَى أَيْنَ يُوَجِّهُهُ؟

تَذَكَّرَ عَقْلُهُ تِلْكَ السُّــحُبَ الدَّاكِنَةَ الَّتِي رَآهَا وهِيَ تُفْــرِغُ ماءَهَا فَوْقَ الجَبَلِ الَّذِي يَتَوَسَّطُ جَزِيرَتَهُ، لِيَنْدَفِعَ هابِطًا في سُــرْعَةٍ مُكَوِّنًا بُحَيْرَةً تَتَفَرَّعُ مِنْهَا القَنَواتُ وتَنْتَشِرُ في الأَرْضِ لِيَشْرَبَ مِنْهَا الأَحْياءُ.. تَساءَلَ عَقْلُهُ ثانِيَةً وقالَ:

- مَنْ هَذا الَّذِي بالسَّماءِ والَّذِي يُحَرِّكُ كُلَّ هَذِه الأَشْيَاءِ؟ وإِلَى أَيْنَ يُوَجِّهُهَا؟

ابْتَعَدَتِ السُّــحُبُ.. كَشَفَتْ عَنْ نِصْفِ القَمَرِ الَّذِي كانَ فَوْقَها.. هَبَطَ نُورُهُ الفِضِّيُّ فَوْقَ قِمَمِ الأَشْــجارِ وأَعْشــابِ الْوَادِي الَّذِي أَمامَهُ. صارَ قادِرًا عَلَى أَنْ يَرَى تَفاصِيلَ الأَشْياءِ. تَعَجَّبَ ورَاحَ يَبْحَثُ بِعَقْلِه عَنْ سَبَبِ ما رَآهُ.

نَظَرَ الفَتَى إِلَى نِصْفِ القَمَرِ الفِضِّيِّ الَّذِي يُنِيرُ لَهُ الدُّنْيَا، وتَذَكَّرَ أَنَّهُ يَأْتِي في البِدايَةِ مِنْ

جانِبِ الجَزِيرَةِ حَيْثُ تَأْتِي الشَّـــمْسُ فِي الصَّباحِ.. فِي البِدَايَةِ يَكُونُ خَيْطًا رَفِيعًا مُقَوَّسًا مِثْلَ قَرْنِ التَّيْسِ، ويَخْتَفِي دُونَ أَنْ يُنِيرَ شَـــيئًا، وكُلَّ يَوْمٍ يَأْتِي أَكْبَرَ قَلِيلًا مِنَ اليَوْمِ الَّذِي سَـــبَقَهُ، ويَكْثُرُ نُورُه.. وتَطُولُ مُدَّةُ بَقائِهِ مَعَهُمْ .. وَيذْهَـــبُ، ويَتَوالَى حُضُورُه وذَهابُهُ، ويَكْبُرُ حَجْمُه، حَتَّى يَصِيرَ مُدَوَّرًا مِثْلَ عَيْنَيْ أُمِّهِ الَّتِي رَحَلَتْ، ثُمَّ يَبْدَأُ فِي النُّقْصانِ حَتَّى يَصِيرَ خَيْطًا رَفِيعًا كَمَا بَدَأَ، وفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَخْتَفِي فِي الجانِبِ الآخَرِ مِنَ الجَزِيرَةِ.. حَيْثُ تَخْتَفِي الشَّمْسُ آخِرَ كُلِّ يَوْمٍ.. ثُمَّ يَأْتِي مِنَ الجانِبِ الَّذِي يَجِيءُ مِنْهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ.

صَاحَ الفَتَى عَلَى القَمَرِ قَائِـلًا:

- كَيْفَ تُولَدُ صَغِيرًا وَتَكْبُرُ وَتَكْبُرُ ثُمَّ تَصْغُرُ وَتَصْغُرُ حَتَّى تَخْتَفِيَ؟

أَتاهُ صَوْتٌ مِنْ فَوْقِهِ يَقُولُ:

- كُلُّ الأَشْياءِ تَبْدَأُ صَغِيرَةً وَتَكْبُرُ وَتُؤَدِّي دَوْرَهَا فِي الحَياةِ ثُمَّ تَخْتَفِي.

رَفَعَ الفَتَى رَأْسَهُ عَالِيًا فَوَجَدَ البُومَةَ فِي عُشِّهَا.. قَالَ لَها مُتَسائِلًا:

- هَلْ يُولَدُ وَاحِدٌ جَدِيدٌ كُلَّ فَتْرَةٍ وَيَكْبُرُ وَيَكْبُرُ ثُمَّ يَخْتَفِي؟

أَجابَتِ البُومَةُ فِي هُدُوءٍ وَقَالَتْ:

- إِنَّهُ هُوَ هُوَ لا يَتَغَيَّرُ.

سَأَلَ الفَتَى ثانِيَةً وَقَالَ:

- لِماذَا يَكْبُرُ ثُمَّ يَصْغُرُ ثُمَّ يَخْتَفِي؟ هَلْ يَأْكُلُهُ أَحَدٌ؟ وَلِماذَا لا يَسْقُطُ عَلَى الأَرْضِ؟ هَلْ هُنَاكَ مَنْ يُمْسِكُ بِهِ فَوْق؟

أَجَابَتِ البُومَةُ قَائِلَةً:

- عَلَيْكَ أَنْ تُفَكِّرَ حَتَّى تَعْرِفَ بِنَفْسِكَ.

صَمَتَتِ البُومَةُ قَلِيلًا، ثُمَّ أَشَارَتْ إِلَى الأَشْجَارِ وَقَالَتْ:

- مَا هَذِهِ؟

أَجَابَ الفَتَى وَقَالَ:

- أَشْجَارٌ.

قَالَتِ البُومَةُ فِي حِكْمَةٍ:

- اسْــمَعْ يَا فَتَى.. سَأُعَلِّمُكَ شَيْئًا؛ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى شَجَرَةٍ فَرَأَيْتَهَا شَجَرَةً، فَأَنْتَ لَمْ تَرَهَا حَقًّا. أَمَّا إِذَا نَظَرْتَ إِلَى الشَّــجَرَةِ وَرَأَيْتَ أَنَّ وُجُودَهَا مُعْجِزَةٌ، فَقَدْ رَأَيْتَ دَلِيلًا عَلَى وُجُودِ مَنْ تَسْأَلُ عَنْهُ.

قَالَــتِ البُومَةُ هَذَا الكَلام، وَطَــارَتْ مُبْتَعِدَةً. صَارَ الفَتَى وَحِيدًا.. شَعَرَ أَنَّهُ مُجْهَدٌ، دَخَلَ إِلَى كَهْفِــهِ رُبَّما يَسْــتَطِيعُ النَّــوْمَ حَتَّى يَسْتَطِيعَ عَقْلُهُ أَنْ يُفَكِّرَ.

ظَلَّ الفَتَى مُسْـتَيْقِظًا.. كَانَتْ كَلِمَاتُ البُومَةِ العَجُوزِ مَا زَالَـتْ تَدُورُ فِي ذِهْنِهِ: إِذَا نَظَرْتَ إِلَى شَـجَرَةٍ فَرَأَيْتَ شَجَرَةً فَأَنْتَ لَمْ تَرَ الشَّجَرَةَ حَقًّا.. أَمَّا إِذَا نَظَرْتَ إِلَى الشَّجَرَةِ وَرَأَيْتَ أَنَّ وُجُودَهَا مُعْجِزَةٌ، فَقَدْ رَأَيْتَ دَلِيلًا عَلَى مَنْ تَسْـأَلُ عَنْهُ.. رَاحَ عَقْلُهُ يَتَسَـاءَلُ عَمَّا تَقْصِدُ هَذِهِ البُومَةُ وَيَقُولُ:

- مَاذَا يَعْنِي أَنْ تَرَى الشَّجَرَةَ مُعْجِزَةً؟

وَمَا مَعْنَى المُعْجِزَةِ أَصْلًا؟

وَأَيْنَ هَذِهِ القُوَّةُ الَّتِي تَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؟

خَرَجَ ثَانِيَةً إِلَى الرَّبْوَةِ، وَجَلَسَ أَمَامَ فَتْحَةِ الكَهْفِ ثَانِيَةً، وَاسْتَمَرَّ عَقْلُهُ فِي تَسَاؤُلَاتِهِ.

كَانَ حِـوارُ الفَتَى وَالبُومَةِ العَجُوزِ قَدْ أَيْقَظَ الهُدْهُدَ مِـنْ نَوْمِهِ.. وَحِينَ رَأَى أَنَّ البُومَةَ تَرَكَتْهُ عَلَى أَمَلِ أَنْ يُفَكِّرَ وَيَفْهَمَ، وَأَنَّ الفَتَى لَمْ يَصِلْ إِلَى إِجاباتٍ عَنْ تَسَـاؤُلَاتِهِ وَازْدَادَتْ حَيْرَتُهُ، تَرَكَ عُشَّهُ وَتَحَسَّسَ الطَّرِيقَ حَتَّى هَبَطَ إِلَيْهِ، وَبِالقُرْبِ مِنْ رَأْسِهِ وَقَفَ.. سَأَلَهُ قَائِلًا:

- مَا الَّذِي يُحَيِّرُكَ يا فَتَى؟

رَدَّ الفَتَى وَهُوَ شَارِدٌ وَقَالَ:

- مَا مَعْنَى مُعْجِزَة؟

أَجَابَ الهُدْهُدُ وَقَالَ:

- المُعْجِزَةُ هِيَ أَنْ يَصْنَعَ أَحَدٌ شَيْئًا لا يُمْكِنُ لِمَنْ رَأَوْهُ أَنْ يَصْنَعُوا مِثْلَهُ، ويَعْتَرِفُونَ لَهُ بِالقُدْرَةِ الَّتِي تَفُوقُ قُدْرَتَهُمْ بِكَثِيرٍ.

سَأَلَ الفَتَى وَقَالَ:

- وَمَنِ الَّذِي يَصْنَعُ المُعْجِزَةَ وَلَا نَرَاهُ؟

أَجَابَ الهُدْهُدُ حَازِمًا وَقَالَ:

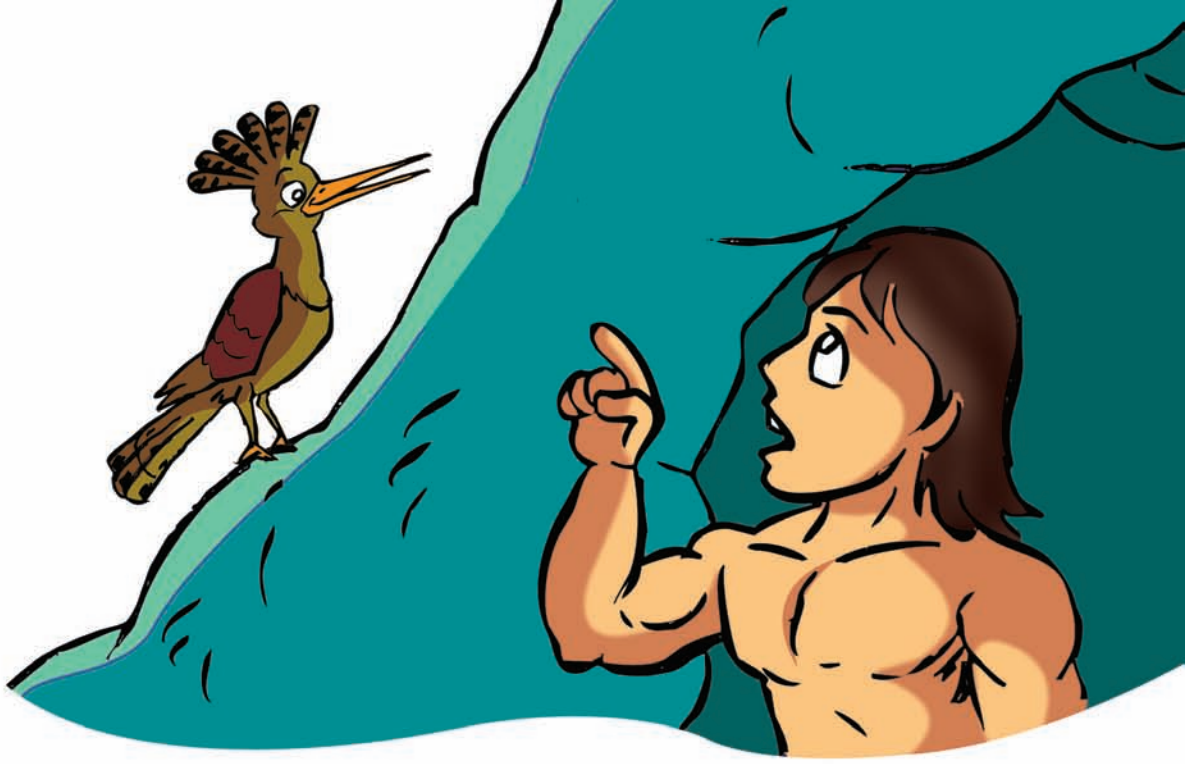

- عَلَيْكَ أَنْ تَكْتَشِفَ ذَلِكَ بِنَفْسِكَ.

عَادَ الفَتَى لِلسُّؤالِ وَقَالَ:

- هَلْ رَأَيْتَهُ؟

رَدَّ الهُدْهُدُ قَائِلًا فِي حِكْمَةٍ:

- هُوَ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ .

سَأَلَ الفَتَى ثَانِيَةً وَقَالَ:

- وَكَيْفَ تَعْرِفُ أَنَّهُ مَوْجُودٌ؟

أَجَابَ الهُدْهُدُ شَارِحًا وَقَالَ:

- تَسْتَطِيعُ أَنْ تَرَاهُ فِي الأَشْيَاءِ الَّتِي أَوْجَدَهَا عَلَى الأَرْضِ أَوْ فِي السَّمَاءِ. تَأَمَّلْ يَا فَتَى وَاكْتَشِفْ وُجُودَهُ بِنَفْسِكَ. يَا فَتَى.. إِذَا عَرَفْتَ المَوْجُودَاتِ الَّتِي حَوْلَكَ جَيِّدًا.. عَرَفْتَ مَنْ أَوْجَدَهَا.

قَالَ الهُدْهُدُ هَذَا الكَلَامَ، وَتَرَكَ الفَتَى وَعَادَ إِلَى عُشِّهِ.. صَاحَ الفَتَى عَلَيْهِ وَقَالَ سَائِلًا:

- وَمَنِ الَّذِي أَوْجَدَ المَوْجُودَاتِ الَّتِي حَوْلِي؟

أَجَابَ الهُدْهُدُ وَهُوَ يَسْتَعِدُّ لِلنَّوْمِ ثَانِيَةً:

- أَوْجَدَهَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْعَلَهَا مَوْجُودَةً مِنْ لا شَيْءٍ.

ظَلَّ الفَتَى مُفَكِّرًا، وَقَدِ اخْتَلَطَ فِي عَقْلِهِ كَلامُ الهُدْهُدِ مَعَ كَلامِ البُومَةِ. هَذِهِ تَقُولُ لَهُ:

- إِذَا نَظَرْتَ إِلَى الشَّجَرَةِ فَرَأَيْتَهَا شَجَرَةً، فَأَنْتَ لَمْ تَرَهَا حَقًّا. أَمَّا إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا وَرَأَيْتَ أَنَّ وُجُودَهَا مُعْجِزَةٌ، فَقَدْ رَأَيْتَ دَلِيلًا عَلَى وُجُودِ مَنْ تَسْأَلُ عَنْهُ.

وَهَذَا يَقُولُ لَهُ:

- تَسْتَطِيعُ أَنْ تَرَى ذَلِكَ الَّذِي فَوْقَ فِي مُعْجِزَاتِهِ.

وَأَنَّهُ إِذَا عَرَفَ المَوْجُودَاتِ الَّتِي حَوْلَهُ جَيِّدًا.. عَرَفَ مَنْ أَوْجَدَهَا.

أَدْرَكَ الفَتَى أَنَّ هُنَاكَ مَنْ أَوْجَدَ الأَشْـــياءَ الَّتِي حَوْلَهُ، وَأَنَّ الهُدْهُدَ وَالبُومَةَ يَعْرِفَانِهِ.. وَيُرِيدَانِ لَهُ أَنْ يَعْرِفَهُ بِنَفْسِـــهِ. وَأَدْرَكَ أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَعُودَ إِلَى البَحْثِ عَنْهُ فِي الأَشْـــيَاءِ الَّتِي حَوْلَهُ؛ فَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِهِ. وَقَرَّرَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ فِي الصَّبَاحِ.

هَبَّتْ نَسْمَةٌ جَعَلَتْهُ يَشْعُرُ بِالبَرْدِ، نَظَرَ إِلَى النَّارِ دَاخِلَ الكَهْفِ يَسْأَلُهَا الدِّفْءَ ، وَجَدَ لَهِيبَهَا يَتَرَاقَصُ فِي الهَوَاءِ .. فَتَمَدَّدَ بِجِوارِهَا ونَامَ.

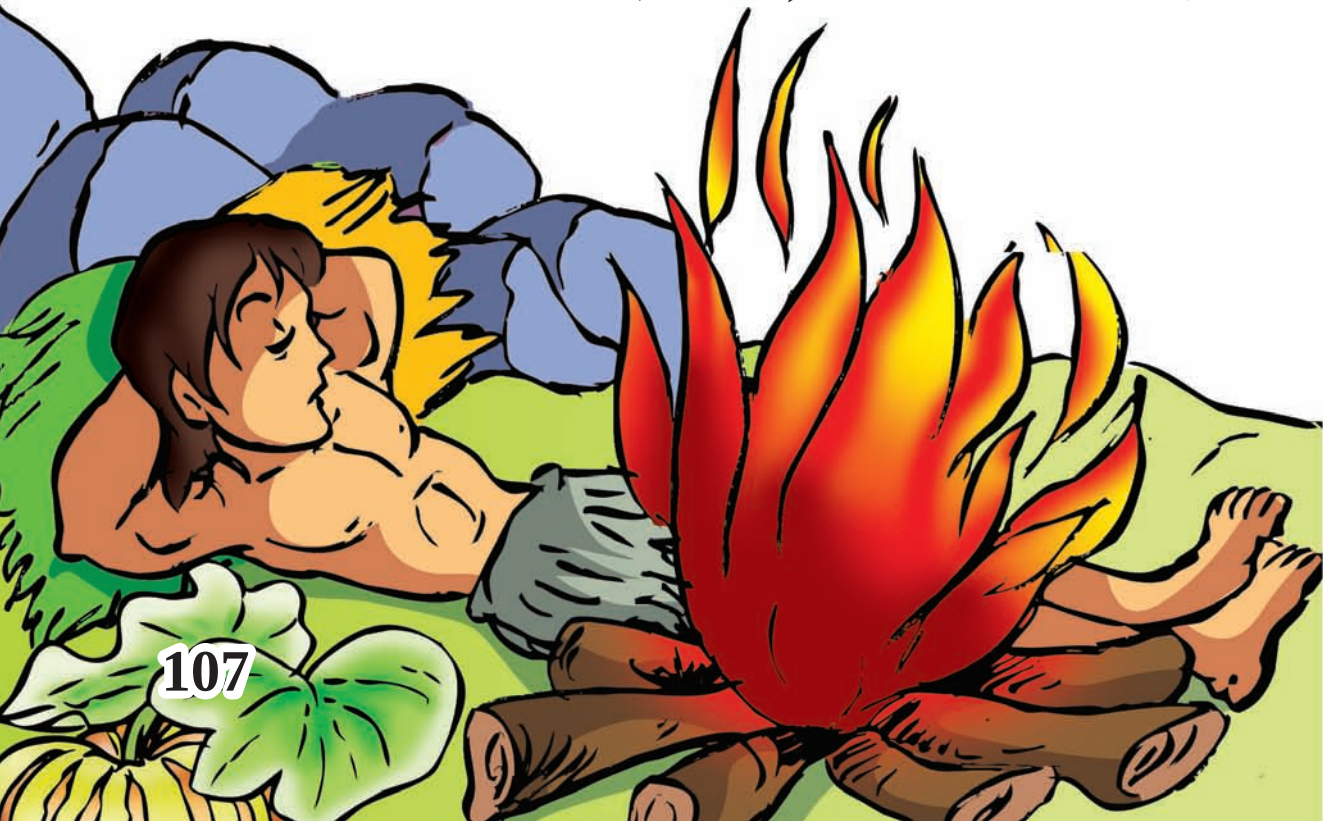

٢٧

مَرَّتْ أَيَّامٌ وَشُهُورٌ كَثِيرَةٌ وَالفَتَى يَصْحُو مِنْ نَوْمِهِ كُلَّ صَبَاحٍ، يُطْعِمُ النَّارَ بِمَا يَكْفِيهَا طَوَالَ اليَوْمِ، يَهْبِطُ مِنْ كَهْفِهِ، يَسْتَقْبِلُهُ الحِصَانُ بِصَهِيلٍ مُتَقَطِّعٍ مُرَحِّبًا بِهِ، يَدْخُلُ إِلَيْهِ فِي خَمِيلَتِهِ، يَتَمَسَّحُ الحِصَانُ بِجَسَدِهِ، يُرَبِّتُ الفَتَى عَلَى جَبْهَتِهِ بِحَنَانٍ، يَقْفِزُ عَلَى ظَهْرِهِ.. وَيَخْرُجُ بِهِ فِي رِحْلَاتٍ يَتَأَمَّلُ فِيهَا الفَتَى كُلَّ المَخْلُوقَاتِ.

كَانَ الحِصَانُ يَسِيرُ بِالفَتَى مُتَبَخْتِرًا فِي مَمَرَّاتِ الجَزِيرَةِ، يَقِفُ أَمَامَ أَشْجَارِهَا.. يَقْضِمُ مِنْ أَوْرَاقِهَا.. وَيَجْنِي الفَتَى مِنْ ثِمَارِهَا إِفْطَارَهُ، وَيَتَأَمَّلُ كُلَّ مَا تَرَاهُ عَيْنَاهُ مِنْ أَشْجَارٍ وَطُيُورٍ وَحَيَوَانَاتٍ، وَسَمَاءٍ عَالِيَةٍ تَتَهَادَى مِنْ تَحْتِهَا سُحُبٌ مُخْتَلِفَةٌ بَيْضَاءُ وَسَوْدَاءُ، وَشَمْسٌ تَأْتِي مِنَ الشَّرْقِ تَسِيرُ فِي أُفُقٍ لَا تُغَيِّرُهُ حَتَّى تَخْتَفِيَ فِي الغَرْبِ.

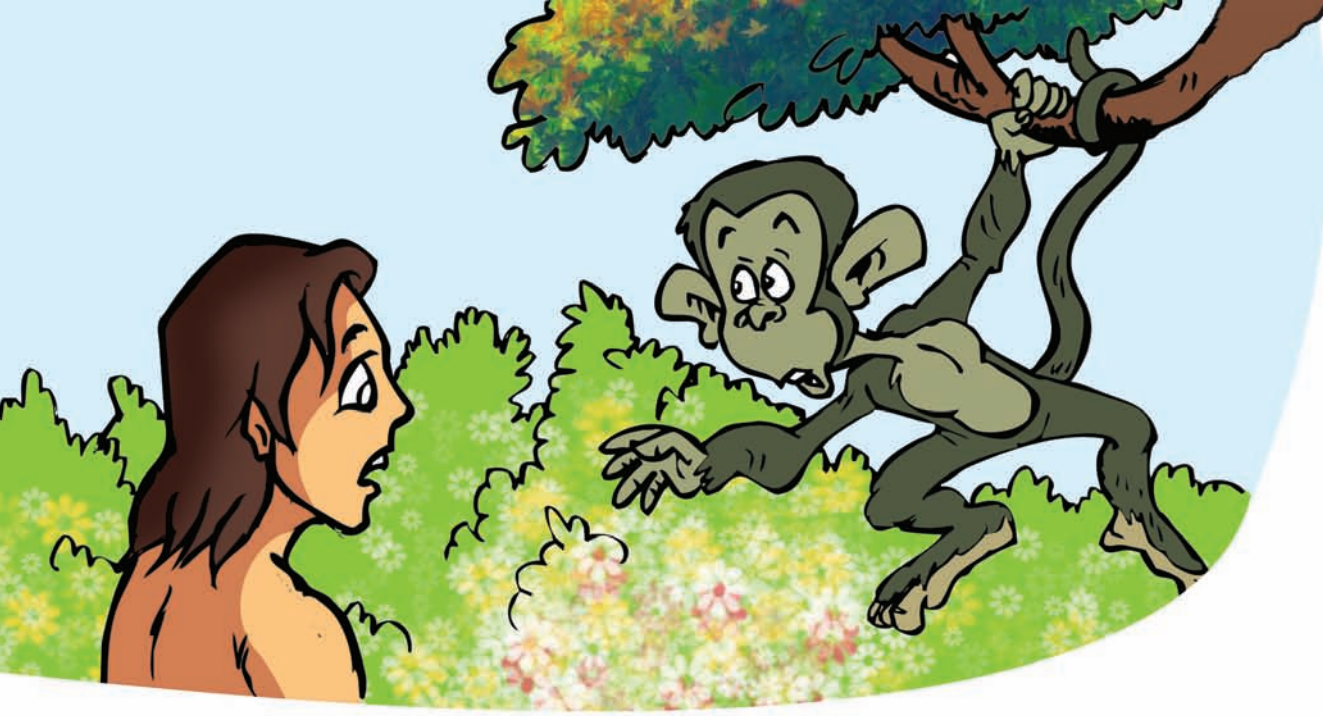

رَأَى الفَتَى كُلَّ أَنْوَاعِ الأَشْجَارِ.. تَأَمَّلَ فِي أَشْكَالِهَا، كُلُّهَا لَهَا جُذُوعٌ وَأَفْرُعٌ وَأَوْرَاقٌ.. وَكُلُّهَا تُنْتِجُ زُهُورًا، تَعِيشُ الزُّهُورُ أَيَّامَهَا، ثُمَّ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُ وَرَاءَهَا الثِّمَارَ. لَكِنْ لَا جِذْعَ يُشَابِهُ جِذْعًا.. وَلَا فَرْعَ يُشَابِهُ فَرْعًا.. وَلَا وَرَقَةَ تُشَابِهُ وَرَقَةً..وَلَا زَهْرَةَ تُشَابِهُ زَهْرَةً.. وَلَا ثَمَرَةَ تُشَابِهُ ثَمَرَةً، كُلُّ هَذَا الاخْتِلَافِ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الأَرْضَ وَاحِدَةٌ، وَالطَّعَامُ وَاحِدٌ.. وَالشَّرَابُ وَاحِدٌ.

اكْتَشَفَ الفَتَى أَنَّ هُنَاكَ أَشْجارًا غَيْرَ مُثْمِرَةٍ تَتَوَسَّطُ الأَشْجَارَ الَّتِي تَحْمِلُ الثِّمَارَ. تَوَقَّفَ عِنْدَهَا كَثِيرًا.. تَسَاءَلَ عَقْلُهُ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي جَعَلَهَا غَيْرَ مُثْمِرَةٍ.

قَرَأَ قِرْدُ الحَيْرَةَ فِي عَيْنَيْهِ.. قَفَزَ حَتَّى هَبَطَ إِلَى مُسْتَوَى رَأْسِهِ، قَالَ لَهُ:

- هَذِهِ شَجَرَةٌ ذَكَرٌ.

سَأَلَ الفَتَى فِي دَهْشَةٍ وَقَالَ:

- هَلْ فِي الأَشْجَارِ ذُكُورٌ وَإِنَاثٌ مِثْلَ الحَيَوانِ؟

قَالَ لَهُ القِرْدُ:

- كُلُّ المَخْلُوقَاتِ فِيهَا ذَكَرٌ وَأُنْثَى.. وَبِدُونِهِمَا مَعًا لَا يَأْتِي الصِّغَارُ؛ فَلَا الذَّكَرُ وَحْدَهُ قَادِرٌ عَلَى الإِنْجَابِ، وَلَا الأُنْثَى وَحْدَهَا قَادِرَةٌ أَيْضًا.

قَالَ القِرْدُ هَذَا الكَلَامَ، وقَفَزَ صَاعِدًا يَتَعَلَّقُ بِالفُرُوعِ وَهُوَ يَقُولُ:

- تَعَلَّمْ يَا فَتَى.

سَارَ الفَتَى يُفَكِّرُ فِي كَلامِ القِرْدِ، عَادَ إِلى طُفُولَتِهِ ثَانِيَةً، كَانَ هُنَاكَ إِنَاثٌ مِثْلَ أُمِّهِ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ.. وَكَانَ هُنَاكَ الذُّكُورُ أَصْحَابُ القُرُونِ مِثْلَ التَّيْسِ الَّذِي تَعَارَكَ مَعَهُ. وَبِالفِعْلِ كَانُوا يَعِيشُونَ مَعًا وَتَلِدُ الأُنْثَى الصِّغَارَ. لَمْ يَرَ ذَكَرًا يَلِدُ أَبَدًا.. وَلَمْ يَرَ أُنْثَى تَلِدُ بِدُونِ ذَكَرٍ يَعِيشُ مَعَهَا.. تَسَاءَلَ وَقَالَ:

- هَلِ الطُّيُورُ أَيْضًا كَذَلِكَ؟

رَفَعَ الفَتَى رَأْسَهُ إِلَى الطُّيُورِ. كَانَ عَقْلُهُ أَشَدَّ حَيْرَةً وَأَكْثَرَ تَفْكِيرًا.. فَمِثْلُهَا مِثْلُ النَّبَاتِ والحَيَواناتِ، وَجَدَ كُلَّ زَوْجَيْنِ يَتَجَاوَرانِ فِي العُشِّ أَوْ فَوْقَ الفُرُوعِ . أَدْرَكَ أَنَّ الحَياةَ كُلَّهَا قَائِمَةٌ عَلَى زَوْجَيْنِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ ونَوْعٍ.

عادَ ثانِيَةً يَتَأَمَّلُ خَلْقَ الله.. وَجَّهَ الفَتَى نَظَرَهُ وفِكْرَهُ إِلَى كُلِّ فَصائِلِ الحَيَواناتِ، كُلُّهَا لهَا جَسَدٌ يَسِيرُ عَلَى أَرْبَعةِ قَوائِمَ، ولَهَا ذَيْلٌ يُخْفِي عَوْرَتَها ورَأْسٌ يَحْمِلُ عَيْنَيْنِ وأُذُنَيْنِ وشَفَتَيْنِ وأَنْفًا لَهُ فَتْحَتانِ، ويَتَشابَهُ أَعْضَاءُ الفَصِيلِ الواحِدِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، ويَخْتَلِفُ مَعَ أَعْضَاءِ الفَصائِلِ

الأُخْرَى اخْتِلافَاتٍ قَلِيلَةً.. هَذِهِ كَبِيرَةُ الحَجْمِ وهَذِهِ صَغِيرَةٌ، وهَذِهِ رَأْسُها بِهِ قُرُونٌ وهَذِهِ رَأْسُهَا أَمْلَسُ، وهَذَا سَرِيعُ الجَرْيِ وهَذَا بَطِيءٌ، وهَذَا يَتَسَلَّقُ الأَشْجارَ وهَذَا لا يَسْتَطِيعُ.

وحِينَ عادَ يَتَأَمَّلُ الطُّيورَ ثانِيَةً .. أَدْرَكَ أَنَّهُمْ يَتَشابَهُونَ فِي شَكْلِهِمُ العَامِّ وفِي قُدْرَتِهِمْ عَلَى الطَّيَرانِ، ولكِنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي اللَّوْنِ والحَجْمِ والصَّوْتِ وشَكْلِ العُشِّ وحَجْمِهِ.

صارَ الفَتَى كُلَّمَا رَأَى وتَأَمَّلَ ما يَراهُ.. يَزْدَادُ إيمَانًا بِأَنَّ هُنَاكَ قُوَّةً جَبَّارَةً تُوجَدُ فِي الأَعالِي، حَيْثُ تَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا الأَشْجارُ وتَصْعَدُ إِلَيْهَا قَطَراتُ المَاءِ الدَّقِيقَةُ، وهَذِهِ القُوَّةُ قادِرَةٌ عَلَى إيجَادِ كُلِّ هَذِهِ الأَشْياءِ.

وبَعْدَ أَنْ كانَ يَسْأَلُ: مَنِ الَّذِي اسْتَطاعَ أَنْ يَخْلُقَ كُلَّ هَذَا؟ صارَ يَسْأَلُ: كَيْفَ اسْتَطاعَ صاحِبُ هَذِهِ القُوَّةِ أَنْ يَفْعَلَ كُلَّ هَذَا عَلَى الأَرْضِ؛ وأَنْ يُوجِدَ كُلَّ هَذِهِ المَوْجُوداتِ، وأَنْ يَجْعَلَ فِيهَا كُلَّ هَذَا التَّشابُهِ وكُلَّ هَذَا التَّنَوُّعِ والاخْتِلافِ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ؟

28

وَقَفَ عَقْلُ الفَتَى يُفَكِّرُ كَثِيرًا في صاحِبِ هَذِه القُوَّةِ الجَبَّارَةِ الَّتِي تَسْــتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَ أَشْياء يَعْجِزُ كُلُّ مَنْ عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَفْعَلَهَا، ويَتَأَمَّلُ مُعْجِزَاتِهِ مِنْ حَوْلِهِ ويَقُولُ لِنَفْسِه:

- لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَرْفَعَ سَقْفًا بِدُونِ أَعْمِدَةٍ تَحْمِلُهُ. وهَذِهِ القُوَّةُ رَفَعَتْ هَذا السَّقْفَ الأَزْرَقَ عالِيًا بِدُونِ عَمَدٍ، وجَمَّلَتْهُ بِلآلِئَ تَلْمَعُ في الظَّلام.

ولَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ سَطْحِ المَاءِ قَطَراتٍ دَقِيقَةً تَصْعَدُ إِلَى أَعْلَى وتَتَجَمَّعُ في سَحاباتٍ تَتَراقَصُ هُناكَ . وهَذِهِ القُوَّةُ رَفَعَتْهَا مِنْ سَطْحِ البَحْرِ إِلَى أَعْلَى.

ولَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَسُوقَ السَّحابَ في الأَعَالي ويَجْعَلَهُ يُفْرِغُ ماءَهُ ثانِيَةً إِلَى الأَرْضِ.

وهَذِهِ القُوَّةُ فَعَلَتْهَا وجَعَلَتْهَا تُنْزِلُ مَاءَها فَوْقَ الجَزِيرَةِ.

ولَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَجْعَلَ المَاءَ يَنْسَابُ فَوْقَ سَطْحِ الأَرْضِ فَتَنْبُتُ أَشْجَارٌ مُخْتَلِفَةُ الأَشْكَالِ والأَنْواعِ والثِّمارِ. وهَذِهِ القُوَّةُ فَعَلَتْ وأَنْبَتَتِ البُذُورَ في كُلِّ مَكانٍ.

ولَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَجْعَلَ الأَشْجارَ تَحْمِلُ بُذُورًا تَحْمِلُهَا الرِّياحُ وجُلُودُ الحَيَواناتِ ومَناقِيرُ الطَّيْرِ لِتَسْقُطَ مِنْهَا عَلَى أَرْضٍ خالِيَةٍ فَتُنْبِتَ طَعامًا شَهِيًّا لِمَنْ أَرادَ. وهَذِهِ القُوَّةُ فَعَلَتْ ذَلِكَ، ووَجَدَ الجَمِيعُ طَعامَهُ.

ولَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَجْعَلَ هُناكَ ظَلامًا ونُورًا. وهَذِهِ القُوَّةُ فَعَلَتْ ذَلكَ وجَعَلَتْ هُناكَ ظَلامًا يَنامُونَ فِيهِ.. ونُورًا يَسْعَوْنَ فِيهِ بَيْنَ الطُّرُقاتِ يَأْكُلُونَ ويَشْرَبُونَ.

آمَنَ الفَتَى بِأَنَّ هُناكَ في السَّماءِ مَنْ يَحْمِلُ قُوَّةً تُسَيْطِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وتَفْعَلُ كُلَّ شَيْءٍ، فَهَدَأَ قَلْبُهُ وصَارَ عَقْلُهُ يُفَكِّرُ في صَاحِبِ هَذِه القُوَّةِ.

وذاتَ لَيْلَةٍ.. كانَ القَمَرُ بَدْرًا، يَنْشُرُ نُورَهُ الفِضِّيَّ فَوْقَ قِمَمِ الأَشْجارِ وعَلَى الرَّوابِي الخَضْراءِ، وقَدْ هَدَأَتْ كُلُّ الطُّيورِ في أَعْشاشِهَا.. وآوَتْ كُلُّ الحَيَواناتِ إِلَى جُحُورِهَا

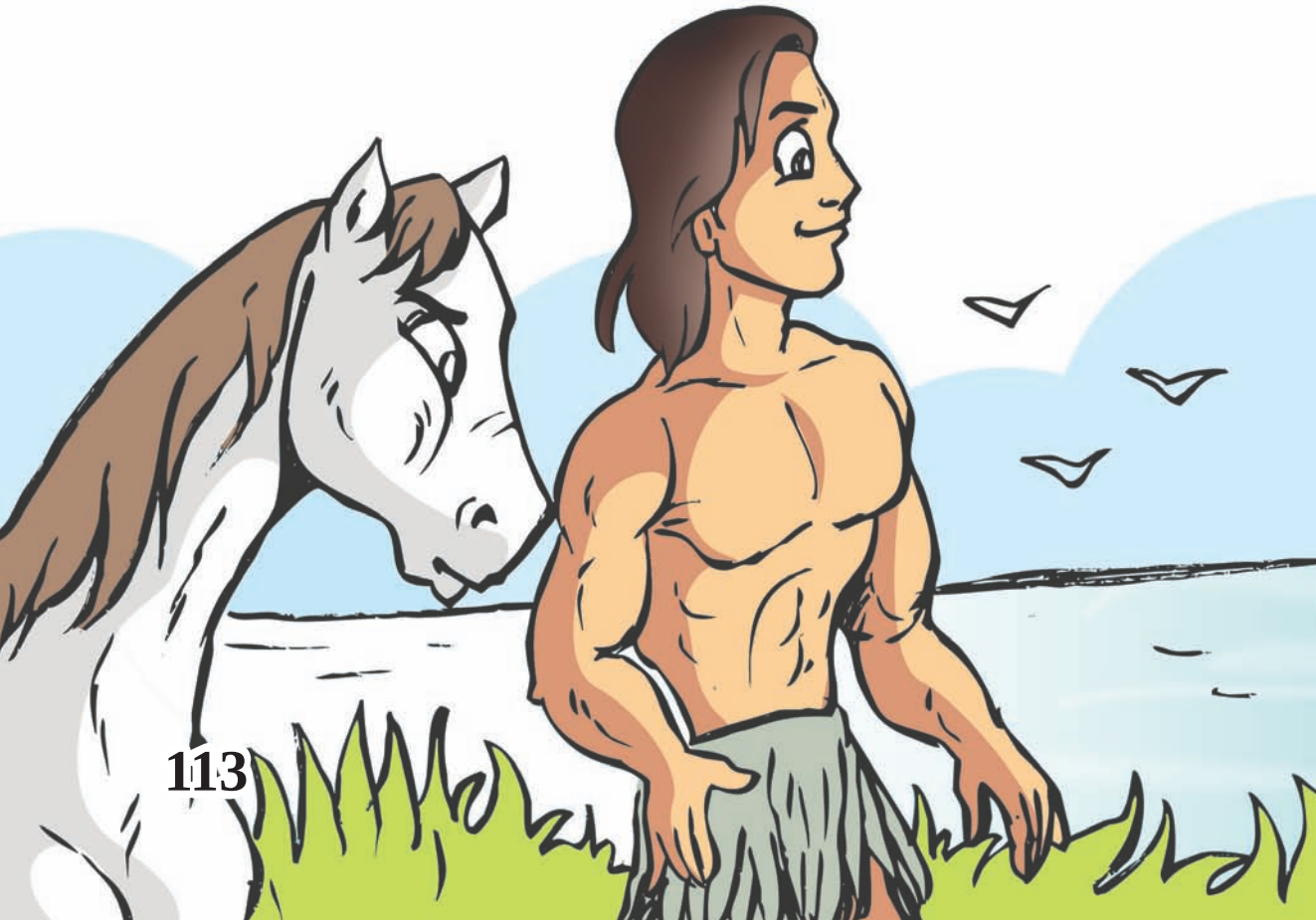

وأَوْكارِهَا.. وسَكَنَ اللَّيْلُ.

كانَ الفَتَــى أَمَامَ كَهْفِهِ يُفَكِّــرُ في صاحِبِ تِلْكَ القُوَّةِ الَّذِي اسْــتَطاعَ أَنْ يَفْعَلَ ما لَمْ يَسْــتَطِعْ أَحَدٌ غَيْرُهُ أَنْ يَصْنَعَهُ، ولَمْ يَسْــتَطِعْ هُوَ أَنْ يَراهُ بِعَيْنَيْه.. لَكِنَّهُ رَآهُ في كُلِّ شَيْءٍ أَوْجَدَهُ عَلَى الأَرْضِ مِنْ حَوْلِه. قالَ لَهُ عَقْلُهُ:

- لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِصَاحِبِ هَذِه القُوَّةِ اسْمٌ تُنادِيه بِهِ مَخْلُوقاتُهُ الَّتِي أَوْجَدَهَا.

صاحَ مُنادِيًا مَنْ في السَّماءِ وقالَ:

- أَيُّها الجَبَّارُ الَّذِي فَوْقَ، مَنْ أَنْتَ؟ وكَيْفَ أُنادِيكَ؟

أَتاهُ صَوْتُ البُومَةِ العَجُوزِ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ يَقُولُ لَهُ:

- هُوَ اللهُ يا فَتَى.

سَأَلَ الفَتَى مُتَعَجِّبًا، وقالَ:

- اللهُ؟! مَنِ اللهُ؟

أَجابَتِ البُومَةُ في وَقارٍ، وقالَتْ:

- هُوَ الخالِقُ الَّذِي تُسَبِّحُ لَهُ كُلُّ المَخْلُوقاتِ يا فَتَى، فَتَأَدَّبْ في حَدِيثِكَ مَعَهُ.

سَأَلَ الفَتَى في أَدَبٍ، وقالَ:

- ما مَعْنَى تُسَبِّحُ لَهُ؟

أَجابَتِ الْبُومَةُ في حِكْمَةٍ، وقالَتْ:

- يَعْنِـي أَنْ تُعَظِّمَهُ وتَحْمَدَهُ عَلَى كُلِّ ما أَعْطاهُ، وتُكَبِّرَهُ فَلا أَحَدَ أَكْبَرُ مِنْهُ، وتُنَزِّهَهُ عَنِ الخَطَأ فَهُوَ لا يُخْطِئُ أَبَدًا.

سَأَلَ الفَتَى ثانِيَةً وقالَ:

- ومَاذَا أَقُولُ حَتَّى أُسَبِّحَ لَهُ مِثْلَ كُلِّ المَخْلُوقاتِ؟

أَجابَتِ البُومَةُ وقالَتْ:

- تَقُولُ: سُبْحانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ ولا إِلَهَ إِلَّا اللهُ واللهُ أَكْبَرُ.

صَمَتَتِ البُومَةُ وعادَتْ تَدُورُ بِرَأْسِهَا تَبْحَثُ بِعَيْنَيْهَا الْحَادَّتَيْنِ عَنْ فَأْرٍ يَسْرَحُ في الأَرْضِ أَوْ عُصْفُـورٍ تَنـازَلَ عَـنْ حِرْصِهِ وخَرَجَ مِنْ عُشِّهِ، أَمَّا الكَلِماتُ فَقَـدْ حَفِظَهَـا الفَتَى في عَقْلِـه، ورَاحَ يُرَدِّدُها، وكُلَّما كَرَّرَهَا لِسَانُهُ أَحَبَّ اللهَ الَّذِي عَرَفَهُ بِعَقْلِهِ وصَدَّقَ قَلْبُهُ بِوُجُودِهِ وقُدْرَتِهِ، ونامَ لَيْلَتَهُ راضِيًا .

٢٩

اكْتَشَفَ الفَتَى وُجُودَ اللهِ ـ سُبْحانَهُ وتَعالَى ـ بَعْدَ أَنْ رَآهُ في مَخْلُوقاتِهِ عَلَى الأَرْضِ، وآمَنَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَوْجَدَ كُلَّ شَيْءٍ، وهُوَ الَّذِي يَرْعَى كُلَّ شَيْءٍ، وكُلَّما رَدَّدَ كَلِماتِ التَّسْبِيحِ الَّتِي عَلَّمَتْهَا لَهُ البُومَةُ ازْدادَ إِيمانًا باللهِ وحُبًّا فِيهِ، وهَدَأَتْ نَفْسُهُ وشَعَرَتْ بالرَّاحَةِ والأَمانِ، واسْتَسْلَمَتْ لِلْخالِقِ يَفْعَلُ بِهَا ما يَشَاءُ . ولَمْ يَعُدْ يَشْعُرُ بالخَوْفِ مِنَ الحَيَواناتِ، وفَقَدَتِ الحَيَواناتُ والطُّيُورُ خَوْفَهُمْ مِنْهُ، وصَارُوا يُرَحِّبُونَ بِهِ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ كَهْفِهِ بِدُونِ حَرْبَةٍ خَشَبِيَّةٍ في يَدِهِ، ويَسِيرُ في مَمَرَّاتِ الجَزِيرَةِ عَلَى قَدَمَيْهِ.. فَتَسِيرُ الحَيَواناتُ بالقُرْبِ مِنْهُ، وتَتَراقَصُ فَوْقَ رَأْسِهِ الطُّيُورُ وتُقَدِّمُ لَهُ الثِّمارَ، حَتَّى الأَشْجارُ إِذَا رَأَتْهُ يُرِيدُ أَنْ يَجْنِيَ شَيْئًا مِنْ ثِمارِها، صارَتْ تَحْنِي لَهُ الفُرُوعَ حَتَّى يَأْخُذَ ما يُرِيدُ.

وذاتَ لَيْلَةٍ.. كانَ الفَتَى يَجْلِسُ في نُورِ القَمَرِ الفِضِّيِّ يَتَأَمَّلُ الحَياةَ مِنْ حَوْلِهِ، ويُسَبِّحُ للهِ الخَالِقِ لِكُلِّ شَيْءٍ، وفَجْأَةً سَأَلَتْهُ نَفْسُهُ سُؤَالًا حَيَّرَهُ، وقالَتْ لَهُ:

ـ ومَا أَدْراكَ أَنَّ الَّذِي تُسَبِّحُ لَهُ هَذا إِلَهٌ واحِدٌ .. مَا أَدْراكَ أَنَّهُ لا تُوجَدُ آلِهَةٌ كَثِيرَةٌ غَيْرُهُ؟

صَمَتَ العَقْلُ ولَمْ يُجِبْ.

هَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ هُناكَ قُوَّتانِ كَبِيرَتانِ قادِرَتانِ عَلَى عَمَلِ مُعْجِزاتٍ عَلَى الأَرْضِ؟!

فَكَّرَ العَقْلُ في كُلِّ ما رَآهُ: الأَشْجارُ كُلُّهَا مُتَشابِهَةٌ.. لَهَا جُذُوعٌ وفُرُوعٌ وأَوْراقٌ.. لَكِنَّهَا تَخْتَلِفُ مِنْ شَجَرَةٍ إِلَى شَجَرَةٍ في كُلِّ شَيْءٍ، والطُّيُورُ مُتَشابِهَةٌ في كُلِّ شَيْءٍ فَكُلُّهَا لَهَا أَجْنِحَةٌ تَطِيرُ بِهَا في الهَواءِ ومَناقِيرُ تَأْكُلُ بِهَا.. لَكِنَّهَا تَخْتَلِفُ مِنْ طائِرٍ إِلَى طائِرٍ في الحَجْمِ واللَّوْنِ ونَوْعِ الطَّعامِ وصَوْتِ الغِناءِ، والحَيَواناتُ كُلُّهَا

مُتَشَابِهَةٌ؛ فَكُلُّهَا تَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، لَكِنَّها تَخْتَلِفُ مِنْ نَوْعٍ إِلَى آخَرَ فِي الحَجْمِ واللَّوْنِ.

وأَخِيرًا قالَ لِلنَّفْسِ:

- لَــوْ كانَ هُناكَ قُوَّةٌ أُخْرَى قادِرَةٌ عَلَى أَنْ تَأْتِيَ بِمُعْجِزاتٍ لأَتَتْ بِأَشْــياء تَخْتَلِفُ عَنْ مُعْجِزاتِ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى.

ثُمَّ قالَ مُؤَكِّدًا:

- لَوْ كانَ هُناكَ قُوَّتانِ لَتَصارَعَتَا، واخْتَلَّ نِظامُ الحَياةِ عَلَى الأَرْضِ.

شَــرَدَتْ نَفْسُ الفَتَى.. عادَتْ إِلَى الوَراءِ.. إِلَى زَمَنِ الطُّفُولَةِ، تَذَكَّرَتْ صِراعَ التُّيُوسِ، كُلٌّ مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْرِضَ سَيْطَرَتَهُ عَلَى الآخَرِينَ.. رَأَتْهُمْ وقَدْ تَشابَكَتْ قُرُونُهُمْ وكُلٌّ مِنْهُمْ يُحاوِلُ أَنْ يَدْفَعَ الآخَرَ حَتَّى يُوقِعَهُ عَلَى الأَرْضِ، ويَسْتَمِرُّ الصِّراعُ حَتَّى يَتَغَلَّبَ القَوِيُّ عَلَى الضَّعِيفِ، فَيَنْسَحِبَ ذَلِيلًا ويَتْرُكَ الْمَكانَ لِلْقَوِيِّ الَّذِي يَخْتالُ بِنَفْسِهِ أَمامَ الجَمِيعِ. أَفاقَتِ النَّفْسُ مِنْ شُرُودِهَا وقالَتْ لِلْعَقْلِ:

- مَعَكَ حَقٌّ.. هُوَ إِلَهٌ واحِدٌ لا شَرِيكَ لَهُ.

عادَ الفَتَى إِلَى هُدُوئِهِ وتَسْبِيحِهِ لِلهِ الوَاحِدِ.

اقْتَرَبَ مِنْهُ الهُدْهُدُ وقالَ لَهُ:

- هَلْ رَأَيْتَ اللهَ كَمَا كُنْتَ تُرِيدُ؟

أَجابَ الفَتَى فِي خُشُــوعٍ وقالَ:

- رَأَيْتُهُ فِي كُلِّ مَخْلُوقاتِهِ؛ فَجَمِيلُ صُنْعِهِ وآثارُ نِعْمَتِهِ تَمْلَأُ الوُجُودَ.

سَأَلَ الهُدْهُدُ وقالَ:

- هَلْ تَشْعُرُ بِأَنَّهُ يَراكَ ؟

أَجابَ الفَتَى، وقالَ:

- اللهُ يَرانِي ويَسْمَعُنِي؛ لأَنَّهُ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا.

عادَ الهُدْهُدُ للسُّؤَالِ، وقالَ:

- هَلْ أَدْرَكْتَ قُدْرَتَهُ عَلَى الخَلْقِ؟

أَجابَ الفَتَى وقالَ:

- مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُقَ كُلَّ هَذا الَّذِي حَوْلِي فَهُوَ قادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

قالَ الهُدْهُدُ فِي حِكْمَةٍ:

- الآنَ عَرَفْتَ اللهَ يا فَتَى .. الآنَ عَرَفْتَ اللهَ.

طارَ الهُدْهُدُ فِي الهَوَاءِ وهُوَ يُسَبِّحُ لِلهِ ويَحْمَدُهُ عَلَى ما أَعْطاهُ، وواصَلَ الفَتَى تَأَمُّلاتِهِ فِي خَلْقِ اللهِ . وظَلَّ عَلَى حالِهِ حَتَّى كادَ اللَّيْلُ يَنْتَهِي ولَسَعَهُ البَرْدُ، فَقامَ إِلَى كَهْفِهِ يَطْلُبُ الدِّفْءَ مِنَ النَّارِ، وحِينَ شَعَرَ بِالدِّفْءِ نَامَ.

30

وتوالَتِ الأَيَّامُ عَلَى الفَتَى ، يَقْضِي نَهارَهُ وأَغْلَبَ لَيْلِهِ يُسَبِّحُ للهِ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ مِــنْ حَوْلِهِ، وكُلَّما انْطَلَقَتِ الكَلِمَاتُ مِنْ فَمِــهِ ازْدادَ إيمَانًا.. وكُلَّمَا اتَّجَهَ بِقَلْبِهِ وعَقْلِهِ ورُوحِهِ إِلَى اللهِ شَــعَرَ بِقُوَّةٍ رُوحانِيَّةٍ تَرْبِطُهُ بِهِ سُــبْحانَهُ، ويَرَى خَلْقَهُ عَلَى الأَرْضِ آياتٍ صَرِيحَةً عَلَى وُجُودِهِ.

أَدْرَكَ الفَتَى أَنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وتَعالَى ـ واحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وهُوَ وَحْدَهُ الخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ.

وهُوَ الَّذِي صَوَّرَ مَخْلُوقَاتِه صُوَرًا مُتَناسِــقَةً ومُخْتَلِفَةً فِي الوَقْتِ نَفْسِــهِ؛ لِتَكُونَ آيَةً ومُعْجِزَةً تُظْهِرُ قُوَّتَهُ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَأَمَّلَ ويَعْرِفَ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ.

وهُوَ البَاطِنُ الَّذِي لا يَرَى أَحَدٌ صُورَتَهُ.

وهُوَ الظَّاهِرُ فَوْقَ مَخْلُوقاتِهِ.

وهُوَ القَوِيُّ الجَبَّارُ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وهُوَ الَّذِي رَفَعَ السَّماءَ عالِيَةً بِلَا أَعْمِدَةٍ تَرْفَعُهَا.

وهُوَ الَّذِي يَسُوقُ السَّحابَ لِيُمْطِرَ عَلَى الأَرْضِ الجَرْداءِ.

وهُوَ الَّذِي يَأْمُرُ الأَرْضَ فَتُنْبِتُ البُذُورَ بَراعِمَ يَرْعاهَا حَتَّى تُعْطِيَ ثِمَارَها رِزْقًا لِمَخْلُوقاتِهِ.

وهُوَ الَّذِي جَعَلَ فِي كُلِّ مَخْلُوقٍ وَسِيلَةً يُدافِعُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ.

وهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ لِدَوامِ النَّسْلِ وعِمَارَةِ الكَوْنِ.

عَرَفَ الفَتَى اللهَ واطْمَأَنَّ قَلْبُه لَهُ.

وذاتَ يَوْمٍ.. بَيْنَمَا كانَ يَسِــيرُ فِي مَمَرَّاتِ الجَزِيرَةِ غارِقًا فِي تَأَمُّلاتِهِ لِمُعْجِزاتِ اللهِ فِي خَلْقِهِ، حاوَرَتْهُ نَفْسُهُ وقالَتْ لَهُ:

ـ أَلَا تَقُولُ إِنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي أَوْجَدَ كُلَّ هَذِه المَخْلُوقاتِ؟

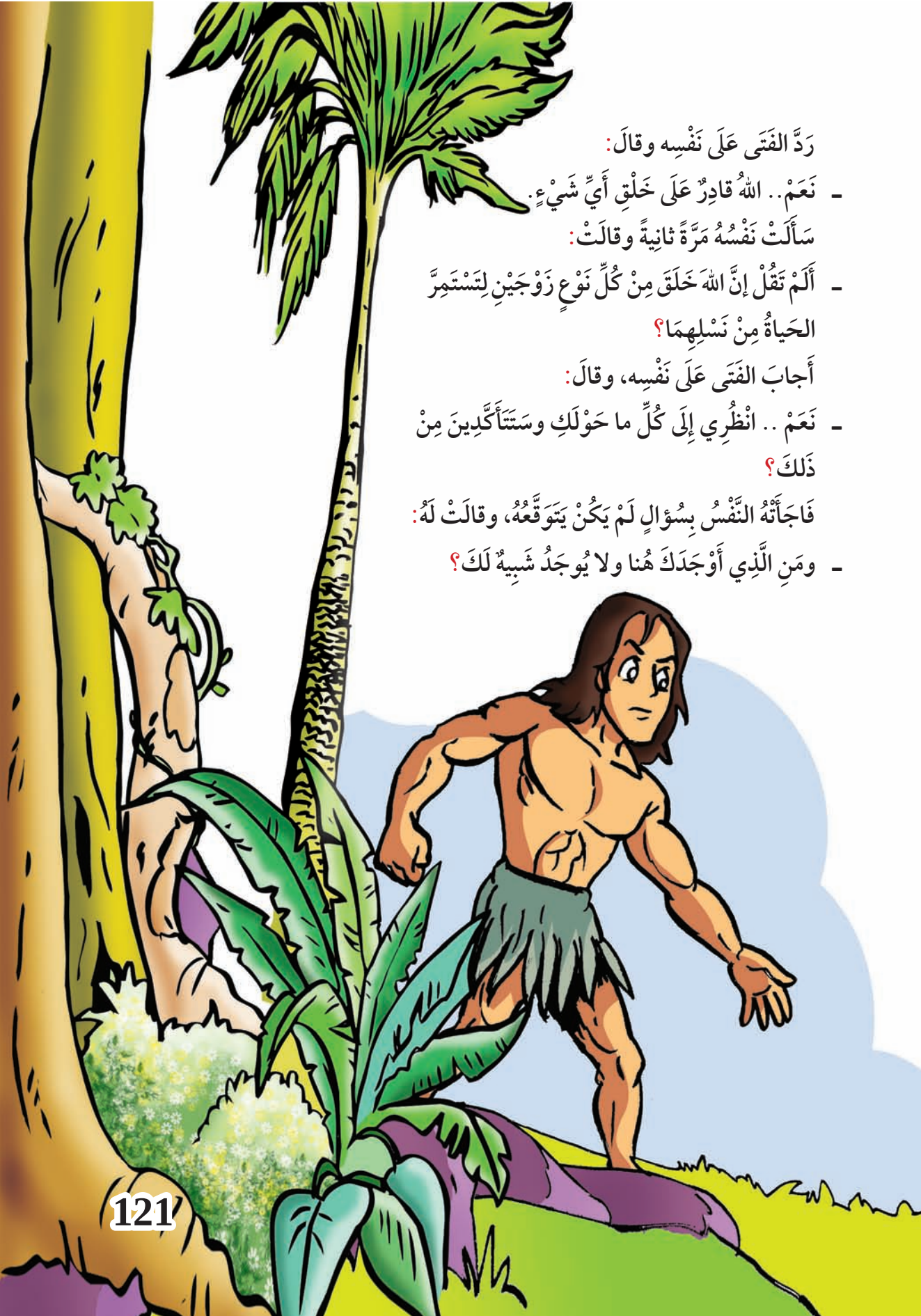

رَدَّ الفَتَى عَلَى نَفْسِه وقالَ:

- نَعَمْ.. اللهُ قادِرٌ عَلَى خَلْقِ أَيِّ شَيْءٍ.

سَأَلَتْ نَفْسُهُ مَرَّةً ثانِيةً وقالَتْ:

- أَلَمْ تَقُلْ إِنَّ اللهَ خَلَقَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ زَوْجَيْنِ لِتَسْتَمِرَّ الحَياةُ مِنْ نَسْلِهِمَا؟

أَجابَ الفَتَى عَلَى نَفْسِه، وقالَ:

- نَعَمْ .. انْظُرِي إِلَى كُلِّ ما حَوْلَكِ وسَتَتَأَكَّدِينَ مِنْ ذَلكَ؟

فَاجَأَتْهُ النَّفْسُ بِسُؤالٍ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُهُ، وقالَتْ لَهُ:

- ومَنِ الَّذِي أَوْجَدَكَ هُنا ولا يُوجَدُ شَبِيهٌ لَكَ؟

أَصابَ السُّـــؤَالُ عَقْلَ الفَتَى بالْحَيْرَةِ. صَحِيحٌ! كَيْفَ حَـــدَثَ؟ هَلْ أَوْجَدَهُ اللهُ مِنَ العَدَمِ؟ ولِمَاذا خَلَقَهُ وَحِيدًا ولَيْسَ لَهُ زَوْجٌ مِثْلَ كُلِّ الْمَخْلُوقاتِ؟!

لَقَدْ أَرْضَعَتْهُ غَزالَةٌ، هَلْ هُوَ ابْنُهَا وكانَ خَلْقُهُ آيَةً ومُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزاتِ اللهِ؟

ضَاقَ عَقْلُ الفَتَى، وعَجَزَ عَنِ الوُصُولِ إِلَى إِجاباتٍ عَنْ تَساؤُلاتِهِ، لَمْ يَعُدْ يُوَجِّهُهُ إِلَى الطَّرِيقِ، وسَـــارَ ضَالًّا فِي مَمَرَّاتِ الجَزِيرَةِ لا يَعْرِفُ إِلَى أَيْنَ سَيَصِلُ بِهِ الطَّرِيقُ. كُلُّ هَذا لأَنَّ عَقْلَهُ يَبْحَثُ عَنْ إِجابَةٍ لِسُؤالِ نَفْسِهِ.

أَفَاقَ الفَتَى عَـــلَى رَذاذِ مَوْجِ البَحْرِ الثائِرِ يُداعِبُ وَجْهَـــهُ. جَلَسَ بِجِوارِ نَخْلَةِ البَلَحِ العالِيَةِ عَلَى شَاطِئِ المُحِيطِ . تَذَكَّرَ قَوْلَ أُمِّهِ لَهُ بِأَنَّهُ مِنْ فَصِيلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنْ كُلِّ الفَصائِلِ الَّتِي هُنا.. صاحَ مُتَسائِلًا وقالَ:

- وأَيْنَ هَذِه الفَصِيلَةُ؟! ولِمَاذا أَنا هُنا وَحْدِي؟

مَالَتِ النَّخْلَةُ بِجِذْعِهَا ناحِيَتَهُ، وقالَتْ لَهُ فِي حَنانٍ:

- أَنْتَ مِنْ أَبْناءِ آدَمَ يا وَلَدِي.

سَأَلَها مُتَشَكِّكًا وَقَالَ:

- وكَيْفَ تَعْرِفِينَ؟

أَجابَتْ قائِلَةً:

- كُلُّ الحَيواناتِ والطُّيُورِ والأَشْجارِ يَعْرِفُونَ.

صاحَ الفَتَى وَقَالَ:

- ولِمَاذا لَمْ يُخْبِرْنِي أَحَدٌ؟

أَجابَتِ النَّخْلَةُ وَقَالَتْ:

- فِي البِدَايَةِ خافَ مِنْكَ الجَمِيعُ .. وحِينَ عَرَفْتَ اللهَ أَحَبَّكَ الجَمِيعُ.

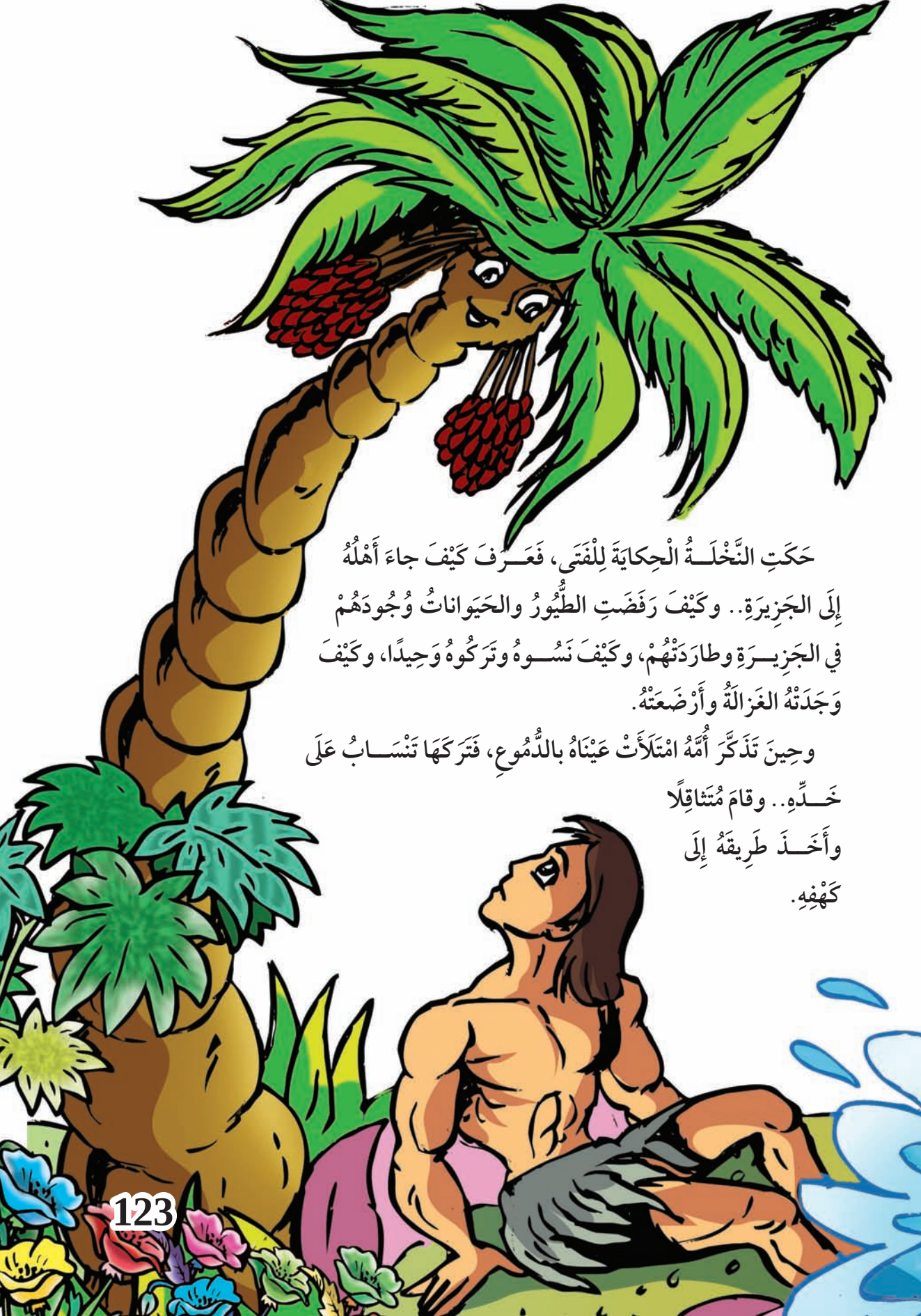

حَكَتِ النَّخْلَــةُ الْحِكايَةَ لِلْفَتَى، فَعَــرَفَ كَيْفَ جاءَ أَهْلُهُ إِلَى الجَزِيرَةِ.. وكَيْفَ رَفَضَتِ الطُّيُورُ والحَيَواناتُ وُجُودَهُمْ في الجَزِيــرَةِ وطارَدَتْهُمْ، وكَيْفَ نَسُــوهُ وتَرَكُوهُ وَحِيدًا، وكَيْفَ وَجَدَتْهُ الغَزالَةُ وأَرْضَعَتْهُ.

وحِينَ تَذَكَّرَ أُمَّهُ امْتَلَأَتْ عَيْنَاهُ بالدُّمُوعِ، فَتَرَكَهَا تَنْسَــابُ عَلَى خَــدِّهِ.. وقامَ مُتَثاقِلًا وأَخَــذَ طَرِيقَهُ إِلَى كَهْفِهِ.

خَاتِمَة

لَمْ يَعْرِفِ النَّوْمُ طَرِيقَهُ إِلَى عَيْنِ الفَتَى.. ظَلَّ شَـــرِيطُ تارِيخِهِ يَعْرِضُ عَلَى عَقْلِهِ صُوَرَ حَياتِهِ بالجَزِيرَةِ.. تَذَكَّرَ كَيْفَ حَبَا عَلَى أَرْبَعٍ.. وكَيْفَ اعْتَمَدَ عَلَى الشُّـــجَيْراتِ القَصِيرَةِ وَوَقَفَ عَلَى ســـاقَيْهِ الخَلْفِيَّتَيْنِ، تَذَكَّرَ يَوْمَ اكْتَشَفَ أَنَّهُ يَخْتَلِفُ عَنْ كُلِّ ما حَوْلَهُ حِينَ لَمْ يَنْبُتْ لَهُ قَرْنانِ فِي رَأْسِـــهِ مِثْلَ أَصْحابِهِ مِنَ التُّيُوسِ الَّذِينَ كَبِرُوا مَعَهُ.. وأَتاهُ صَوْتُ أُمِّهِ يَقُولُ لَهُ:

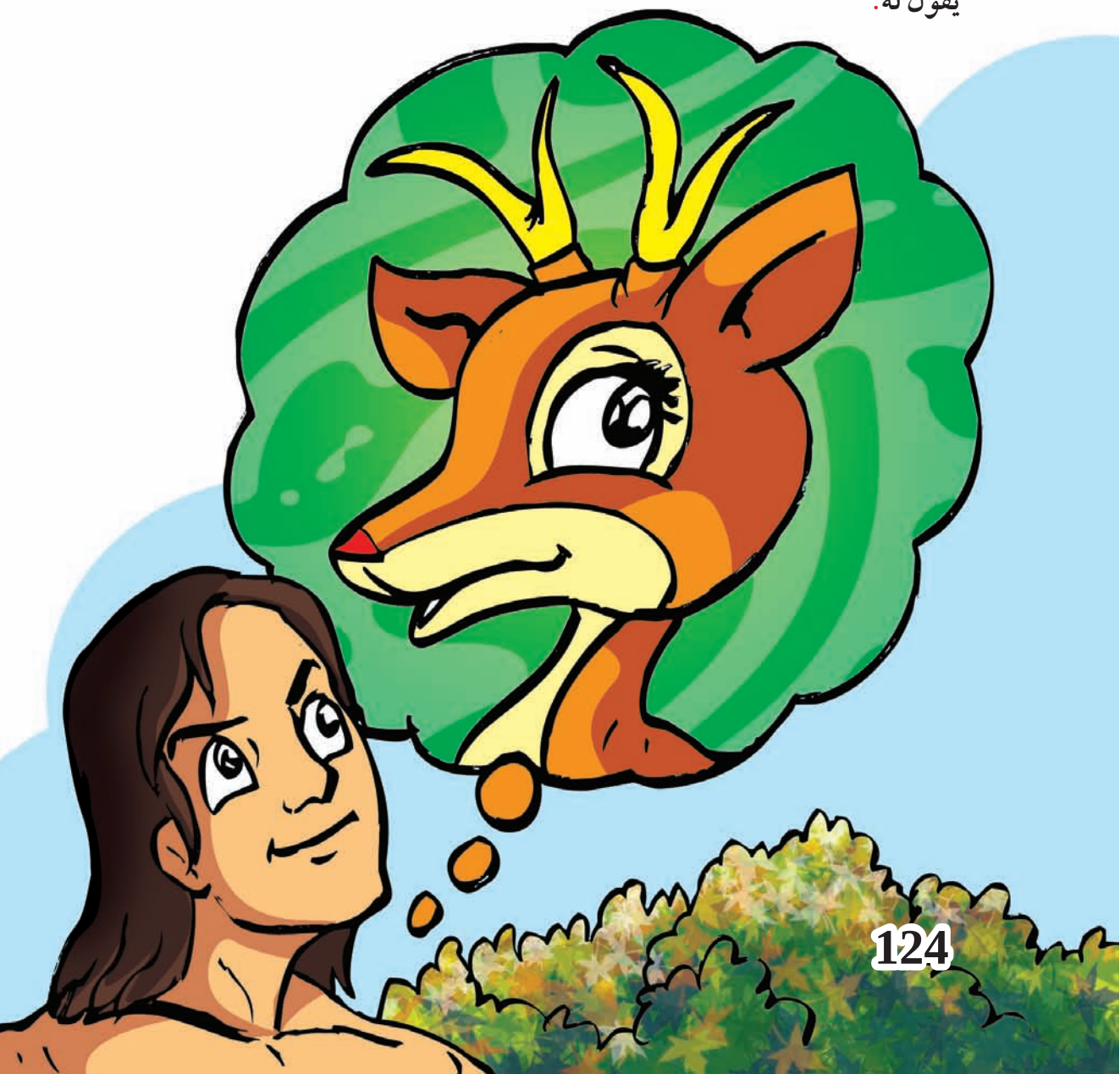

- لَنْ يَنْبُتَ لَكَ قُرُونٌ يا وَلَدِي؛ فَأَنْتَ مِنْ فَصِيلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنْ كُلِّ الفَصائِلِ الَّتِي هُنا.

وتَذَكَّرَ يَــوْمَ أَنْ خَاصَمَهُ التَّيْسُ الكَبِيرُ مِنْ أَجْلِ عُشْــبَةٍ خَضْراءَ وقاتَلَهُ مُعْتَمِدًا عَلَى قَرْنَيْهِ، وكَيْفَ هَداهُ عَقْلُهُ إِلَى اكْتِشَافِ الحَرْبَةِ الخَشَبِيَّةِ ذاتِ السِّنِّ المُدَبَّبَةِ والَّتِي صارَتْ بَدِيلًا لَهُ عَنِ القَرْنَيْنِ يُدافِعُ بِهَا عَنْ نَفْسِــهِ، وكَيْفَ تَجَنَّبَــتِ الحَيَوانَاتُ الاقْتِرابَ مِنْهُ وابْتَعَدَتْ عَنْ طَرِيقِهِ حِينَ امْتَلَكَ النَّارَ.

وانْطَلَــقَ عَقْلُ الفَتَى يَبْحَثُ عَنْ صُوَرٍ لأَهْلِهِ الَّذِيــنَ طارَدَتْهُم الطُّيُورُ والحَيَواناتُ ورَفَضُــوا وُجُودَهُمْ عَلَى أَرْضِهِم؛ خَوْفًا مِنْهُم، ونَسُــوهُ وَحِيــدًا ورَحَلُوا. لَقَدْ كانَتِ الغَزالَةُ أَحَنَّ عَلَيْهِ مِنْ أُمِّهِ الَّتِي وَلَدَتْهُ حِينَ نَسِيَتْهُ وتَرَكَتْهُ لِلْغَزالَةِ تُرْضِعُهُ بَدِيلًا عَنْهَا.

امْتَلَأَ قَلْبُ الفَتَــى بالْحَنِينِ إِلَى أَهْلِهِ.. إِلَى صُحْبَةٍ مِنْ جِنْسِــهِ، يُسَــبِّحُونَ للهِ مَعًا.. ويَبْحَثُونَ مَعًا فِي قُدْراتِهِ ومُعْجِزاتِهِ عَلَى الأَرْضِ.

صَمَتَ العَقْلُ قَلِيلًا.. وَجَدَتْهَا النَّفْسُ فُرْصَةً وقالَتْ مُتَسائِلَةً:

- ومَا أَدْراكَ أَنَّهُمْ عَرَفُوا اللهَ كَمَا عَرَفْتَهُ؟

أَجابَ العَقْلُ، وقالَ:

- العَقْــلُ الَّذِي اهْتَدَى إِلَى أَنْ يَرْكَبَ مَوْجَ البَحْــرِ، لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَرَفَ اللهَ وآمَنَ بِهِ، فَسَخَّرَ اللهُ لَهُ البَحْرَ مَرْكَبًا وطَعامًا.

قَرَّرَ الفَتَى أَنْ يَرْكَبَ البَحْرَ ويَخْرُجَ باحِثًا عَنْ عَشِيرَتِهِ.. إذا كانُوا قَدْ سَبَقُوهُ وعَرَفُوا اللهَ فَإِنَّهُ سَــيَعْرِفُ مِنْهُم ما عَرَفُوهُ.. وإذا كانَ قَدْ سَــبَقَهُم هُوَ، فَسَوْفَ يُعَلِّمُهُمْ ما عَرَفَهُ وما آمَنَ بِهِ.

حِينَ وَصَلَ الفَتَى إِلَى هَذا القَرارِ.. هَدَأَتْ رُوحُهُ وبَدَأَ النَّوْمُ يُداعِبُ عَقْلَهُ فاسْتَجابَ لَهُ، ولَمْ يَعْرِفْ أَنَّ البُومَةَ والهُدْهُدَ كانا شاهِدَيْنِ عَلَى قَرارِهِ.

وحِينَ جاءَ الصَّباحُ، وطَرَدَ ضَوْءُ الشَّــمْسِ ظَلامَ اللَّيْلِ مِنْ فَــوْقِ الجَزِيرَةِ، صَحا

الفَتَــى.. وحِيــنَ خَرَجَ مِنْ كَهْفِــهِ وأَطَلَّ عَلَى الــوادِي الأَخْضَرِ أَمَامَــهُ، فُوجِئَ بِكُلِّ الحَيَواناتِ والطُّيورِ تَقِفُ في انْتِظارِهِ.. ولَحْظَةَ أَنْ لاحَ لَهُمْ صاحُوا جَمِيعًا:

- أَنْتَ سَيِّدُنا.

بِهُدُوءٍ قالَ الفَتَى:

- سَيِّدِي وسَيِّدُكُمْ هُوَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعَالَى.

قالَتِ الطُّيُورُ والحَيَواناتُ:

- ابْقَ مَعَنَا.

قالَ الفَتَى:

- عِنْدِي حَنِينٌ لِلْأَهْلِ.. لا بُدَّ أَنْ أُحــاوِلَ العُثُورَ عَلَيْهِمْ.. أَنَا في حاجَةٍ إِلَيْهِمْ ، ورُبَّما كانُوا هُمْ في حَاجَةٍ إِلَيَّ. ساعِدُونِي لإِعْدادِ مَرْكَبِ بَحْرٍ كَالَّذِي جَاءُوا وراحُوا بِهِ.

اضْطُرَّتِ الحَيَواناتُ إِلَى طاعَةِ الفَتَى، وقامُوا بِجَمْعِ جُذُوعِ الشَّــجَرِ الجَافَّةِ المُلْقاةِ في الجَزِيرَةِ هُنا وهُناكَ.. وهُناكَ أَسْــفَلَ نَخْلَةِ البَلَحِ العالِيَةِ رَبَطَها الفَتَى بِجِوَارِ بَعْضِهَا بِحبَالٍ صَنَعَهَا مِنْ أَلْيافِ الأَشْجارِ وَلِيفِ النَّخِيلِ، وصَنَعَ طَوْفًا كَبِيرًا ولَمْ يَنْسَ أَنْ يَصْنَعَ لِنَفْسِهِ حُجْرَةً صَغِيرَةً في وَسَطِهِ لِيَحْتَمِيَ فِيهَا.. ومِنْ عِنْدِ أَحَدِ أَطْرافِهِ صَنَعَ دَفَّةً تُوَجِّهُهُ.

تَعاوَنُوا جَمِيعًــا ودَفَعُوا الطَّــوْفَ إِلَى المَاءِ.. وقَبْلَ أَنْ يُبْحِــرَ بِهِ الفَتَى..

كانَتِ الطُّيورُ قَدْ حَمَّلَتْهُ بِكَمِّيَّــاتٍ كَبِيرَةٍ مِنْ ثِمارِ الجَزِيرَةِ وفاكِهَتِهَا..

وَوَقَفُوا جَمِيعًا عَلَى فُرُوعِ الأَشْجارِ الْمُطِلَّةِ عَلَى البَحْرِ يُشارِكُونَ الحيَواناتِ في وَداعِهِ. وظَلُّوا يُراقِبُونَهُ حَتَّى اخْتَفَى عَنْ أَعْيُنِهِمْ، فَعادُوا إِلَى جَزِيرَتِهِمْ وهُمْ يَدْعُونَ لَهُ بِالسَّلامَةِ .

أَسْئِلَةٌ عَامَّةٌ عَلَى الْكِتَابِ

س1 : كَيْفَ عَرَفَتْ حيوَانَاتُ الْجَزِيرَةِ الإِنْسَانَ؟

س2 : مَاذَا حَدَثَ لِوَلِيدِ الغَزَالَةِ عِنْدَمَا خَرَجَ مِنَ الخَمِيلَةِ؟

س3 : هَلْ وَجَدَتِ الْغَزَالَةُ صَغِيرَهَا؟ وَمَاذَا فَعَلَتْ وَقْتَهَا؟

س4 : مَنِ الَّذِي عَرَفَ خَبَرَ الْغَزَالَةِ وَالطِّفْلِ وَأَخْبَرَ الْحَيوَانَاتِ؟

س5 : مَا الشَّرْطُ الَّذِي وَضَعَتْهُ الحَيوَانَاتُ لِكَيْ يَعِيشَ مَعَهُمُ الطِّفْلُ الصَّغِيرُ؟

س6 : مَتَى أَدْرَكَتِ الْغَزَالَةُ أَنَّهُ صَارَ لِزَامًا عَلَيْهَا أَنْ تَمْنَعَ رَضِيعَهَا مِن مَصِّ ثَدْيَيْهَا؟

س7 : كَيْفَ عَرَفَ الصَّبِيُّ أَنَّهُ مِنْ فَصِيلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنِ الْحَيوَانَاتِ؟

س8 : هَلِ اعْتَزَلَ الصَّبِيُّ مَبِيتَ الْغِزْلَانِ؟ وَلِمَاذَا؟

س9 : كَيْفَ انْسَحَبَ التَّيْسُ مِنَ الْمَعْرَكَةِ مَعَ الصَّبِيِّ؟ وَلِمَاذَا؟

س10: كَيْفَ اقْتَنَعَ الصَّبِيُّ بِمَا قَالَتْهُ أُمُّهُ بَعْدَ مَعْرَكَتِهِ مَعَ التَّيْسِ؟ وَهَلْ تَصَالَحَ مَعَهُ؟

س11: مَا الَّذِي كَانَ يُضَايِقُ الفَتَى؟ وَمَاذَا فَعَلَ بِرِيشِ النَّسْرِ؟

س12: مَاذَا حَدَثَ لِلغَزَالَةِ عِنْدَمَا تَرَكَهَا الفَتَى فِي الكَهْفِ؟

س13: كَيْفَ عَرَفَ الفَتَى النَّارَ؟ وَمَاذَا قَالَ اللَّهَبُ لِلفَتَى؟

س14: كَيْفَ اسْتَطَاعَ الفَتَى أَنْ يَصْنَعَ الْوِعَاءَ؟ وَلِمَاذَا صَنَعَهُ؟

س15: أَيْنَ رَأَى الفَتَى قَطِيعَ الخَيْلِ؟ وَلِمَاذَا كَانَ الحِصَانُ يَبْتَعِدُ عَنِ الفَتَى كُلَّمَا رَآهُ؟

س16: مَا الَّذِي جَعَلَ الْأَشْجَارَ تَتَرَاقَصُ وَتُغَنِّي حَوْلَ الفَتَى؟ وَمَتَى فَكَّرَ الفَتَى فِي خَالِقِ الْمَوْجُودَاتِ؟

س17: مَاذَا قَالَتِ الْبُومَةُ لِلْفَتَى عِنْدَمَا سَأَلَهَا عَنِ القَمَرِ؟ وَمَا الشَّيْءُ الَّذِي عَلَّمَتْهُ الْبُومَةُ لِلْفَتَى؟

س18: هَلْ سَاعَدَ الْهُدْهُدُ الفَتَى فِي مَعْرِفَةِ مَنْ أَوْجَدَ المَوْجُودَاتِ؟ وَلِمَاذَا؟

س19: هَلْ عَرَفَ الفَتَى أَنَّ لِلْكَوْنِ إِلهًا وَاحِدًا؟ وَكَيْفَ أَدْرَكَ ذَلِكَ؟

س20: هَلْ عَرَفَ الفَتَى أَنَّهُ مِنْ أَبْنَاءِ آدَمَ؟ وَمَنْ أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ؟ وَمَاذَا قَرَّرَ فِي النِّهَايَةِ؟